زفاف بالملابس السوداء

رواية من تأليف

محمود عبد العزيز فرج

«الحب حرمان، فإذا ذهب الحرمان ذهب الحب»

٤ شارع الشهيد محمود فؤاد مصر الجديدة ، تليفون ٢٩٠٠٠٥٧- القاهرة
موافقة إدارة الرقابة على المصنفات الفنية رقم ٢٥٤ بتاريخ ١٩٩٧/٣/١٩



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي
الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا
كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾

صدق الله العظيم

الآية ٦٩، ٧٠ من سورة يونس

تقـــديم

لم أكن قد تعاملت مع رجال الوجه القبلى فى أرضهم ، حيث لا يمكن الحكم علـى تصرفات الإنسان إلا من خلال التعاملات اليومية فى البيئة الطبيعية له ، وكنت أضحـــك مع من يضحكون على ما يقال من نكت تهزأ ببنى وطننا من أهل الصعيد حيث لـم تكـن لدى المعرفة التامة بهم ، وعندما سافرت إلى دول الخليج ، تبين لى كـم الـترابط الـذى يجمع بينهم ، فكلهم بلديات وكلهم ولد خال وولد عم ، عندما يحضر أحدهم مـــن مصــر يتسابق الجميع لاستقباله واستضافته ومن لا يسعده الحظ بذلك يضع فى يده مبلغاً مناســباً يمكنه من تجاوز تكاليف السفر ويرسل منه لأسرته ، ثم يتولى الجميع البحث له عن عمـل ومعاونته حتى يستطيع الاعتماد على نفسه ، فإذا رغب أحدهم فى السفر ، قام كل منـــهم بوضع مبلغ مناسب فى يده حتى يستطيع أن يشترى ما يريـد شـراءه للأهـل والأولاد ، وهكذا يتم التعاون بينهم فى جميع الملمات أو المناسبات السـعيدة أو الحزينـة ، تجدهـم أهلاً، أسرة واحدة ، وعلى وجه الخصوص أهل النوبة فهم يطبقـــون مفــاهيم الشــريعة الإسلامية السمحة فى الترابط والتآلف ، والمسلم للمسلم كالجسد الواحد .

وجاء اليوم الذى تعاملت فيه مع هؤلاء البشر وجها لوجه فى أرضـــهم وبيئتـــهم الطبيعية ، وذلك عندما اجتاز ابنى اختبارات المرحلـــة الثانويـــة العامـــة ، أول مراحـل مواجهته للحياة الحقيقية بعد صراع مرير مع مواد علمية تم اختيارها وصياغتها بصـــورة تعمد واضعوها ألا تكون مفهومة ، وأسلوب تدريس منفر لا يســـتطيع الطـــالب اجتيـــاز الاختبارات إلا بالمسكنات المكلفة التى يطلقون عليها الدروس الخصوصية ، وكان أن تـم إلحاقة بجامعة تبعد عن سكننا بمئات الكيلومترات ،ويمكن نقلة إلى جامعـــة قريبـــة مـــن السكن مقابل سداد تبرع إجبارى ، كيف وقد تم التخطيط للجامعات الإقليمية لكى يلحـــق الطالب بأقرب جامعة إلى مسكنه ؟ المهم أننى سافرت إلى تلك البلـــدة " ســـوهاج " وقـــد رتبت لعملية النقل هذه مدة لا تقل عن أسبوعين ، بحسب ما بلغنى من أحد الأصدقاء عـــن مدة نقل ابنه التى بلغت أكثر من شهرين ، وأثناء السفر سألت عن مكان مناسب للإقامـــة، فاكتفى الكثيرون بأن بالمحطة فنادق كثيرة ، وتطوعت إحدى السيدات الصعيديات وهـــو الأمر الذى لم أكن أتوقعه لما هو معروف عنهن من عـــدم الاختـــلاط أو الحديـــث مـــع الغرباء، ودلتنى على النادى الاجتماعى حيث تم به إلحاق فندق لإقامة أســـاتذة الجامعـــة

والقضاة وغيرهم ، وفعلا وجدته مجهزا تجهيزا جيدا ، والأجرة معقولة جدا وبالإفطار ، وبعد الإفطار سألت موظف الاستقبال عن مقر الجامعة فأشار إليها ، فإذا هى لا تبعد أكثر من أمتار محدودة ، وقابلنى الموظف بابتسامة مشرقة موضحا لى معرفته بمدى الجهد والتعب الذى نقابله لكى تتم عمليات النقل هذه وطلب منى صورة البطاقة العائلية والصفحة التى سجل بها ابنى ، وبمجرد عودتى بعد عملية التصوير هذه فوجئت به يناولنى خطاب الموافقة على النقل موقعا وممهوراً بخاتم الجمهورية ، ووجدت أنه لا يوجد داع لإقامتى مدة أطول فتوجهت إلى موظف الاستقبال بالفندق لسداد المستحق علـى، وفوجئت برفضه الحصول على أية مبالغ تزيد على مقابل الإقامة ، رغم أن ما يسمونه " بقشيش " أمر متعارف عليه فى جميع فنادق العالم ، لكنه ليس كذلك فى بلاد الصعيد ، أنهم ينظرون إليه باعتباره صدقة ، وعندما سألت عن وسيلة أذهب بها إلى محطة القطار، تبرع اثنان من أهل هذه البلدة ، فدلانى على الوسيلة واصطحبانى حتى شباك التذاكر ، فقدمتهم ظنا منى أنهما مسافران ، لكنى فوجئت بهما بأنهما قدما فقط معى ليرشدانى إلى المحطة ، ثم أردفا ذلك بمفاكهتى طالبين عدم التزيد فيما يطلق عليهم من " نكات " أو قفشات تقلل من شأنهم .

ووجدت أنه لزاما على كل ذى قلم نزيه أن يقدم الشخصية الصعيدية للمواطن المصرى وللعالم أجمع ، بالصورة البراقة التى تظهر كفاءته وقدراته الفكرية والعملية التى اكتسبها عن أجدادنا المصريين القدماء منذ عشرات وربما مئات الآلاف من السنين وليس بالحديث عنهم باعتبارهم البسطاء السذج الذى يمكن لكل من هب ودب أن يضحك عليهم، ويكفى أنك ربما تستطيع أن تستخف بعقلية أحدهم مرة واحدة نتيجة طيبته وثقته المفرطة فى الجميع ، لكنه وبمجرد أن يكتشف أنك تهزأ به أولاً يحملها لك ماعاش وثانيا لا يمكن لأحد مهما كان من الاستخفاف به مرة أخرى ، والعجيب فى الأمر أن معظم إن لم يكن كل مقاولى البناء والمحارة والبلاط وخلافه من الصعايدة ، ومعظم أصحاب العقارات التى تؤجر أو تملك من الصعايدة ، بل إن الصعيدى يحضر من بلده أو يسافر إلى أى بلد عربى مجرد عامل بسيط ، وبعد سنوات معدودة على الأصابع إلا وتجده قد أصبح مقاولا بدرجة ما من الكبر أو الصغر ، ولولا القوانين فى تلك البلاد التى لا تسمح بالتملك أو مزاولة الأعمال لغير مواطنيها لتملك هؤلاء الصعايدة أكثر عقارات ومهن هذه البلاد .

ولا يفوتنى فى هذه المناسبة إلا أن أتوجه بالشكر لكل من أعاننى وعاوننى على إصدار أول طبعة من هذه الرواية وأخص بالذكر الأستاذين أحمد حمزة الفيلكاوى الوكيل المساعد بوزارة المالية بالكويت والأستاذ سامى الصقعبى المدير المالى بتلك الوزارة ، وكذلك الاخوة العاملين بمطابع الهيئة العامة للتعليم التطبيقى والتدريب بالكويت ، وشكر خاص للأستاذ محمود عشرة الوكيل الأول بوزارة التربية والتعليم بالإسكندرية للمراجعة النحوية واللفظية المبدئية حيث تمت بعض الإضافات التى لم تعرض عليه حتى لا يعتبر مسئولا عما قد يظهر من أخطاء تفضل علينا الدكتور الأستاذ يسرى العزب بالكشف عنها، والإفادة بالكثير من الملاحظات التى أعتبرها دروسا تفيدنى فى أعمالى القادمة ، وأعتذر له أننى لم أتمكن من تلافيها فى هذه الطبعة ، وأشكر المهندس محمد ذكى لإهدائه اللوحات التى ظهرت فى هذه الرواية ، وشكر خاص للصديق والأخ الكريم اللواء أحمد حسن سعد على حماسه لهذه الرواية حيث تفضل مع أعضاء مجلس إدارة اتحاد الكتاب وجمعية الأدباء بمناقشتها فى ندوة عامة ، كما تفضلوا بضمى لعضوية الجمعية والاتحاد .

وأخيرا عزيزى القارئ .. أرجو أن تجد فى قراءتك لهذه الرواية ما يشبع هوايتك، وأن يصلك ما هدفت به من محاولة لتقديم شخصية واقعية لما يجب أن تكون عليه أخلاق المواطن المصرى فى تعاملاته اليومية وفى احتضانه لأهله ومعارفه حتى يرفع عنهم البؤس والحاجة ، بغض النظر عما يواجهه من سلبيات أو مواقف لا يخرجه منها إلا تقواه وصلته بالله سبحانه وتعالى ، وأترك لك الحكم ، ويسعدنى ما قد يصلنى من نقد بناء، أو معرفة ما ترمى إليه الأحداث ، خاصة ما قد يعتبر استطرادا ليس له مبرر سوى عرض لما كانت عليه الحياة سابقا وما جد عليها من تغير هو من وجهة نظرى إلى الأسوأ فى كل شئ ، وما أدرجت هذه الاستطرادات إلا بهدف تدارك أخطائنا والعمل على تصحيحها ما أمكننا ذلك ، حيث أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وما يحتاج إلى تغيير ما بأنفسنا كثير جدا ، وجدت من واجبى التنويه إليه بالكتابة عنه فى روايات فيها بعض حرفية الكتابة ، علها تصل إليك عزيزى القارئ ، والله من وراء القصد .

محمود عبد العزيز فرج

١- حب

أحلام جميلة تلك التي كانت تأتيها ليلا ، هذا الشاب الوسيم ، الذي أصبح من المقرر أن تراه كل يوم ، في الحافلة يحجز لها مكانا ، أو في الكلية يحاول أن يكون كظلها ، ما لها تراه كلما أغمضت عينيها ، وكأنما هما في عناق جميل طويل لذيذ ، لا .. إنه ليس عناقا ، إنه أكثر من العناق بقليل ، ولا حتى هذا .. إنه أكثر من العناق بكثير ، وكثير جدا ، ومن العجيب أنها هي التي تطارده ، الأحلام لا تنقطع ، تأتيها ليلا أثناء النوم ، ونهارا كلما خلت إلى نفسها ، إنها ليست أحلاما .. إنها شئ من الواقع أسقط في العقل الباطن لا يظهر إلا كلما غفت أو تغافلت ، وكلما حاولت أن تتذكر ، تجد نفس المواقف تتكرر ، وكأنما هي حقيقة ، كيف ..؟

حاولت أن تتذكر ، هل حقا تم التعارف بينهما ؟ ، وهل جاء يدعوها لترى عمته المريضة التي فاجأها أزمة قلبية حادة ، أو تدعو لها أحدا ممن تعرفه من الأطباء ؟ ادعى أنه لا يعرف أحدا ، فقد قدموا حديثا إلى القاهرة . هو يعلم أنها طالبة بكلية الطب ، فناداها بدكتورة ، فهو لا يعرف لها اسما ، وهي أيضا ، لا تعرف له اسما ، ومنذ ذاك ، بدأت تلك الأحلام ، وكأنما حدث لقاء بينهما ، وبعقول المراهقات كانت تستشعرها في بداية الأمر برومانسية ، ولكن عندما بدأت تواتيها في كل وقت ، وتفرض عليها تذكرها كأنما حدثت فعلا ، أثار ذلك عجبها ، إذ كيف يمكن أن تكون أحلاما وهي تأتيها ليلا ونهارا ، أثناء النوم أو في اليقظة ، هل حقا فقدت عذريتها ؟ ، وبدأت تشعر وكأنما أعراض حمل تظهر عليها ، هل حقا هي حامل ، وممن ؟ ، رجل لا تكاد تعرفه ولا تعرف إسمه كاملا ، وربما ما قاله لها ليس اسمه ، مجرد شخص كان يعاملها بلطف أثناء ركوبها الحافلة إلى الجامعة أو العودة منها ، كل ما تذكره ، أنه كان يتودد إليها ، يفسح لها مكانا في الحافلة التي غالبا ما تكون مكتظة بالبشر ، يختلط فيها الحابل بالنابل ، وكأنما من سير تلك الحافلات ، أراد لها أن تكون مرتعا لمن تسول له نفسه الاحتكاك بخلق الله ، هل كان التخطيط لهذه الحافلات أن تكون سببا في إشاعة الفاحشة والعياذ بالله ؟ ، لذلك لم تكن تمانع من أن تقبل المجاملات التي يقدمها لها ، شهامة ابن النيل لم تذهب مع ما ذهب من الكثير من عاداتنا وتقاليدنا الجميلة ، ووصل به الأمر ، أنه كان يذهب إلى موقف الحافلات ويحجز لها مقعدا ، ويجلسها مكانه عندما تصعد ، شهامة ما بعدها شهامة . إنها لا تنكر بينها وبين نفسها ، أنها بدأت تستلطفه ، ثم وجدت نفسها تتمنى رؤيته ، ثم أصبحت تشتاق له ، لكن أن يطوف بها طائف ، كأنما أسلمت له نفسها ، وتتصور أنها كانت

تطارده وتسعى خلفه ، هل هذا معقول ؟ ثم ما هي الدلائل ، لو كان حدث اعتداء ، أما كانت له آثار ، على الأقل دم غشاء البكارة ، أين هو ؟ إنها تتذكر أنها ذهبت معه إلى بيت عمته ، لكنها لا تذكر متى خرجت ؟ ولكنهم وجدوها في حالة إغماء على إحدى الأرائك عند موقف الحافلات القريب من بيتها ، أفاقوها وذهبت إلى المنزل ، ولا أثر لدم ، أو عنف ، أو أي شئ بالمرة ، لكن أعراض الحمل تبدو واضحة ، كيف هذا ؟ هل خالفت أوامر والدها التي كان يصدرها في عبارات هادئة ناصحة ، هي قواعد لا يجب الخروج عليها ، دائما ما كان يقول لها :

• "لا تجالسي أحدا شابا كان أو فتاة ، الفتاة أكثر إفسادا للفتاة من الشاب ، والشباب غالبيتهم مخادعون ، لا يهمهم إلا أن يصلوا إلي تحقيق رغباتهم ، دون النظر إلى ما يسببونه باستهتارهم وعدم تحملهم للمسئولية من إيلام للآخرين ، وعلى الفتاة الواعية أن تتفهم هذه الحقائق جيدا ، وتتعامل معها بالعقل والمنطق وليس بالهوى والاندفاع . لذلك كانت دائما منطوية على نفسها ، مبتعدة عن جميع زملائها وزميلاتها ، مؤثرة الوحدة على الجلساء أيا كانوا ، جلساء خير أو سوء . ما الذي جعلها تسمح لهذا المتطفل أن يحادثها ؟ ، لماذا سمحت لنفسها أن تقبل منه هذه المجاملات البسيطة ؟ ربما لأنها عندما رفضت خدماته في أول الأمر ، وسمعت أصوات الاستنكار تتعالى من الجميع ، مع الهمسات التي كلها عجب ، كيف لفتاة محشورة بين عشرات من الشباب المحروم أن ترفض مجاملة من شاب يريد أن يجنبها ذلك ، ويبعدها عن احتكاك بقصد أو بدون قصد ؟ ووجدت النظرات مصوبة إليها وكأنها هي راغبة في هذا الزحام ، لذلك قبلت ، ولم تستطع أن ترفض بعدها ، وتمادى هو ، حتى لاحظت أنها ليست مصادفة ، وإنما الأمر متعمد ، وما كانت تملك إلا الابتسام ، شاكرة له حسن صنيعه ، ثم تعود إلى انطوائها ووحدتها لا تخالط أحدا ، ولا تجالس أحدا ، ولا تخاطب أحدا .

وساءلت نفسها ، ما الذي جذبه إليها ؟ سألته يوما بعد أن توطدت العلاقة بينهما ، وأجابها بصراحة أن انطواءها وهدوءها ووداعتها ، والحجاب الذي لف كل رأسها وشعرها ولم يظهر إلا وجهها ، أكسبوها جمالا شفافا واحتراما ، ولفتا للأنظار يدعو للتأمل ، ومع التأمل بدأ الإعجاب ، وتزايد الإعجاب مع ما أظهره الخلق القويم ، والاستقامة الواضحة . وصدقته ، أو لعلها كانت تريد أن تصدقه ، فما يترامى إلى مسامعها عن مغامرات زميلات الدراسة ، يجعلها في شوق لخوض

تجربة مثلهن ، لكنها لابد وأن تكون تجربة جادة ، حيث لا يوجد مكان لمن يرغب في التسلية ، أو تضييع الوقت . وهل كانت تجربتها معه جادة ؟

كان لا يعجبه تفردها بالانطواء والحجاب ، وكأنما هي تصد كل من تسول له نفسه الاقـــتراب منها ، بنية حسنة أو سيئة ، وهو مثل كثير من الشباب المتفرد ، يريدهن كلهن له ، ويتصور أن من تخرج عن هذه القاعدة لها حساب آخر عنده ، تعجب من أمرها ، فهو يظن أنه الفتك الـــذي لا يمكن لفتاة أن تهرب من محاصرته لها ، وإهماله أو عدم الاهتمام به ، جريمة لا تغتفر ، ولا بد مـــن عقابها ، أو على الأقل كسر شوكة أنفها الذي رفعته وترفعت به عليه ، وهو من هو ، علاء ابـــن الوجيه الأمثل عبد المنعم بك السلحدار . ظل يتأملها من بعيد ويراقبها أينما ذهبت . لم يكن زميلا لها في ذات الكلية ، ولكنه كان يتواجد دائما في كليتها ، حاول لفت نظرها ، لكنها لم تعبأ به ، ولم تعره انتباها ، وكلما ازدادت تمنعا ، كلما زاد تعلقا بها .

كلما نظر إلى وجهها ، يكاد يطير صوابه ، أبيض مشرب بحمرة طبيعية بدون أصباغ تمســـخه ، مسمسم في كل شئ ، أنف دقيق صغير لا يكاد يرى ، وعينان لم تستطع النظارة الـــتي تضعـــها عليهما أن تخفي بريقهما وجمالهما ، فلا علاقة للنظارة بجمال العيون ، في زرقة السماء أو خضـــرة الربيع ، وأهداب دقيقة كأنها رقائق تنسدل عليهما كلما أغمضت ، وتمنى أن يرى المزيد ، تطلـــع إلى الحجاب ، وتمنى لو أطاحت الرياح به ، فينعم برؤية شعرها ، يتمناها أن تكون شـــقراء ، إذ لم ترد ضمن قائمة ضحاياه فتاة شقراء ، ما كان ليستطيع المتر لبيب أن يخطط له في جذب انتباه فتاة شقراء ، لعل أقصى ما أمكنه الخادمات ، فما كانت القائمة تشتمل إلا على الخادمات ، أو بنـــات العزبة الساذجات ، لكن شقراء من المدينة ، وجامعية ، هذا ما لم يتمكن المتر لبيب من التخطيط له ، لعله لم يحظ في شبابه إلا بهذه النوعية من الفتيات ، أما عن نساء الليل ، فللمتر لبيـــب معـــهن مجلدات ، المتر لبيب هذا ليس لديه وقت للحب العذري ، وكلام الغزل ، والسعي وراء المتمنعات ، لذلك ، فقد كانت هذه الضحية بالنسبة له شئ جديد ، نوع لم تتطرق إليه فطنة المتر لبيب ، ولا قدراته ، ومع تكرار النظر إليها ، كان يرى كل شئ فيها جميلا ، حركاتها التلقائية التي لا تحاول لها رسما أو ترتيبا ، كانت بالنسبة له قمة في الأناقة والذوق والإتيكيت ، خجلها من كل شئ ، ومـــن لا شئ ، كان بالنسبة له هو الحياء ، الحياء الذي لم يلمسه في أي ممن سبقوها ، فلا خضـــرة ، ولا بهانه ، ولا من تدرج معهن متصورا أنه يرتقي في ذوقه ، كانت لديها أي من تلـــك الخصـــال ،

صنوف الخسة معروفة ، ما أن يبدأ في مزاولتها ، حتى تخلع أعتاهن تمنعا برقع الحياء ، أما هـــي .. فشئ أخر ، نموذج يحتاج لكل هذا الجهد وكل هذا الوقت . أخذ يتأملها ، يا له من جمال أخــــاذ تخفى تحت هذا الحجاب ، كيف يصف شعوره عندما يستطيع الفوز بها ، ماذا سيقول المتر لبيـــب ، محامي العائلة ، الذي يرسم له ويخطط لكي يفوز بنصيبه من الكعكة ، هذه المرة هو الذي يرســـم ويخطط ، لو فاز بها .. فلن تكون لأحد غيره ، ستكون له وحده .

هي تراه يتبعها في كل مكان تذهب إليه ، لكنه لم يحاول حتى مجرد إشعارها بوجوده ، ودفعــــها فضول أحمق ، أن تعرف ماذا وراءه ، لذلك لم تمانع عندما كان يحاول أن يقدم لها خدماته هـــذه ، فقد كانت من تلك التي يقدمها الجميع للجميع ، يفسح لها مكانا في وسائل النقل العام ، يحـــاول التعرض لكل من تسول له نفسه معاكستها ، ولا يوجد ما يمنع من أن تشكره ، ثم تطور الأمر من الشكر إلى الشكوى ، ثم الحديث في أمور أخرى ، ثم حدث ما حدث .

ومع ثقل ما تحتويه أحشاءها ، وما تحاول أن ترفضه بكل مقومات أخلاقها وتربيتها وعقلــــها ، ويؤكده الطب الذي تدرسه ، وتفرضه الكوابيس التي تراها دائما في يقظتها وفي منامها ، فإذا بهـــا تقفز من فراشها كأنما مسها طائف من الجن ، كيف تهاونت إلى هذا القدر من التنازل ، إنها مــــن عائلة تتمسك بالمبادئ والتقاليد .. عائلة رجعية بمفهوم شباب هذا العصر الذين استهانوا بـــالقيم والمبادئ ، وبكل شئ تقريبا ، فما أصبح عندهم لهذه الأمور قيمة أو معنى ، لابد وأن يقف هــــذا المستهتر عند حده ، أما لو كانت هذه الكوابيس حقيقة :

- " فلا بد وأن يتحمل نتيجة أخطائه كاملة ، أو أن يأخذنا نحن الاثنين .. لا .. بل نحن الثلاثـــة الطوفان ."

والطوفان في هذه الحالة ، شئ فظيع حقا ، كلما تذكرته ، انتفضت له جميع فرائسها ، وتساءلت مع نفسها .. كيف استطاع الوصول إليها ؟ كيف أسلمت له نفسها ؟ أم تراه هو الذي أرغمــها ! لم يرد في تلك الكوابيس ما يشير إلى ذلك ، دائما ما ترى نفسها هي التي تطارده ، هي بشـــحمها ولحمها ، وهل عندها شحم ؟ ربما ولا لحم أيضا ، هل حقا كانت تطارحه الغرام ؟ هل تبادلت معه كئوس المحبة ؟ وألهبت مشاعرها أطروحات الهيام ؟ وهل هذه هي النهاية ؟ أين هو ذلـــك الحـــب الذي كانت تتساقط كلماته من فمه كأنما قلبه هو الذي يتحدث ؟ أين وعوده لها ؟ لقد تبخـــرت أصبحت هرب .



إنها ليست أحلاما .. إنها شئ من الواقع أسقط في العقل الباطن لا يظهر إلا كلما غفت أو تغافلت

إنها لا تنكر أنها أخطأت ، أخطأت في أنها استجابت لمجاملاته ، وهل كل فتاة تستجيب لشـــاب عرض عليها الجلوس مكانه في حافلة ، أو تعرض لمن تسول له نفسه الاحتكاك بها ، تكـــون قـــد أخطأت ؟ هل محادثتها لشاب قدم لها خدمة فشكرته جريمة ؟ لا إن الخطأ خطأه هو ، فمن الـــذي استدرجها للذهاب معه إلي هذا الوكر ، الذي صوره لها على أنه بيت عمته المريضة ؟ ولا تـــدري لماذا ذهبت معه ؟ لعل مناداته لها بلقب دكتورة ، أشعرها بالأهمية ، وكأنما عرف الخبيث كيـــف يستدرجها ، فالعبارات والكلمات والألقاب في بعض الأحيان يكون لها سحر أقوى من أي شـئ ، وهل كانت دكتورة ؟ حقيقة أنه بينها وبين الدكترة عدة شهور ، ولكنها ليست طبيبة ، فلمـــاذا انساقت وراء وهم لم يتحقق بعد ، وهل هو وهم ؟ لقد أصبح الآن وهما ، بالجنين الذي تشعر به في أحشائها ، وتهربه الذي ليس له تفسير إلا أنه فعل فعلته دون أي أثر لتأنيب ضمير ، أو تستر على فتاة ساذجة ليس لها تجارب ، أوقعها حظها الأعمى في طريق هذا الأفاق .

وبعد أن كان هو الذي يسعى إليها ، بدأت هي التي تسعى إليه ، حاولت أن تتذكر بيت عمتـــه المزعوم ، وانتظرت أمامه أياما وأياما ، حتى طل بطلعته البهية ، كانت ترافقه فتاة ، ما أن رآهـــا حتى انتزع نفسه منها وهرول إليها ، سألته عن الفتاة التي كانت معه فأنكر ، لم تحضر لتحاســـبه على فجوره ، لقد حضرت لأمر واحد فقط ، هل هو صاحب هذه الكوابيس ؟ وكيف حـــدث ذلك ؟ ومتى ؟ حاول أن ينكر في البداية ، ولكن نظراتها الثاقبة التي كانت تحمل له الوعد والوعيد ، كانت أقوى بكثير من أن ينكر ، فأراد أن يصارحها بأن حياته هكذا ، فتاة اليوم وأخرى غـدا ، لكنه وجد شيئا ما يمنعه ، ووجد أن نفسه تهفو إليها ، لقد زيف مشاعرها وحصل على كل ما يريد وهي في غيبوبة ، فلماذا لا يحاول الحصول على رغباته برضاها ، وهذا مجال جديد يظهر فيه تفوقه ونجابته ، حاول أن يحتويها بعبارات الحب والغرام ، لكنها وهي في وعيها ، وبعد أن بدأت أعراض سمومه في الظهور جنينا ينمو في أحشائها ، فما كان يمكن أن يخدعها بمعسول الكلام ، حتى ولـــو كان قصائدا من نوع المعلقات ، حقيقة أنها كانت تشعر ببعض الضعف الناتج عن محبتها له ، لكن الكارثة التي وضعها فيها ، كانت كفيلة بأن تمحو كل مشاعر الحب بمجرد أن تتذكرها ، وكان هو يشعر بذلك بخبثه ، فما أن يجدها تسرح بعيدا مع كل كلمة حب يقولها ، حتى يبدأ في رسم خططه ، ونشر خيوطه القاتلة . وحتى يمحو من ذاكرتها تلك الشقة التي أسمتها وكرا ، كان لا بد لـــه أن يخترع لها أمرا جديدا ، فدعاها للتعرف على عائلته ، حقيقة أنهم في الكفر ، لكنه يستطيع أن يحول أي من الخادمات إلى صوت أمه ،حتى تطمئن ، ثم يبدأ في رسم خططه الجديدة ، وصدقته المسكينة

، أو لنقل أنها بعد أن فقدت أعز ما تملك ، لم يصبح لديها ما تخاف عليه منه أو من غيره ، فماذا سيفعل أكثر مما فعل ، لكنه لن يتمكن منها وهي في وعيها ، وهل كانت في وعيها عندما تمكن منها سابقا ؟ آه .. إذا هو خدرها ، وهذا هو السبب في أن ما تراه في كوابيسها هو ما اختزنه عقلها الباطن عن هذه الجريمة ، فلا يجب إذا أن تتناول أي شئ يقدم لها ، في بيت العائلة ، أو في الوكر إياه ، أو في زجاجات معبأة ومختومة .

وبدأت تدرك أولى كذباته ، إنهم ليسوا فقراء ، فمن يملك سيارة كتلك التي دعاها إليها ، لا يمكن أن يكون من راكبي الحافلات العامة ، إذا هو كان يقصدها ، وفي سبيل غرضه لم يمانع من أن يظهر نفسه بمظهر الفقراء المعدمين ، ثم ماذا يا ابن الأكابر ، قصر منيف ، من قصور باشوات زمان ، قديم حقا ، لكنه يحمل كل مظاهر الفخامة والأبهة ، تفنن مهندسوه وصانعوه في إظهار كل مباهج الفن الأوروبي القديم ، أشكال وزخارف تحمل أجمل مفاهيم الفن ، ثم خدم وحشم ، البواب انتفض بمجرد أن رأى السيارة تقترب من البوابة ، ثم السفرجي سارع لفتح الباب الداخلي ، لم يفعل شئيا سوى ما أطلقته السيارة من صوت مميز يعرفه الجميع ، ومن النظرة الأولى في الداخل ، تبين كم هو ثراؤهم ، فالأثاث كله تحف ، تفنن صانعوه في دقة صناعته ، حتى لكأنك تراه وكأنه لا يستطيع أن يحمل ريشة ، فإذا به يستطيع أن يتحمل فيلا ، أي فن وأي عبقرية تلك التي صنعت وصاغت وزينت ودهنت هذه القطع الأثرية من التحف ، لكن لا .. لن تبهرها كل هذه المظاهر ، لابد وأن تتأكد من وجود عائلته قبل أن تدخل ، والدته على الأقل ، فلعل والده يكون في عمله ، سألته :

• " أين والدتك ؟ .. لن أدخل قبل أن تستقبلني والدتك .."

لم يدر بخلدها المسكينة أنه يمكن أن يفبرك لها والدة ، وربما لم يكن هذا القصر ملكهم ، إنما هو وكر آخر ، فقد أصبحت الأوكار الآن أفخم من أن تنعت بهذا الاسم ، وهذا ما حدث ، دخل يدعو لها والدته ، فخرجت امرأة التحفت بالبرنس ، باعتبارها خارجة من الحمام ، دعتها للدخول وهي تخفي وجهها ، وهرولت داخلا وكأنما الحياء يمنعها من أن تخرج لملاقاة أحد بالبرنس ، ودخلت المسكينة وقد هدأت نفسها بعض الشيء ، ولكن القاعدة العامة لا .. لا لتناول أي شئ ، طعام أو شراب مهما كانت الدعوة ، ومهما كانت الظروف . اختارت أحد الكراسي تصادف وجوده بجوار الباب الخارجي فسارعت بالجلوس ، لكنه دعاها إلى جانبه على الكنبة المريحة ،

ووجدت نفسها ترفض بكل ما تملك من قوة على الرفض ، حتى أنه انكمش ذليلا خوفا من أن يعلو صوتها أكثر فيحضر أحد السفرجية الرجال ، إنه يستطيع أن يفعل أي شئ في وجود الخادمات ، فكلهن ملك يمينه ، ومن تتمنع بالعفة .. تطرد بأي حجة كانت ، لصه أو غير مؤدبة ، أما الخدم ، فقد كان يخشاهم ، لسوء حظه أنهم كانوا رجالا أشداء في الحق . لاطفها عن بعد ، ولما وجد منها بعض الاستجابة ، نهض سريعا يمرر شفتيه على رقبتها ووجنتيها ، لكنها وجدت يديها تقويان على ردعه ، حتى أنه سقط على الأرض ، فنهضت مودعة ، متوعدة ، وذكرته :

- " عائلتي من الصعيد الجواني ، وهناك ما فيش يا ماما ارحميني ، يعني الاخوة وأولاد العم وأولاد الخال سيذبحونك كالخروف قبلي ، وربما بعدي ، ولتخرج عليك السيدة الوالدة بالبرنس تولول وتهيل التراب على رأسها .."

ووجد نفسه يرد عليها بعنف أقسى من عنفها :

- " في ستين داهية انت واللي جابوكي ، انت فاكره نفسك إيه ، دي أقل شغالة عندنا أحسن منك ومن عائلتك كلهم .."

لكنه وجد نفسه يحاول أن يستميلها مرة أخرى ، مذكرا إياها بالحب الذي يربط قلبيهما ، وبالجنين الذي يجب أن يتربى بينهما ، أو على الأقل الذي يجب أن يحمل اسمه باعتباره الأب ، لكنها لم تكن لتأبه بهذا الحديث الذي لم يكن بالنسبة لها إلا فحيح ثعبان أرقط ، الهلاك لكل من يقترب منه . قالت له بدلال :

- " تزوجني ، وأنا لك بعد ذلك ما حييت ، أو على الأقل حتى يخرج الوليد إلى النور ، ولك كل ما تريد ، البقاء أو الطلاق .."

لكنها فوجئت بالكلمات تخرج من بين شفتيه لهيبا :

- زواج إيه يا شاطرة ، روحي شوفي واحد أهبل اضحكي عليه ... ولزقي له الجنين اللي بتقولي عليه ، انت فاكراني أهبل !! "

كانت قد عزمت أمرا ، لكنها أرادت أولا أن تشرك أختها في مشكلتها ، حقيقة أنها تصغرها قليلا ، لكنها تملك من رجاحة العقل وحسن التدبير أكثر منها بكثير . قدحت أختها زناد فكرها ، ثم قالت لها :



زواج إيه يا شاطرة ، روحي شوفي واحد أهبل اضحكي عليه .. ولزقي له الجنين اللي بتقولي عليه ...

• " هذا النوع من الشباب لا يؤخذ إلا باللؤم والمكيدة ، لا أقول أن نعمل مثـــل بتـــوع السينما ، نصور أو نسجل والأمور المستهلكة هذه ، ولكن تمادي معه في إظهار مشاعر الحب ، ولا تجعليه يلمس طرفا من فستانك ، وعندما تجديه قد استوى ، اسحبيه على المأذون ، وبعد العقد يفرجها ربنا مع الوالد والوالدة .."

وسألتها بسذاجة :

• " وما هو المطلوب مني بالضبط ، أنت تعلمين أن الامتحانات على الأبواب ، وهـــذا العمـــل يحتاج إلى وقت وجهد ، ثم من أين لي أن أذهب إليه ، هل سأتغيب عن الجامعة ؟"

وقالت أختها وهي ساهمة كأنما يأتيها الإلهام من السماء :

• " لا .. ولكننا سنذهب إليه ، أنا وأنت ، وخميس ابن محمدين البواب ، لا تخافي ، خميس مـــش حيعرف حاجة ، هو حيكون معانا على انك ذاهبة عند إحدى زميلاتك لإحضار محـــاضرة أو ملخصات أو كتاب ، ولو حصل حاجة يبقى هو معك يدافع عنك ، وأنا أطلب البوليـــس أو الوالد .. أي حاجة ، ساعتها ربنا يسهلها . أفهم انه يشعر بأن وراءك رجاله زي ما خوفتيـــه ، وخميس زي ما انت عارفة ، صحيح عمرة لا يزيد عن اتناشر أو تلاتاشر سنة ، لكنه زي الفلق .."

وذهب ثلاثتهم إلى الوكر بناء على موعد ، رأت الضوء ينبعث من الشيش ، فشبابيك الشـقة لا تفتح أبدا ، اللهم إلا عندما تصعد زوجة البواب لتنظيفها ، ونظرا لأن البواب يعرف ما تســتخدم فيه هذه الشقة ، فكان يشترط عدم وجود أحد بها عندما تصعد زوجته ، ولا أن يحضر أحد أثنـــاء وجودها بها ، وإذا حدث ، فهو قابع أمام بوابة العمارة ، ونداء بصوته الذي يهدر ، يأمر زوجتـــه بالنزول فورا حتى ولو كانت الشقة مقلوبة فوق تحت .

صعدت على حذر ، كان في انتظارها ، لم يتركها تضغط الجرس ، فتح الباب سريعا ، وحـــاول إحتواءها بين ذراعيه ، فانسلت بهدوء وبدون عنف، وبرشاقة لا تخلو من دلال ، وهي تقول :

• "إحنا قلنا إيه .. المأذون أولا ، ولك كل ما تريد .."

حاول أن يبهرها بالهدايا ، استعمل لها العبارات التي تتردد في الأعمال الفنية :

• " غمضي عينك .. ولو إني لا أمل النظر إليهما ، فهما يأسران قلبي .."

تصنعت إغماض عينيها ، فمع هذه الأشكال هي لا تأمن ما يمكن أن يفعله حتى ولو كانت عيناها مفتحتين ، لكنه كشفها :

• " إحنا قلنا إيه ..! يا ستي والله ما تخافيش ، وعلشان تصدقيني ، بلاش تغمضي عينك .."

وأحضر علبة قطيفة شيك جدا ، وفتحها أمام عينيها ، كانت تلمع لمعانا شديدا ، لم تصدق أنها ذهب حقيقي ، وأن ما يلمع هو ماس حقيقي ، فسايرته متصنعة الفرحة ، ولكي تمهد له تقبل فكرة الزواج التي تسيطر على تفكيرها ، صاحت تؤكد سعادتها :

• " الله .. الشبكة ..! دي جميلة قوي .. الله .. أنا بحبك قوي .."

ولفتها حول معصمها وطلبت منه أن يثبتها لها تماما كما يفعل العرسان ، وأخذت تمعن النظر فيها ، لا يمكن إلا أن تكون ذهبا حقيقيا ، فخلعتها وأخذت تدقق النظر باحثة عن التمغة ، حتى تحققت من أنها ذهب عيار ١٨ ، بقى أن تتأكد من أن الذي يلمع ماس حقيقي حر ، وليس تقليدا ، لكنها لا تستطيع ، لابد وأن يراها جواهرجي حتى يؤكد لها ذلك ، وحتى يقدر لها سعرها ، لكنها في النهاية طبعت قبلة على جبينه ، استشعر حلاوتها كأنما يستطعمها بفمه ، وظن أنه ملكها بهذه الهدية ، فحاول أن يحتويها بذراعيه ثانية ، لكنها تملصت منه بذات الرشاقة والدلال ، وكررت له العبارة السابقة كاملة ، كأنما هي مسجلة في ذاكرتها وفي تصرفاتها ، واقتنع بكلمات الحب التي سمعها منها ، واكتفي بتلك القبلة التي طبعتها علي وجنته ، وهمت بالانصراف ، لكنها لم تنس أن تشعره بأن هناك من ينتظرها ، أحد أبناء عمومتها إياهم ، واستطاعت أن تجعله ينظر من بين فتحات الشيش على ابن العم هذا الذي كان كما هو العجل ، وذكرت له أنه طفل لم يتعدى العاشرة فقط ، حتى يعن له التصور كيف يكون من هم فوق العاشرة ، وخانته شجاعته ،لكنه تصنع رباطة الجأش واتجه نحو الباب بتباطؤ يدل على الثقة بالنفس ، حتى يقنعها بعدم وجود نوايا سيئة ، وحتى يزيل شكوكها فيه ، وهو يمني نفسه بلقاء آخر يسعد فيه بقبلة أخرى ، ومهما كان تملصها من بين يديه ، فان تحسسه لجسدها النحيل الرشيق ، واللحظات العابرة التي يتلامسا فيها وهي تنساب من بين يديه ، كانت كأنها حلم طالما راوده ، كأنما هي رشفة ماء تطفئ غليل ظمآن أوشك على الهلاك . ووعدته خيرا ، وطلبت أرقام تليفوناته كلها لكي تحادثه ، فإنها تشتاق لسماع صوته عندما تجيش نفسها بحبه ، فأعطاها أرقام الوكر ، والفيلا أيضا ، وحاول مرة أخرى أن

يحتويها ، لكنها تملصت بسرعة وهرولت نحو الباب ، تسابق الريح على السلالم ، وهي تعتذر حتى لا تتأخر وتستطيع أن تحضر مرة أخرى .

وتكررت اللقاءات ، وتكررت الهدايا ، من ذهب خالص ، لكنها لا تحوي ماسا وإنما فقط أحجارا كريمة ، فقد كانت تذهب من فورها إلى أحد الجواهرجية ليقدر لها الثمن ، ويؤكد لها عيار الذهب ومقاس الحجر سواء كان ماسا أو غيره . ولما سألته عن المال الذي يشتري به هذه الهدايا الغالية ، بدأ يظهر لها الفواتير حتى تصدق أنه يشتريها من ماله الخاص ، فوالديه لا يبخلون عليه بالمال ، وفكرت أن هذا الإنفاق فرصة مناسبة يمكنها بها أن ترهقه ماليا فلا يجد ما ينفقه على غيرها ، فهي لا تريد الزواج منه حبا فيه ، ولكن لأنه الرجل الوحيد الذي كشف جسدها ، وهي من حرصها وحياءها ، لا ترغب في أن تكشف على أكثر من رجل ، لذلك لابد وأن يتزوجها ، ولن يخيب الله رجاءها ، وسوف يستجيب لدعوالها له التي تدعوه بها في كل صلاة ، وفي كل خطوة تخطوها ، وهي على يقين من استجابته سبحانه وتعالى لها ، فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، وأي اضطرار هذا إن لم يكن في مثل حالتها ، وكانت تزيد العيار حبتين كلما زادت قيمة هداياه ، ولكي تغنيه عن الارتباط بأية فتاة أخرى ، كانت تتعمد أن تعطيه مواعيدا للحضور وتعتذر في آخر لحظة ، حتى أصبحت مواعيدها يوميا تقريبا ، وتذهب ومعها أختها وخميس ابن محمدين البواب ، لكنه أبدا كان يراوغ في مسألة المأذون هذه ، وهي لا تمكنه من نفسها ، وهو يمني نفسه أنها ربما مع الهدايا والمعاملة الجميلة وتركها تخرج وقتما تريد والامتناع عن استعمال العنف بعد أن رفضت جميع أنواع الأطعمة والمشروبات ، قد تستسلم له ، وينعم بجرعة من السعادة المحرمة برضاها . وعبثا حاول أن يفهمها بأن لقاءهما لن يغير من الأمر شيئا ، الجنين ابنه ، وهي زوجته أمام الله ، لكنها تريد ورقة رسمية ، أو حتى غير رسمية ، المهم شئ تستطيع أن تستند إليه في نسب الوليد ، وفيما حدث لعذريتها . وهل كان الحاج محمد عبد المؤمن ليرضى بهذا ؟ ورقة رسمية أو غير رسمية ، إنه عار ، وأي عار ، لا يمحوه في شريعتهم إلا الدم .

ظن أنه يمكنه أن يبهرها بماله ، وهل كان المال يهمها قبل إبهاره لها به ، فقد كانت هيئتها تدل على أنها من عائلة متوسطة ، قالت له أنه يكفيها أقل القليل ، فإنهن ثلاثة أخوات ، كلما كبرت إحداهن ورثتها أختها في الملابس والكتب ، أما عن استذكار الدروس فقد كانت الهمة والنشاط والاجتهاد هي الصفة الدائمة ، وتدخل الدروس المنزلية المساعدة ضمن العديد من اللاءات ، فلا

قدرة لكل دخل الأسرة على دفع أي مبلغ مهما كان زهيدا لتلك الدروس ، وكـانت تنجـح ، وبتفوق يحسدها عليه صاحبات الأموال والدروس المنزلية ، وحول هذا الذنب نجاحها وتفوقـها إلى العكس تماما ، بل لقد قتل كل أحلامها ، فقد رسمت لمستقبلها صورة مشرقة ، لو أنه تركـها في حالها لتحققت .

لا .. لن يهرب من قصاصها ، إنها تعرف أين يتواجد في أي وقت من النهار أو الليـل ، فمـع وعوده لها بالزواج .. كانت لا تخشى الذهاب معه إلى أي مكان ، وبخاصة بعد أن سلبها أعز مـا تملك ، لكن لكل تهاون حدوده ، ولكل مماطلة لحظات توقف تراجع فيها الأمور ، وتتخذ فيـها القرارات وتحسم فيها الحلول .

الجنين يلح في الخروج إلى الحياة ، ويكبر يوما بعد يوم ، وما عادت تستطيع إخفاءه ، قابلته لآخر مرة ، فكشف لها عن ما كان يضمره ، بعد أن يئس من الوصول إليها ، ووجد أنه من المسـتحيل أن يحصل عليها برضاها ، إذ أنها ترفض تناول أي شئ حتى لا يدس لها فيه مخدرا أو مـا شـابه ، وأصبح ثمن ملامسته لها يكلفه الكثير ، أو التماس الذي يحدث بين جسديهما ، هذه الهدايا الذهبية التي بدأت غالية ثم تدرجت إلى الأرخص فالأرخص .

لم يجد أمامه إلا أن يلقى بالمشكلة كلها في أيدي المتر لبيب ، فقد أقلقته كلماتها عن الاخوة وأبناء العمومة الذين سيذبحونه كالخروف ، وهو وإن كان قد هون من شأنهم أمامها ، إلا أنها استطاعت أن تجعله يتصور جز السكين لرقبته وكأنه حقيقة واقعة ، تصورها مرارا وتكرارا وهو يرى دمـاءه تسيل حمراء قانية ، فينتابه رعب قاتل ، جعله يغلق الباب خلفها بعصبية واضحة ، وجلس علـى أقرب كرسي يفكر ماذا يفعل ؟ حاول أن يهون من كلماتها ، لكن أبدا ، منظـره ورقبتـه تجـز كالخروف ، أمر لا يمكن نسيانه أو التهاون عنه ، ليس أمامه سوى مستشاره الغرامـي ، يخرجـه مـن هذه الورطة كما أخرجه من سابقاتها ، طلبه تليفونيا ، فقد وجد أنه لا يقوى على الخـروج من الشقة ، أوصدها بكل ما بالباب من أقفال ومفاتيح وكوالين وترابيس ، وبالرغم من كل ذلـك إلا أنه مازال يرتعد خوفا .

ولبى لبيب نداءه على عجل ، فقد كان الشاب أكثر سخاء من أبيه ، الأتعاب بالأصفار الثلاثة أو بليلة ليلاء ، أي أتعاب هذه ، اللذة المحرمة تغلفها الأموال ، هو الكهل مع فتيات في عمر الزهور ، مجانا وبالإضافة إلى ذلك أموالا ، لابد وأن يلبي نداءه حتى ولو كان في آخر الدنيا . بادره بالعجب

العجاب ، كيف له أن يستقل بأنثى دون إشراكه فيها ، لقد نقض الاتفاق ، وهذا هو العقاب المناسب لأمثاله ، وهم أن يتركه ويرحل ، لكن الشاب تمسك بتلابيبه ، هو يريد حلا ، والمحامي يأبى إلا المشاركة ، ثم سأله سؤالا باغته به :

• " هل قمت بالتصوير كما هو المعتاد ..؟"

ولما كانت الإجابة بالإيجاب ، طلب منه أن يريه ما صوره لها من أفلام ، لكن الشاب رفض ، فازداد إصرار المحامي على المغادرة ، عدم احترام لاتفاق تم تنفيذه مع الجميع إلا هي ، ثم إصرار على منعه من رؤية ما صور لها من أفلام ، هذا شئ كثير ، وحاول الشاب أن يشرح له أهميتها عنده ، وأنه في الحقيقة قد شعر بالحب العميق لها وربما مازال هناك بقايا من هذا الحب ، لكن وكما هو معروف ، الحب حرمان ، وما أن ينتهي هذا الحرمان حتى ينتهي الحب معه ، لكنها علمته كيف يكون احترام بنات الناس ، وقهقه المحامي عاليا :

" بنات ناس .. وتأتي إلى هذه الشقة .. طب قول كلام غير ده .."

ولم ينه المحامي سخريته إلا عندما غالى الشاب في وصف المكيدة التي أوقعها فيها ، وكم هو متأسف لما حدث ، لكن المحامي عاجله بسخرية جعلت الشاب يندم أنه استعان به ، لولا أنه لا يجد سواه معينا له في مثل هذه الأمور ، فهو أستاذه الذي علمه كيف يغازل وكيف يوقع العذارى ، وهو الذي شجعه على ارتكاب الفاحشة ، وهو الذي يتولى حل جميع المشاكل التي تحدث له :

• " متأسف لما حدث !! أم لما صارت إليه الأمور .. على كل ..هذه ليست استشارة قانونية ، ولا حتى استشارة غرامية ، ولكنها استشارة تكتيكية ، وهذه أتعابها أغلى كثيرا من كل ما سبق ذكره من استشارات ، فهل أنت على استعداد ..؟ "

ولم يكن أمام الشاب سوى الموافقة ، ولكنه اشترط عليه أن لا يطلب منه مشاهدة أفلامها ، وتعجب المحامي :

• " هل هذا حب .. أم خوف ، أنت تخافها أكثر مما تحبها ، أو لعلك تحبها أكثر مما تظهر تملصك منها ، إنها السندريلا التي ستجعلك تزحف على أسنانك حتى تعفو عنك .. "

ثم مط شفتيه وقلب الأمر في رأسه مرات ومرات .. ثم قال له وكأنما تملكته الحكمة :

• " أنا أهدي إعجابي لهذه الفتاة ، لو أنني قابلت مثلها وأنا في مثل سنك ، لما ترددت لحظة في الزواج منها ، فقد استطاعت أن تلقنك الدروس التي فشل الجميع في تلقينها لك حتى أهلك ، لكن للعيش والملح وال.. الذي بيننا ، فأنا سأحل لك هذا اللغز ..وبدون مشاهدة للأفلام ، وكمان بدون أتعاب .."

وبدأ الشيطان يرسم له خطته الجهنمية :

• " أولا .. لابد من حمايتك منها وممن هم على شاكلتها ، إلا إذا كنت نويت أن تتوب والعياذ بالله ، وهذا لا يتم إلا بتعيين حارس قوي ومتين .. يتولى حراستك وآخر يتولى حراستي ، فالحقيقة أنني الآن خائف على نفسي تماما كما هو أنت وربما أكثر ، ثم أن الحراسة لا تكون عن هذه الصومعة وفقط ، ولكن لا بد وأن تشمل الفيلا أيضا ، أو المرافقة ، يعني واحد يرافقك كظلك ، زى البودي جارد .."

لكن علاء اكتفى بأن يكون هناك حارسا للشقة وآخر للفيلا ، وبناء على ضغط المحامي ، وافق على حارس ثالث لمكتبه ، خاصة وأن المكتب هو ذاته سكنه ، وإذا رغب المحامي في المزيد ، يبقى على حسابه ، وقنع المحامي بذلك ، فمهما كانت الأتعاب التي كان سيدفعها له ، لن تصل إلى أجرة الحارس الذي سيقوم بخدمته أيضا ، فهو لا يرحم ، وراتبه سيكون على مدار احتياج علاء له ، وحاجته له لن تنتهي ، فهو دائما ما يقع في مشاكل ، ولا ينقذه منها سوى المحامي ، وحاول المحامي أن يصرف تفكيره عما هو فيه من هموم ، لكنه لم يكن يفكر إلا في جز رقبته كالخروف ، فأسرع يطلب من البواب شابا بالمواصفات التي حددها له المتر ، لكن المتر تدخل ، فزادهم إلى ثلاثة ، وحثه على الإسراع في تنفيذ هذا الطلب . ودار الحديث بين المحامي وعلاء حول كيفية الإعداد لما قد يحدث من مشاكل ، عددها له المحامي في نقاط ، كلما انتهى من واحدة بكل ما تحمله من جسامة وخطورة ، ربما تزيد كثيرا عن جز الرقبة ، جاءه بالثانية أقوى وأشد من سابقتها ، حتى لكأنه ضيق عليه الخناق ، وأصبح علاء في قفص حديدي كأنه السجن ، لكن المحامي كان يريد أن يثبت له كم هو في حاجة إليه ، ولذلك فإن عليه ألا ينقض اتفاقهما مرة أخرى ، ثم عليه أن يدفع ويدفع حتى يشبع المحامي ، ومن سوء حظه أنه لا يشبع أبدا ، حتى لكأن علاء سأله مرة :

• " ماذا تفعل بكل ما تحصله من أموال ، مني ومن أبي ، ومن المؤكد من أمي أيضا ؟ ، ثم الأراضي ، خمسين فدان ري بالراحة ، والعمارة التي تسكن في إحدى شققها ، منها سكن

وهي أيضا المكتب ، ولسوء حظك أنها أسوأ شقة في العمارة ، ربما لأنك لم تجد من يسكنها فسكنتها أنت ، وطلباتك تكاد تنحصر في الطعام والشراب ، وغالبيته على حسابي ، وكذلك المتعة والسهر ..أقترح أن تترك وصية لي بكل ما تملك ، فأنت لم تتزوج ، وليس لك أولاد .. أو أقول لك ، لماذا لا تتبنى ابني من مني ، وبذلك تحل المشكلة ، ألسنا أصدقاء ، وعلى الخير والشر ، وكل شئ مشاركة ، لماذا لا تشاركني فيما أنا فيه الآن ، لم تفز بالكعكة ، فلتفز بتوابعها .."

وبهت المحامي من مباغتته له بهذه الصورة ، وأخذ يبسمل ويحوقل ، وكأنما ما قاله سوف يتحقق ، أو أنه حسد ، والشاب مستغرق في ضحك هستيري ، لعله بذلك يبعد عن نفسه تلك الصور الكئيبة التي ما زالت تتردد أمامه كأنها حقيقة ، لكن المحامي أراد أن يكيد به ، فقال له :

• " هل تعلم أن جزاء جريمتك هذه هي الإعدام شنقا ، حيث يتدلى جسدك المياس يا عمري ، وهو يهتز يمنة ويسرة كأنما هو بلبلة جرس نحاسي صدئ .."

ثم اتسم بجدية حقيقية جعلت الشاب يرجف منه ، ربما أكثر مما كان يرجف من تهديدات الفتاة ، وبدأ يوجه له أسئلة ليبين له كم هو في وضع قانوني حرج للغاية ، وأنه الوحيد الذي يستطيع أن ينقذه منه ، ثم كرر عليه الأسئلة السخيفة التي سبق أن أجابه الشاب عليها :

• " هل قمت بالتصوير ..؟"

وأجابه الشاب بالإيجاب ، فسأله سؤالا آخر :

• " هل هي التي كانت تطاردك ؟ "

وأجاب الشاب بالإيجاب أيضا ، وقد ازداد عجبه ، كل هذه أمور يعرفها المتر جيدا فما الداعي لتكرارها ، ولاحظ المحامي على الشاب أنه تعلم الدرس جيدا ، ليس معنى أنه يتبسط معه ليذهب عنه ما هو فيه من خوف وقلق ، أن يرفع الشاب الكلفة بينهما ، ويحادثه فيما لا دخل له فيه ، وبعد أن أرضى غروره ، بدأ يداهنه ، فهو أولا وقبل كل شئ زبون جيد ، وفلوسه جاهزة ، فعدل من جلسته ، وخفف من نبرة صوته ، وقال له ملاطفا :

• " بهذه الصورة لا يوجد ما يثبت جريمة الاغتصاب ، سنها أكبر من واحد وعشرين سنة ، أي أنها بالغة رشيدة عاقلة ، مسئولة عما تفعل ، وليست قاصرا ، وذهبت إليك بمحض إرادتها ،

فلا يوجد ما يثبت أنك أرغمتها أو هددها ، وكل شئ يدل دلالة قاطعة على الرضي والقبول ، فلا يوجد ما تخافه ، أما عن أقارها الذين سيذبحونك كالخراف ، فإن هناك الكثيرين اللذيـــن يمكن الإعتماد عليهم ، أهل الكفر مثلا ، وإن لم يكن ، فهناك من هم على استعداد للقيام بأي شئ مقابل المال ، حتى لو رغبت في التخلص منها .."

وارتعدت فرائس الشاب عند سماعه لهذا الأمر ، واكتفى بأن يقوم بمواجهتها بحقيقة أنها كـــانت إحدى نزواته ، ولا يوجد ما يثبت اغتصابه لها وأنها ليست قاصرا ، ولتضرب رأسها في الحـــائط ، ومن باب الاحتياط ، طلب منه المتر لبيب أن يسرع في استخدام ما اتفق عليه من حــــراس ، ولا يبخل عليهم بشيء .

٢- نزوة

تعجب الوالد من تصرفات ابنته ، ليست هذه منى التي يعرفها ، وكعادته سأل والدها عنها ، فهو لا يستطيع أن يسأل ابنتيه مباشرة حتى لا يتسبب في إحراجهما ، وجاءه الرد ، إنها عادية ، فقط رهبة الامتحانات والاستعداد لها ، لكن أبدا .. الرجل لا يهدأ ، لابد وأن في الأمر شيئا ، ومادام قد وضعها في رأسه ، فلن يهدأ حتى يعرف الحقيقة كاملة ، وله وسائله الخاصة في ذلك ، أما عن تصرفه عندما يتحقق من شئ ، فحدث ولا حرج ، تأتيه أفكار من عند الله ، يحقق بها كل ما يريد ، دون أن يحرج أو يجرح أو حتى يسأل .

لم يتصور البواب عندما جاءه أحد بلدياته الذي تنطبق عليه المواصفات التي طلبها علاء ، كيف تكون هذه المصادفة العجيبة ، علاء يطلب خادما حارسا قوي البنية ، ويأتي هذا الشاب اليوم بالذات ، كأنما رزقه في رجليه كما يقولون ، وتم التعارف بينهما ، فالصلات بين أهل الصعيد أقوى كثيرا منها بين أهل المدن الكبيرة ، القاهرة والإسكندرية على وجه الخصوص ، وبعيدا عن التارات ، فكل أهل الصعيد أهليات ، يعني ولد خاله وولد عمه ، علاقات ليتها تشملنا جميعا يا أهل الوطن الواحد ، فلا يكون بيننا من يرفع أنفه ترفعا وإباء على خلق الله ، ولا من يفاخر بالانتساب ولو زورا إلى الأتراك أو حتى المماليك ، ومن يسعده أن أحد الوالدين أو الجدود من أصل سوري أو لبناني أو أي بلد عربي أو أوربي أو أمريكي ، وكأنما من ينتسب لمصر آباء وأجدادا هم دون مستوى باقي الأمم ، من زرع فينا هذا ؟ لا أدري ، على كل لقد صعد فورا إلى البيه يعلمه بأن طلبه موجود ، فسارع علاء يطلب معاينته ، ولما وجده ذا بنية قوية ، سأله بعض الأسئلة عن استعداده لنظافة الشقة ، وتجهيز الطعام ، وترتيب الأثاث ، وخدمته هو وضيوفه في سهراتهم مع الشراب وخلافه ، وهمس في أذنه بكتمانه لما يدور في الشقة ولا يخبر به أحدا مهما كان ، والمحافظة على ما فيها من أثاث وممتلكات وأشياء أخرى ، وأخيرا سأله ما هو فاعل لو تعرضت الشقة أو أي ممن فيها لمكروه ، كأن يعتدي أحد عليهم أو أن يهاجمهم أحد ؟.. إلى آخر هذه الأسئلة التي عن له أن يسأله إياها ، وترك للبواب توضيح الصورة له بطريقة أكثر تفصيلا ، ولما وافق ، حدد له المرتب الذي سال له لعاب الخادم ، وتم تعيينه ، وطلب منه اثنين آخرين من بلدياته يكونان بنفس الصفات ، وعندهما نفس الاستعداد ، أحدهما لحمايته في الفيلا ، والآخر لحماية المحامي ، وزيادة على ذلك ، فقد أطلعه على أشرطة الفيديو ، فقط الوجوه التي لا يريد أن يراها مرة أخرى ، أما

باقي محتويات الأشرطة ، فقد قام شكر الله بالتمتع بمشاهدتها مع المحامي والشاب أكثر من مرة ، في الليالي التي لا يكون بالشقة صيد ، حتى حفظ الوجوه وكذلك ما وراء الوجوه .

ذهبت المسكينة إليه ، وقد عقدت العزم أنها المرة الأخيرة ، فمادامت المراوغة لم تصلح ، والتهديد لم يجد نفعا ، فليس أمامها إلا التخلص من نفسها ، ولتكن هذه المواجهة نهاية المطاف ، ونهاية للتسويف ، ووضع حد لكل الهواجس التي تراودها حلا لهذه المشكلة . لم يسر شكر الله وجهها ضمن الوجوه التي منعت من الصعود إلى الشقة ، ولم يتبادر إلى عقله أنها قد تكون من رواد الشقة ، فالحجاب يعطي الجميع انطباعا بالاحترام والثقة في من ترتديه ، لذلك لم يعارض في صعودها ، وحسبها المحامي على علاء أنها من أخطائه ، فحرصه على أن لا يعرف أحد بأمرها ، ولا بشكلها ، جعله يخفي أفلامها ، فلم يطلع المحامي عليها ، وكذلك لم يطلع شكر الله عليها ، وفوجئ بها أمام الباب ، ولم يجد بدا من السماح لها بالدخول ، بعد أن تحقق من أن شكر الله على السلالم في انتظار الأوامر .

كان قاسيا معها ، لم يراع الجرح العميق الذي سببه لها ، ولم يهتم بماذا تفعل بالجنين الذي في أحشائها ، بدد لها كل الأحلام الوردية التي كانت تمني نفسها بها ، فاجأها بأنها نزوة من نزواته اليومية ، ثم ألقى عليها سؤالا حاول به أن يريح ضميره ، ويلقيها في دائرة شك مريبة ، لن تجد منها لنفسها مخرجا :

- " كيف لطالبة جامعية مثلك في إحدى كليات القمة ، أن تنخدع بكلمات شباب هذه الأيام ، لو لم يكن لديها الاستعداد أصلا لذلك ، ألا ترين أفلاما ومسلسلات ... ألا تقرئين قصصا ، ألا تطالعين جرائم الشباب واستخفافهم بعقول الفتيات ، لو كنت حقا شريفة كما تدعين ، لماذا حضرت معي إلى هذه الشقة ؟ أو إلى أي مكان آخر ؟ مهما بالغت في الاستعطاف ، ومهما كان الذي يستحثك على الذهاب معي ، إذا لم تكوني أنت راغبة أصلا في ذلك لما حضرت معي ، أما ما تدعينه من أنني خدرتك ، وترديدك لتلك العبارات التي تتشدق بها معظم الفتيات اللاتي على شاكلتك ، فما هي إلا أساليب رخيصة ، الهدف منها الخروج بصيد ثمين مثلي ، ابن ناس وغني ومثقف ، ماذا تريد أي فتاة أكثر من هذا ..؟ "

وقص عليها قصة أول تجربة حب له ، لقد كانت تجربة قاسية ، فقد استدرجته فتاة لعوب ، وجدت فيه صيدا ثمينا ، فرسمت وخططت ، وأسقطته في حبائلها ، ولولا مساعدات أهله وذويه

من أصحاب النفوذ ، وفكر وخبرة محامي العائلة ، لكان الآن مكبلا إليها بكل ما يصله من أخبار عن أحد ضحاياها اللذين لم يستطيعوا الإفلات منها ، ومنذ ذلك الحين تولد لديه التصميم الأكيد أن لا يكون لعبة في يد فتاة بعدها ، فقد اكتشف أنها تريده أن يكون الغطاء الذي تحمله كل أخطائها السابقة ، لقد ذرفت له من الدموع أكثر كثيرا مما يراه في عيونها الجميلة ، وصرح لها بأنه لا ينكر أنه اكتشف أنها التجربة الأولى لها.

لم يهتم بنحيبها ، ولم تهز مشاعره توسلاتها له بأن يكف عن هذا التجريح ، وما دام يقر بأنه اكتشف أنها التجربة الأولى لها ، فهو المسئول عنها ، ولا أحد غيره ، وأن الجنين الذي في أحشائها هو ابنه ، لا يشاركه فيه أحد ، وهي لا تريد سوى ورقة المأذون التي تثبت بها نسب الولد ، ولا يهم إن كانت الورقة ورقتان ، واحدة لزواجه منها والثانية لطلاقه منها ، وأنها على استعداد أن تدفع أتعاب المأذون والرسوم وخلافه ، وتصيدها :

- " ألا ترين أنك حافظة الدرس جيدا ، من الذي يرسم ويخطط لك ؟.."

وترك لها الشقة وخرج ، وهو يردد :

- " لن أكون المغفل الذي تتكسبين على حسابه ، قسيمة زواج وقسيمة طلاق ، أهبل أنا كي أقبل بذلك ، ثم أجد نفسي أمام القضاء ، نفقة ومصاريف ولادة وحضانة وخلافه .."

قالت له أنها لن تطالبه بأي من هذا ، ولكنه أبى ، فمجرد كتابة المولود باسمه ، معناه انتمائه إليه ، ولا بد وأنها ستعود إلى المحاولات الشبيهة بمحاولاتها السابقة ، وكيف يستطيع قلبه أن يلغي أبوته لابنه ؟ وهل يخرج الطفل إلى الحياة بلا أب ؟ وهكذا ، لا لن يكون هذه اللعبة التي تستمرئ الفتيات التسلي بها ، ليكن هو الذي يتسلى بهن .

ليته أشرك فيها معه محامي العائلة بأساليبه الشيطانية التي نجحت مع الكثيرات ، كان دائما ما يشاركه انتصاراته ، فلا بد له من أن يستفيد ، فالمحامي هو الذي يرسم ويخطط ، والشاب ينفذ ، والصيد يقع ، ولابد من القسمة ، ثم أن الشاب هو الذي يتحمل كافة التكاليف ، المحامي يستخدم عقله ، والشاب يستخدم إمكانياته ، المال والمكان والشباب ، أما المحامي فإنه يملك المال ولكنه بخيل ولا يملك الشباب ، لقد أقنعه بأن الفتاة عندما تفيق وتجد نفسها في أحضان رجل آخر لا تعرفه ، خير من أن لا ترى أحدا سواه ، ففي الثانية لن يفلت من اقاماتها ، أما الأولى فلن تجد

مـــن تتهمه سوى نفسها ، وما عليها إلا أن تولي الأدبار بعارها ، أو أن تستمرئ الأمر ، وتمتـــهن الفاحشة ، خاصة وأن المحامي لم يكن ليبخل عليها ، حتى يثبت لها أنها عاهرة ، وأنه تمتع بها ودفـــع الثمن ، فيدس لها مبلغا كبيرا من المال سبق لابن الأغنياء أن أعطاه له ليدفعه لها ، ويقوم هو بالدفع ولكن بعد أن يخصم عمولته .

في طريقها المعتاد إلى الجامعة ، تذكرت ما عقدت عليه العزم ، فأسرعت الخطـــى ، ثم هرولـــت وهي تبكي ، إنه دمر كل ما لديها من كرامة وكبرياء ، لم تلحظ الدهشة التي رسمت على الوجوه ، فقد كان لديها ما يكفيها ، واتجهت إلى لاشيء ، تراءت لها كل الصور التي كانت مختزنه في عقلها الباطن ، عن تصرفات الفتيات في مثل هذه المواقف ، فوجدت نفسها تتجه إلى الأب الحقيقي لكل المصريين ، شريان الحياة ، وملجأ كل من استعصت علية الحياة ، وقفت وقد أفقدها ما عقـــــدت العزم عليه كل تفكير سليم ، ونظرت إلى صفحته الشفافة ، وجدتها تنساب رقراقة ينبعث منـــــها نسيم عليل يذهب كل المتاعب ويأتي بالتفاؤل ، عكر صفوها ما ألقاه أحد المستهترين من قـــذارة اهتزت لها صفحته كأنما ترتجف من الغضب ، وبدا لها أنها أحد تلك القاذورات التي يلقى بها هؤلاء المستهترون ، وبدلا من أن تواجهه ، تتركه يفلت من العقاب ، أو تحمل المسئولية ، تماما مثلمـــــا أوصلها إلى هذه الكارثة ، وهل كانت هي من السذاجة حتى لا تكتشف ذلك الخداع طوال هـــذه المدة ، وهو يماطل ويسوف ويأتي بأعذار لا تنطلي إلا على كل من فقد عقله ، أو لعل الأمور قـــد استهوتها ، فإن كان هو يسعد بتلك اللمسات القليلة التي تحدث كلما تملصت من بـــــين يديـــه ، فإنهـــا تشعر أيضا ببعض الرضا ، إنها فتاة وفي سن النضوج ومن حقها أن تنعم ببعض اللمســـــات الحنون ، وهل سعادة لحظات تساوي العذاب الذي تعانيه الآن ، وربما أبد الدهر ، وربما تنهيـــــه الآن بالانتحار ليبقى لها في الآخرة يوم الحساب ، مع كل العلم والثقافة والتفوق ، والتربية الدينية المتشددة ، والمبادئ والمثل والقيم التي تربت عليها !! هل ما عانته من تقشف وصل حد الحرمـــان كان له أثر في انبهارها بما عنده من إمكانيات تجاوز تلك المرحلة وربما ما هو أكبر منها بكثـــــير ، الصعود السريع إلى ما ظنته بر الأمان ؟ وعلى رأيه الذي كان دائما يجاهر به :

- " ما أهمية الدراسة والشهادات ؟ أليست الغاية هي المال والثراء ، ونحن لدينا المال والـــثراء ، فلماذا السهر في الدراسة ، وإرهاق تلك العيون الجميلة ، وذوبان ذلك الجمال الأخاذ ؟ "

وهل جمالها أخاذ ؟ كيف لها أن تنخدع بما ليس فيها ، ورأت نفسها أنها عادية ، وربما تكون أقل من العادية ، فقد امتشقت قامتها فطاولت الرجال ، والشعر .. لولا إخفاؤه تحت الحجاب لتبين للجميع كم هو خال من أية ميزة تجعل له أهمية في نظر أي من الرجال ، فهي لا تعرف الطريق إلى الكوافير ، والكوافيرات معظمهم رجال ، فكيف تجلس أمام رجل ، وتترك له شعرها يداعبه بأصابعه ، إن كشف شعرها أمام رجل غير محرم عليها هو بحد ذاته عورة ، فكيف بها تترك رجلا يمشطه ويدلكه ، والأمر لا يخلو من تلامس يده بجسدها ، وربما احتكاكه بها أثناء تحركه عن عمد أو بدون قصد ، أما العيون ... فقد أذبلتها المذاكرة والدروس ، وإلا فما كان لها أن تلتحق بإحدى كليات ما يطلقون عليها القمة ، ولو كانت في أيام سي السيد ، حيث كانت السيدات يوزن بوزنهن ، لما كان لها وزن ، فقد طال التقشف المفروض على هذا الجسد فما وجد ما يختزنه أو حتى يكفي رمقه ، ولا تدرى لماذا بدأت في البحث عن السبب الذي جعله يقف في طريقها ، ويحاول التودد إليها وإيقاعها في حبائله ؟ هل هي المسئولة ؟ لقد اغتصبها بعد أن خدرها ، ثم حاول مماطلتها بكلماته والأيمان التي كان يقسمها ، وشرف بابا وشرف ماما ، وما كان يقدمه لها من هدايا بدأت غالية جدا بهذا السوار الذي قدره لها أحد الجواهرجية بمبلغ كبير جدا ، حقيقة أن ما تلاه من هدايا لم يكن في نفس المستوى أو الذوق أو حتى القيمة المادية ، لكنها ما كانت لتستطيع أن تظهر هذه الهدايا أمام أبيها أو أمها ، كانت تخفيها عنهما . اكتفت بأختها التي تصغرها فقط ، فما كانت لتستطيع أن تتحمل هذه المصيبة وحدها ، كان لابد لها أن تشرك معها أحد ، ولا يمكنها الوثوق في أي من زميلات الدراسة ، وليس لها صديقات ، ولم تجد سوى أختها ، وبالرغم من أنها كانت تصغرها بعامين ، إلا أنها كانت تتمتع برجاحة العقل وقوة الشخصية ومواجهة الواقع بشجاعة وإقدام ، كانت لا تخشى الاعتراف بأخطائها ، فالاعتراف بالحق خير من التمادي في الباطل ، فماذا فعلت هي بخوفها وترددها ، سوى أن الأيام تمر يوما بعد آخر ، والثمرة تكبر ، والبطن يعلو رويدا رويدا ليعلن على الملأ ما كانت تحاول أن تخفيه ، وساعتها لن ينفع ندم أو اعتراف أو أي شيء .

أيقظتها أختها من أوهامها ، وحللت لها الموقف : إن الشاب الذي تتصور أنه يحبها يتهرب منها ، كيف ستعالج هذه الكارثة ؟ إنها ليست كارثة واحدة ... إنهن ثلاث كوارث ، ستعير أختاها بفعلتها إلى ما شاء الله ، ومن هذا الذي سيفكر في الارتباط بعائلة تتهاون بناتها في أعراضهن ، إن الكارثة أكبر بكثير من أن تنتهي بنهاية حياتها ، هذا الأفاق لابد أن ينال جزاءه ، نعم ... تقتله وتخلص

بنات جيلها من شروره ، ويكون عبرة لـغيره من هؤلاء المستهترين ، أما هي ، فيا ليتـه يكـون الإعدام هو حكم القضاء . وعقدت العزم على قتله ، وبدأ عقلها الضعيـف الواهـن ينبـش في ذاكرتها عن أسرع وأفضل وأبعد وسيلة لقتله دون أن تدان ، العين بالعين ، والسـن بالسـن ، والجروح قصاص ، لقد اغتصب عذريتها ، فلتغتصب رجولته ، هو استخدم مخدرا ، فلتستخدم هي الطب الذي تدرسه ، وتضعف رجولته حتى لا يجد ما يغتصب به فتاة أخرى ، وساعتها سـيأتيها راكعا يتوسل إليها أن تتزوجه ، وسوف ترفض إذلالا وانتقاما ، وعندما يصبح ملكـها ، تعالجـه وتعيد له رجولته ، أو لا تعود ، فإنها أصبحت تمقت الرجال ، كل الرجال . لا ..هناك رجل واحد لا يمكنها إلا أن تحبه ، إنه أبوها ، ليت كل الرجال مثله ، حنون عطوف شهم محب لعائلته ، هـل تراه لاحظ ما هي فيه ؟ إن تصرفاتها في الأيام الأخيرة ليست كما كانت ، لكنها دائما كانت تتعلل بالمذاكرة والامتحانات ، تلك الامتحانات التي تمثل كابوسا بالنسبة للطلبة ، جميع الطلبة ، ظنـت أنها عندما تنتهي من مرحلة الثانوية تستريح ، فإذا بالجامعة أشد وأقسى من الثانوية مئات المرات ، إذ ربما كان التشدد الكبير في الثانوية ، حتى تكون مستعدة لما بعدها من مراحل ، وحـتى بعـد التخرج لن يكون الأمر سهلا ، ذلك أنه لابد لها من الالتحاق بالدراسات العليا حتى تثبت مكانتها العلمية والطبية ، وإذا لم يكن ، فلابد من درجة الزمالة في أي جمعية من الجمعيات الطبية العالميـة ، وإلا ستظل طبيبة في وحدة طبية في كفر من الكفور أو قرية من القرى ، وتنسى الطب مع قلـة الإمكانيات المالية للمرضى وللوحدة الطبية بل وللطبيبة نفسها .

لم تشعر باليد الحانية التي كانت تربت على كتفها ، والتي وقفت إلى جانبها تشفق عليها فترة من الزمن ، ورفعت عينيها عن صفحة الماء ، ونظرت إليها بذعر ، وقد انتفض جسمها خوفا وهلعا ، فقد كانت لمستها لها مفاجئة ، نبهتها من سرحان طويل استغرقت فيه مع أفكارها ، لكن السـيدة بادرتها قبل أن يذهب بها فكرها إلى مذاهب بعيدة :

- " مالك يا أختي .... "

ونظرت إليها الفتاة كغريقة تتعلق بقشة لتنقذها مما هي فيه ، ولم تتمالك نفسـها ، فأجهشـت بالبكاء المر الذي وصل درجة التشنجات ، فاحتضنتها السيدة وأخذت تهون عليـها المصـاب بكلمات تخللتها الكثير من آيات الذكر الحكيم ، ولم تنس أن تضيف بعضا من الحكم والأمثال التي تؤكد على أن المصيبة مهما كانت كبيرة فعند الله منها المخرج . لكن هيهات لقلب مثقل بـالهموم

أن يستجيب لمنطق العقل ، وهيهات لنفس جريحة أن تستوعب الأحداث ، وهيهات لفتاة مسكينة تتعرض في أول تجربة حب لها لما تعرضت له ، أن يكون للتفكير السليم عندها مكان ، أجلستها السيدة إلى جوارها ، ولم يكن يدور بخلدها أن المصيبة بهذا الجلل ، إذ كيف لفتاة تعرف أمور دينها أن تنجرف إلى ما وصلت إليه ، إذا ما يقال في أمر الحجاب ، وأنه يخفى خلفه الكثير والكثير ... ليس هراء ، عرضت عليها أن تصطحبها إلى أحد المساجد علها تجد في الصلاة ما يخفف من مصابها ويلهمها الصواب ، لكن الفتاة وقد ساورها الشك في كل شئ ، تمنعت ، فأرادت السيدة أن تؤكد لها حسن نواياها ، وأن الاخوة الإسلامية بينهما تفرض عليها أن تبادر إلى مساعدتها مهما بلغ الأمر ، ثم أن إخفاء الأمر عن والديها ، لن يحل المشكلة بل سيزيدها تعقيدا ، ويا ليتها أعلمتهما بالأمر منذ البداية ، لكان لهما تصرفا آخر ، وانتفضت الفتاة بانزعاج :

• " أقول لبابا وماما ! أقول لهما أنني خاطئة وأستحق القتل ، أنت لا تعلمين من هو أبي ، إنه رجل يكد ويجهد نفسه ليل نهار ليدبر لنا معيشتنا ، وتكاليف تعليمنا ، أنا في كلية الطب ، وأختي التي تصغرني بعامين في كلية الصيدلة ، والثالثة ثانية ثانوي ، إن أمورنا المعيشية تكاد تكون دون الكفاف ، إننا لا نلجأ للدروس الخصوصية لقلة ذات اليد ، ولولا تفوقنا الملحوظ ، لما كان لنا إلى النجاح سبيل ، أنت لا تعرفين طعامنا ، إننا نباتيين لأن تكاليف اللحوم بجميع أشكالها أغلى كثيرا من إمكانياتنا ، لا يمكننا أن نملأ البطون ، فهذا معناه قيام أحدنا دون الحصول على ما يسد رمقه ، إن ظروفنا صعبة جدا ، ثم تأتي ابنتهما ، الفتاة الناضجة الرشيدة العاقلة التي لو أقسم لهما خلق الله جميعا أنني فعلت شيئا وأنكره أنا ، لكنت أنا الصادقة ، صلاتي وصيامي وقراءتي للقرآن وتعبدي ودراستي التي لا أكل منها ، كلها تؤكدان لهما أنني لا أخطئ ، إذ أين هو الوقت للخطأ ؟ الجامعة والدراسة والعبادة وفقط ، إنك تطلبين مني المستحيل .."

وتساءلت السيدة :

• " ماذا يعمل والدك ؟"

وأجابت الفتاة بصوت يكاد يكون همسا :

• " الحقيقة أنني لا أعرف بالضبط ، إلا أنني أعتقد أنه مهندس أو مقاول ، لكنه لا يعمل الآن ، فقد فقد أمواله في شركات توظيف الأموال ، وما عاد لديه مال ليقاول به ، وكبرياؤه يمنعه من

أن يقبل بوظيفة ، و يعطي خبراته لغيره فيجني الكثير ، ولا ينال أبي إلا القليل وإن كان يعجبه ذلك ، الحقيقة أنه لا أحد منا يدري أين يذهب صباحا ، وكيف يمضي الوقت حتى يعود ، ولا حتى نعرف من أين يأتي بالنقود .. فكما تعلمين ، نحن ليس لنا إلا أن تدبر أمورنا بأقل القليل دون سؤال ."

وتمتمت السيدة الطيبة ببعض العبارات غير المسموعة ، وبالغت في توددها لها وعطفها عليها ، حتى لكأن الفتاة لاحظت دموعها تترقرق في مقلتيها ، وتعجبت أن يكون في هذا الزمان ، وفي بلدنا هذه مصر الحبيبة إلى قلوبنا جميعا ، من يرق قلبه للغلابة ، أو يبكي لبكاء ملتاع ، فقد تحجرت القلوب ، الكل لنفسه وفقط ، والكل يريد ما لدي الآخرين حتى ولو لم يكن بوجه حق ، فرضت قوانين أفادت البعض على حساب البعض ، واستمرأ المستفيد ما يعود عليه من فوائد ، والمغرم لا يمكنه إلا أن يستكين ، إنها القوانين ، التوازن قد اختل في كل شئ ، وحسنا أنها الآن تتساقط واحدا تلو الآخر بدعوى عدم الدستورية ، وأين كان رجال الحقوق في بلدنا طوال أربعين سنة وهم يرون تلك القوانين الغير دستورية تصدر وتنفذ وتظلم من تظلم ، وتعطي حقوقا لمن لا يستحقونها ؟ أين كان هؤلاء ؟ إنهم ضمير الأمة ، ما كان يلتحق أحدهم بكلية الحقوق إلا ليكون وزيرا أو قاضيا ، يعني حاكما أو فاصلا في المظالم ، كيف يقبلون على أنفسهم ، وهم بحق عباقرة القانون في العالم العربي ، أن تهان الحقوق في بلدنا ، إن الوضع المأساوي الذي نعيشه الآن ، هو نتاج هذه القوانين الغير عادلة ، ولذلك فإنها غير دستورية ، شركات توظيف الأموال ، نشأت بقوانين ، ومارست عملها تحت سمع وأبصار الحكومات الرشيدة واحدة تلو الأخرى ، بل إن وسائل الإعلام لم تبخل على تلك الشركات بالإعلانات أو بالمقابلات أو بنشر أنشطتها سواء كانت ناجحة أو خاسرة ، أي أن المؤامرة اشتركت فيها السلطة التنفيذية والسلطة الإعلامية والسلطة القضائية ، الأولى بعدم فرض الرقابة الصارمة على نشاط تلك الشركات ، والثانية بالتهليل بأنشطتها التي قيل فيما بعد أنها لا تستند إلى أصول رأسمالية تؤكد وجودها وتدعم مركزها ، والثالثة لم تفحص وتمحص في شرعيتها ، وأخيرا أنهت وجودها بقانون آخر لم يستفد منه إلا أصحاب هذه الشركات ، فمنهم من زج به في سجن خمس نجوم ، بخط ساخن مباشر بينه وبين نشاطاته في الخارج ، والبعض حملوا ما خف حمله وغلا ثمنه ، وتركوا البلاد ، كيف ؟ لا أحد يدري ، ولربما كانوا يعدون العدة لهذا الهروب الكبير منذ مدة طويلة من الزمن ، والمتضرر الوحيد هم المودعون ، الذين يدعي رجال الحقوق ، أن القانون صدر لصالحهم .

وراجعت السيدة مواقف الدول من هذه الكوارث ، ألبانيا خرجـــت عــن بكــرة أبيــها في احتجاجات عارمة لم تهدأ إلا بعد أن تركت الحكومة مكانها لغيرها ، وإحدى الـــدول الخليجيــة رصدت مبلغا كبيرا من المال يصل لأكثر من سبعة مليارات دولار لتعويض صغار المستثمرين الذين أضيروا نتيجة التلاعب بالبورصة ، أما نحن في بلدنا ... لنا الله .

ولامت نفسها ، ليتها لم تذهب إلى أمريكا ، وبقيت إلى جانب عائلتها تدعمهم بالجنيهات القليلة التي تحصل عليها راتبا لعملها في أي مكان ، حتى ولو كانت الوحدة الصحية في أي كفر ، علــها تتمكن من رفع بعض المعاناة عنهم ، ليتها لم تنعم بمدنية زائفة زائلة تصور الحياة جنة ونعيـــم ، لا يحتاج الإنسان بعدها إلى جنة خلد أو غفران ، بينما أهلها هنا في مصر يعانون ليدبروا لها ما كانت تنعم به ، إنها لم تطلب شيئا لم يحققه لها أهلها في مصر ، يرسلون لها المال الذي هم في أشد الحاجــة إليه ، ليتها وليتها وليتها ، ولكن هل ينفع هذا الآن ، وعقدت العزم على أن تعوضهم ما فقـــدوه من أجلها ، وهل تستطيع..؟

وسمعت الفتاة العبارة الأخيرة ، فتعجبت ، وكأنما أرادت السيدة أن تفسر لها مأساتها ، " وأنه من شاف بلوة غيره هانت عليه بلوته " ، وقصت عليها كيف أن لها خـــال ، أنفــق عليــها الغــالي والرخيص لكي تحصل على الدكتوراه من أمريكا ، وعندما عادت وجدته معدما ، وعائلته تعــاني العوز ، وصدرت من قلب السيدة صرخة مكتومة لم تشعر بها إلا من يصدر صدرها الكثير والكثير من هذه الصرخات ، وإذا بالسيدة تستغرق في بكاء حار ، ما كان ليعدله بكاء الفتاة ، وبعـــد أن كانت الفتاة هي التي في حاجة لمن يواسيها ويربت عليها ، إذا بها تحتضن السيدة وتحاول أن تخفـف عنها المصاب ، ولم تهدأ السيدة إلا بعد فترة من الزمن ، وتردد للفتاة أنها كلما تذكـــرت كيــف كانت تعيش في بحبوحة من العيش في أمريكا على حساب شقاء خالهـــا وعائلتــه ، كلمــا ازداد شعورها بالألم ، إنه لم يتركها هناك إلا ومعها سيارة ، بل وبالغ في كرمه فأرسل إليـــها جمركــها بالدولار ، إنه ليس بشرا .. ولو كان والدها لما فعل ما فعله هذا الخال ، ليتها تستطيع أن ترتمـــي عند قدميه ، وتلعقهما بلسانها ، وتروي الأرض التي يسير عليها بدموعها ، ليته يقبل ما تقدمه إليه لا ردا لجميل ، ولا سدادا لدين ، ولكنه أقل كثيرا من الثمن الذي دفعه هو وعائلته للدكتـــوراه التي حصلت عليها ، لم تعرف أن هذه الدكتوراه بهذا الثمن الباهظ إلا الآن ، إنها لا تعرف مــاذا تفعل لترضي ضميرها ، ولترفع عن كاهلها ثقل ما تحمله من لوعة وأسى . وبكاؤها الحار لا ينقطع

، ومحاولات الفتاة تطييب خاطرها وتهدئة بالها لا تشفع . وأخيرا نهضت ، واصطحبت الفتـــاة إلى سيارتها ، وأمرتها بحزم أن تركب إلى جوارها ، واتجهت إلى أقرب مسجد ، فتوضأتا هي والفتـــاة وصليا لله سبحانه وتعالى أن يفرج كربتهما . وتبعتها الفتاة وقد شعرت بالارتياح لها .

٣-- نذالة

ألم بأختها موضع أسرارها القلق علبها ، فقد تأخرت كثيرا ، تصورت أنها ربما تكون قد ذهبت إلى الوكر الذي كان سببا في تعاستهما ، وربما يكون سببا في تعاسة عائلتها بأكملها ، اتجهت إليه مباشرة ، وقدرت أنه إن لم تكن أختها هناك ، فلا بد له من الهرولة معها للبحث عنها ، فإذا وجداها ، أجبرته على الزواج منها ، كانت خشيتها أن لا تجده ، لكنه كان موجودا ، بل وكانت معه ضحية جديدة يحاول افتراسها . ضغطت جرس الباب ، فنظر من العين السحرية وجال ببصره يبحث عن شكر الله ، رآه في ركن بعبد وكأنما يراقب الأحداث ، ويستعد لتنفيذ الأوامر كما علمه ، فاطمأن كثيرا ، إذ أنه منذ أن غادرته منى بعد أن قال لها ما قاله من عبارات في حجم حجارة الأهرامات ، وصور أولاد عمومتها وهم يذبحونه كالخراف لا تفارقه ، ثم بدأ يتأملها بجوارحه النهمة اللتي لا تشبع ، صور له شيطانه جمالها المتواضع أنها ملكة جمال ، وبدا له خوفها تمنع الراغبات ، لكنه تعجب من الحجاب الذي لم يتمكن من إخفاء جمال شعرها ، ظنها موضة جديدة ، كل من ترغب في الانحراف تتخفى وراء الحجاب ، واستطاع أن يرصد فيها مزايا أخرى كثيرة صورها له عقله المنحرف ، وتعجب ! ماذا تريد فتاة محجبة منه ، تراها قريبة لفريسته ذات الحجاب التي تدعي أبوته لجنينها ، أم أنها قدمت رغبة منها في الانحراف أو امتهانا له ، فإن كانت قدمت لهذا الغرض ، فما كان له أن يتركها دون أن يسعد بها ويحقق لها أملها ، أما إن كانت قريبة ذات الحجاب مدعية العفة ، فإن الانتهاء بها إلى نفس مصير قريبتها يكون أفضل حل ، فلا تستطيع أن ترفع عينيها لا هي ولا قريبتها ، ثم أنه لماذا تأتي قريبتها ، ألا تخشى على نفسها من ذات المصير الذي تدعيه الأخرى ، لابد وأنها عائلة منحرفة ، تمتهن كل بناتها الانحراف وتتخفين وراء الحجاب ، هكذا لقنه شيطانه البشري ، محامي الرذيلة أستاذه في الاستهانة بأعراض الناس ، فتح الباب بهدوء وبطء ، وخرج إليها ثم رده خلفه مواربا ، حتى لا تسمع الضحية الموجودة بالداخل شيئا مما يدور بينهما ، وبدأ يلقي شباكه حولها ، أرادت أن تترك له فرصة ترى فيها بعضا من أخلاقه الدنيئة ، وتعجبت !! أي مصير هذا الذي تتهاوى إليه أختها ؟ إنه إنسان فاسد بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، كيف لها أن تعاشره بعد الزواج ، إن كتب الله لهما الزواج ، كيف مع زواغة العين هذه التي لا تشبع ولا تقنع ، في الداخل فتاة جاهزة لرغباته ، وفي الخارج فتاة يريد غوايتها ، ياله من متعدد المواهب ، أرادت أن تتعرف على أساليبه في اصطياد الضحايا ، فتركته على راحته ،

يصف ويستشعر ويبخ سمومه التي ربما تنجح مع الكثيرات ، ليست لبراعتـــه ، ولكـــن بـــالقطع لرغبتهن في ذلك ، وبعدما أنهى ما عن له أن يقول واصفا الجمال والقوام والعيون و.. و.. ، بادرته بقوة لم يكن يتوقعها ، وكاد صوتها يعلو كأنما تريد أن تسمع العالم كله ما تختزنه له من غل وحقـد وضغينة ، حتى أنه خشيها وأسرع يشير لخادمه أن يأتي ليخلصه منها ، لكنها لم تمهله ، سألته سؤالا أكد له من تكون :

• " فين منى ؟؟"

وجد نفسه في موقف لا يدري ماذا يقول ، ارتجفت أوصاله وهربت منه الكلمات ، بدا لـــه أن ينكر معرفته بشيء اسمه منى ، وحاول التهرب ، هكذا هي حال كل أفاق ، لا يجد كلاما فينكر ، وتعجب من أن شكرالله لم يحرك ساكنا ، ظل يلوح له أن يحضر سريعا ليخلصه منها ، لكن شكرالله اختفى ، أين ذهب هذا ال..؟ ، ثم وجد أنه من الأفضل له إبعادها بأسرع ما يمكـــن ، حـــتى لا تتسبب في فقدانه لضحية جاهزة ، لكن الضحية قدمت على صوت النقاش ، فرمقتها منال بتفرس وقالت لها :

• " ماذا أوقعك في هذا المصير المشؤوم ، ألا يكفى أنه تسبب في انتحار أختي ؟"

وأدركت الضحية الموقف ، فسارعت بالخروج والنجاة بنفسها ، بينما كان لكلماتها عليـــه وقـــع الصاعقة ، فانهار على أقرب كرسي ، وهو يهز رأسه منكرا أن يكون قد حدث لمنى مكروه ، على الأقل أن لا يكون ذلك بسببه ، فهو لا يستطيع أن يتحمل هذا الذنب ، ووجد ذاكرته تعـــرض عليه بعضا من صور المآسي التي تسبب فيها للغير ، منها صورة خضرة وقد قطعت رأســـها عـــن جسدها ، بسبب العار الذي ألحقه بها ، لكن المسكينة لم تستطع الكلام ، حيث أنها عندما أفاقت في أول الأمر ، وجدت نفسها في حضن المحامي ، فكانت كلما حضرت لتنظيـــف شـــقة الدقـــي ، يتناوبنها البيه الصغير والمحامي ، ويقنعانها ببعض الجنيهات التي لم تكن الفتاة تعرف ماذا تفعل بهـــا ، حتى ظنا أنها استمرأت الأمر ، وما عاد لمشكلتها أهمية عنده ، ولولا أن وشى بها واش عند أهلها ، لأستمر الأمر دون مشاكل ، خاصة وأن المحامي تولى أمر أول حمل ، ثم دلها على استخدام الموانع ، لكنه الآن أدرك أن مقتل خضرة كان بسببه ، وبدأ شريط الذكريات يمر بخاطره ، هل يمكن لمثلها أن تكون من فصيلة تلك الفتيات المستهترات اللاتي يتخفين تحت حجاب الإيمان ، كيـــف فـــات فراسته أن يكتشف هذه الحقيقة ؟ لقد كانت كلماتها معه عن الحياة الزوجية ، وبيت الحب الـــذي

يجمعهما ، وابنهما الذي في الطريق ... كل ذلك كان حقيقة ، لم يكن يصدقها ، وتصور أنها تحاول ابتزازه ، لكنه مع عبرات هذه الفتاة المحجبة التي تقول أنها أختها ، وكلماتها التي هزت كيانه عن انتحارها الذي هو مسؤول عنه ، ولا أحد غيره حتى أنه وارى وجهه خجلا من نفسه ، أو ربما تمثيلا أمام قريبتها حتى تتصور أنه الشاب المهذب ذو الأخلاق العالية ، لكن كيف والفتاة التي هربت ومحاولته احتواؤها ، أحداثا لم تكن ببعيد . وأصدرت أختها له الأوامر واحدا تلو الآخر .

- " هيا نذهب للبحث عنها بدلا من بلادتك هذه ، ليتها كانت موجودة دائما تلك البلادة ، انهض أيها الكسول علنا نستطيع أن نفعل شيئا فننقذها مما أقدمت عليه ."

كلماتها كانت مصوبة نحوه كأنها براكين ورعود ، وصوتها الذي اختنقت عبراته ، كان يؤكد صدقها ، والإنسان مهما بلغ جبروته ، لابد أن يقف عاجزا عن أي تصرف أمام الكلمات الصادقة ، فوجد نفسه مجبرا على التحرك بسرعة ، والهرولة معها للبحث عنها . قال بصوت يكاد يكون همسا :

- "لابد من وضع خطة للبحث ، فالبحث دون خطة مدروسة سيضيع الوقت بلا طائل "

ياله من عقل راجح هذا الذي يفكر في كل شئ وقت الأزمات ، أمنت على كلامه ، وسألت :

- " من أين نبدأ ..؟"

قال ببساطة لم تتصورها :

- " الذهاب أولا إلى منزلكم علها تكون قد عادت ، وإلا فعلينا البحث عنها في كل مكان معروف لديكم تكون معتادة الذهاب إليه ، ثم اللجوء إلى الأماكن المعتادة في مثل هذه الظروف ، المستشفيات وأقسام الشرطة ، ومنازل الصديقات أو الأقرباء أو الزميلات."

تمتمت الفتاة ببعض العبارات التي يفهم منها أنه لا أقرباء لهن ، وليس لها صديقات ، ولا حتى زميلات دراسة تربطها بهن علاقة ، وتعجب علاء ، كيف يمكن أن يكن بهذا التحفظ ؟ وما أن اقتربا من البيت ، حتى استوقفته لترتب معه كيف سيتم إخباره بأنها بالمنزل ، أشارت إلى بلكونة فوق أسطح إحدى العمارات العالية ، أو لعلها أعلى عمارة بالمنطقة ، وقالت :

• " هل ترى هذه البلكونة بأعلى تلك العمارة ..؟ إنها بلكونة شقتنا ، سوف ألوح لــك بهــذا المنديل إن كانت موجودة .."

وتولى هو إكمال حديثها :

• " تنزلينها فورا .. ثم .."

فاستحثته ليكمل :

• "ثم ماذا يا بطل ؟ "

قالتها له بشيء من التحدي ، ولم يجد بدا من أن يقول :

• " نذهب إلي المأذون ، ونتزوج فورا ... "

وابتسمت ، بعد أن أكد لها أن هذا وعد ، ولن يتراجع عنه مهما كانت الأمور ، أعادت عليه ما سبق أن قالته ، إنها ستلوح له من البلكونه ، إن كانت مني موجودة ، وإلا فسوف تنزل إليه ليبحثا عنها ، وأشارت مرة أخرى إلى البلكونه التي ستقف فيها لتلوح له منها ، صعد برأسه عاليا مــرة أخرى ليؤكد لها اهتمامه بالأمر ، وعن له هذه المرة أن يحصي عدد الطوابق التي تتكون منها تلــك العمارة ، فقالت له بعد أن أكدت له أن لا يتحرك من ذلك المكان :

• "معلهش إحنا ناس على قدنا ، لا نملك إلا الشرف ، والإيمان بالله ."

وهرولت تتسارع خطاها ، وهى تتمنى أن تجد أختها ... لكنها لم تجدها ، وتعجبت من هذا القدر الذي يرسم ويخطط للبشر بما قد لا يتوافق مع رغباتهم وطموحاتهم ، وأسرعت إليه ، فقد أصبــح هروبها أو اختفاؤها ، أو ربما انتحارها ، أمر مؤكد ، وما أن اتجهت إلى المكان الذي كــان مــن المفترض أن ينتظرها عنده ، حتى فوجئت بكوكبة من الناس وقد تكأكأوا على شئ ما .. رجــل سقط فوق رأسه شئ من عل ، فشج رأسه ، وأفقده الصواب ، وربما يكون قد فارق الحياة .

لا يهمها ذلك ، جابت بعينيها المنطقة ، فلم تعثر له على أثر ، هرولت هنا وهناك بحثا عنه ، لكنه اختفي تماما ، لعنته بصوت كاد أن يكون صراخا ، وأدركت كم هو من النذالة والحقارة ، سايرها حتى تركته ، فهرول مثل أي جبان .

أما هو ..فقد بدا له أن يقيم الموقف بعد أن تركته أختها ، إن كان هذا سكنها ، فهل سيوافق والده عبد المنعم بك على زواجه منها ؟، إن حالتهم تدل على فقر كبير ، فالفستان لا يكاد يتغير إلا بعد مدة ، والنحافة ليست بالقطع رجيما ، والسكن فوق السطوح ، فماذا يجبره على تقبل هذه الحقائق ، واستعاد بفكره ما قاله له محامي العائلة ، ووجده معقولا ، فليهرب وليترك الأمر لمحامي العائلة . وهكذا تحرك من مكانه ، وما أن خطى بضع خطوات ، حتى فوجئ بشيء ثقيل يصدم رأسه ، حاول الحركة ، ومشى بما يسمى بالدفع الذاتي ، لكنه لم يتمالك نفسه ، فسقط مضرجا بدمائه . وفي مصر ، ولا أدري إن كان هذا شئ يحسب لنا أو علينا ، ما أن يحدث أي حدث غير عادي ، حتى يلتف الناس من كل حدب وصوب لمعاينته ، وربما يكون موجودا من هو على دراية طبية أو خلافه ، فيتوسط للقيام بعمل ما ، وهكذا ، ما أن سقط والدماء تسيل من رأسه ، حتى هرع الناس إليه ، فمنهم من سارع بالاتصال بالشرطة ومن ثم الإسعاف ، ومنهم من حاول التأكد من تنفسه ، وما إن كان ما يزال على قيد الحياة ، ومنهم من هيأ له تمدده على الأرض بما يجعله في وضع مريح ، ومنهم من سارع بإحضار ما يتمدد عليه حتى لا تتسخ ملابسه ، شعب متعاون حقا ، سريع الاستجابة للتماسك وقت الأزمات ، فكم كان الشعب وحدة واحدة في حرب ٥٦ و ٧٣ ، أما ٦٧ فقد كانت ظروف الغطرسة العسكرية والكبرياء الأجوف والتسلط على خلق الله من أسباب الهزيمة ، والسبب الأهم هو عدم قناعة الشعب بما يفعله فيه حاكموه .

حضرت سيارة الإسعاف لتحمل المصاب إلى المستشفى ، بينما وقف ضابط المباحث يسأل وينقب ويبحث عن أي شئ يوصل إلى معرفة ما حدث ، ووقفت هي لا تدري ماذا تفعل ، الآمال التي عقدتها عليه في حل المشكلة تبخرت مع تبخره ، ووجدت عينيها تجوبان المكان بحثا عن لاشيء ، ثم فوجئت بمنى تنزل من سيارة ، أوصلتها السيدة الطيبة حتى باب منزلها ، وكانت على استعداد لتوصيلها حتى باب الشقة ، ومناقشة والديها في المشكلة ، وعرض بعض الحلول العملية عليهما ، لولا أن منى طلبت منها أن ترجئ ذلك لمناسبة أخرى ، ربما بعد أن تحاور السيدة ذلك المستهتر أو عائلته ، لعله يرعوي ، ويصلح ما أفسده طيشه ، فأعطتها منى رقم هاتفه وعنوان عائلته .

ولم تصدق منال عينيها وهى ترى أختها سليمة معافاة ، أسرعت إليها بكل ما تملك من عزم وعزيمة ، لم تهتم بالسؤال عن المصاب ، ولم تهتم برجل المباحث الذي كان يسأل كل من يتصادف

وجوده في مكان الحادث ، وهم بمناداها فوجدها تهرول إلى باب العمارة ، وهم بأن يتبعها ، فقد ظن أنها تريد الهروب ، لكنه وجد لهرولتها تفسيرا منطقيا ، عندما استوقفت أختها ، واحتضنتها بشوق الملهوف ، والتصقت بها كأنما تخشى ضياعها مرة أخرى ، وصعدا سويا ، وهي تقص عليها بسعادة غامرة ، وعده لها بالزواج منها ، ولولا عدم وجودها ، لكان ذلك قد تم الآن .

كانتا قد وصلتا شقتهما ، ولم تتلكأ الفتاة المؤمنة ، التي غلبها الشيطان في لحظة ضعف ، أنقذها الإيمان بالله منها ، ذهبت لتوها وهي على وضوئها وسجدت لله شكرا ، وأخذت تدعو وتبتهل والدموع تغمر عينيها ، وسكينة الإيمان تضئ وجهها ، وتبعتها أختها تشكر الله على سلامتها وهدايتها ... وكل شئ .

قصت على أختها قصة السيدة المؤمنة التي أنقذها من حماقة الانتحار ، وقالت لها كم كانت خائفة منها ، فقد ظنتها من تلك الجماعات التي اتخذت من التطرف ذريعة لإفساد فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لكن صدق الرسول الكريم في قوله عن أناس أخصهم الله بفعل الخير ، حبب الخير فيهم ، وحببهم في الخير ، أو لنقل أنها دعوات ذلك الرجل الذي وهب حياته وجهده وكل ما يملك من أجلهن ، فلا ينام حتى ينمن ، ولا يأكل إلا بعد أن يشبعن ، أو يتظاهرن بالشبع حتى يتركن له ما يقتات به ، وتلك الأم الرؤوم ، التي تتبلل عيناها لمجرد مشاهدهن ، يالها من مصيبة لو لم يف هذا المستهتر بوعده ، أي طامة ستقع على رأس هذين الوالدين لو علما بالخبر قبل زواجها ، أو أن تفشل السيدة الطيبة في إقناع والديه بمسؤولية ابنهما عما حدث لها ، وجنينه الذي تحمله في أحشائها ، وضرورة لم الموضوع ، والتستر على الولايا ، ومن ستر على أخيه ستر الله عليه ، ومن فرج عن أخيه كربة من كربات الدنيا ، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ودعت من كل قلبها أن تسلم العواقب ، وأرخت جفنها ، فغلبها نعاس اشتاق له جسدها المنهك من طول سهد ، وتفكير عميق أفقدها شهيتها ، وجنين ينمو في أحشائها يحتاج إلى كل ما يجود به جسدها النحيل من مقومات الحياة ، وكم كان شحيحا ، وتبعتها أختها ، فقد أنهكها قلقها عليها ، وطول انتظارها لها ، والمجهود الجبار الذي بذلته وصولا إليه ، ثم إقناعه بالبحث عنها والقلق يعتصرها ، والخوف من أن لا يفي بوعده وما أكثر نكثه بالعهود .

لم تنتظر السيدة الطيبة ، ذهبت من فورها إلى العنوان ، حتى قبل أن تتصل تليفونيا ، فيلا أنيقة في حي من أحياء الطبقة الأرستقراطية ، بواب وجنايني وسفرجية بالأطقم البيضاء وحزام من قماش

أحمر اللون ، إنهم يعيشون حياة أرستقراطية كتلك التي كنا نسمع عنها أيام الباشوات ، أي ما قبل أربعين عاما .

سار البواب خلفها حتى الباب الداخلي للفيلا بعد أن عبرا حديقة غناء ، مليئة بالزهور الباسقة والورود الجميلة وعطر الرياحين ، وخرج إليهما السفرجى الذي تقدمهما إلى الصالون ريثما يعطى الهانم خبر :

• " نقول لها مين سعادتك ..."

قالت بصوت هادئ كله ثقة بالنفس :

• " الدكتورة سعاد ... "

وأسرع السفرجى الخطى ، وهو يسمع كلمة دكتورة هذه ، فهو يعرفهن ، إنها هانم من هوانم ذلك الزمان ، كلهن ذوات .. ولكن ليسوا كذوات الأمس ، بل ذوات نفوذ ، لا تتكلم أي منهن ، إلا بقريبها فلان ، وأخيها ترتان .. وكل من هؤلاء الأقارب مسبوقا بلقب ، إما مستعار من ألقاب الماضي ، بك أو باشا ، أو من الألقاب العسكرية ، أو العلمية ، أو القضائية .

نسي الاسم مع تعجباته التي لا تنتهي ، فقال متمتما بتردد :

• " الست ززز .. هانم في الصالون .."

وأقبلت سيدة المنزل تهرول ، وأهلا وسهلا ، وكأنما العلاقة بينهما متصلة إلى ما قبل هذه اللحظة بلحظات ، وهمت بتقبيلها ، فهذا هو نمط الاستقبال الحار الذي يرفع التكليف ، لولا أن السيدة الطيبة ابتعدت قليلا ، فإن ما قدمت من أجله ، لا يتحتم معه رفع الكلفة .

• " كنت أتمنى هذا اللقاء ، وأتوق إليه .."

وتعجبت الدكتورة سعاد ، فهذه هي المرة الأولى التي ترى فيها السيدة ، وتتعامل معها كأنها تعرفها منذ سنوات ، ولم تملك إلا شكرها :

• "شكرا يا هانم .."

لكنها مازالت تصر على سابق المعرفة التي تتطلب رفع التكليف بينهما :

• " يا ليت نرفع التكليف ، ناديني ميشو .. كما ينادونني "

ولم تملك سعاد إلا أن تناديها باسمها :

• " يا ميشو هانم .."

لكن ميشو تلح في أن يكون التفاهم بينهما بدون ألقاب :

• "..إي.. يا ليت بلاش هانم دى .. أنا الحقيقة تعبت خالص عشان أسجل اسمي في جمعيتكم العظيمة .."

وقالت سعاد بدهشة :

• " تعرفينني إذا !!"

وبالغت ميشو في الترحيب بها :

• "وهل يخفى القمر .. زينب هانم خليل مديرة جمعية الأخلاق الكريمة .."

وكانت فرصة لسعاد ، هي تظنها مديرة جمعية تعبت ميشو لتسجيل اسمها بها ، والموضوع الذي قدمت من أجله ، يدخل ضمن مفاهيم الأخلاق الكريمة ، أي أنه يدخل ضمن اختصاصات الجمعية ، وعلى هذا ، فقد اختصرت ميشو الكثير من المقدمات والمؤخرات التي كانت سعاد تحاول ترتيبها ، لتصل إلى لب الموضوع معها ، سارعت في القول :

• " يبقى حنتفاهم بسرعة .."

وتساءلت ميشو :

• "بخصوص إيه يا زينب هانم ؟"

وقصت السيدة الطيبة عليها حكاية ابنها مع منى ، على أنها حكاية شاب وفتاة ، حكاية عادية من الحكايات التي تحدث بين شباب هذه الأيام ، وطلبت رأيها بصفتها عضوة في جمعية الأخلاق الكريمة ، وبعد تفهم لأبعاد المشكلة ، وخير البر عاجله ، تقرر الذهاب سويا إلى منزل الضحية للاتفاق على الحل ، واتخاذ إجراءات عملية ، فهذه هي المهمة الأساسية لعضوات الجمعية ، الحلول العملية والسريعة . وصلا إلى العمارة ، وكانت آثار الدماء ، وبعض كوكبة من الناس ، ورجال

الشرطة ، مازالوا في مكان الحادث ، واستعاذت السيدة ميشو من الشيطان الرجيم ، فشرحت لها الدكتورة سعاد موضوع الحادث الذي وقع منذ برهة في ذلك المكان ، فقد شاهدت سيارة الإسعاف وهى تنطلق ، عندما قدمت لتوصيل منى ، ولعل تلك آثاره .

نادت على بواب العمارة ، وطلبت منه الصعود إلى منى ومناداتها ، فطلب منهما البواب أن يصعدا معه ، ذلك أن والد منى لا يسمح لهن بالنزول لأحد ، وكانت هذه بادرة طيبة تدل على حسن التربية ، لكن السيدة ميشو علقت على ذلك باستغراب ، فكيف لفتاة في مثل هذه البيئة المتحفظة أن تنحرف ، وأعادت السيدة سعاد عليها القصة ، وأنها لم تنحرف بقدر ما أغواها هذا الشاب ، وبقدر ما تلاعب معها بأساليب خسيسة . صعدت السيدتان مع البواب ، قرأتا الاسم ، محمد عبد المؤمن ، اسم يبعث على الاطمئنان ، ضغطت السيدة سعاد جرس الباب ، وفتحت الأخت الصغرى ، سألتهما من يكونا ، ربتت عليها سعاد بحنان واضح ، وطلبت منها أن تنادى أختها منى ، قالت الطفلة ببراءة وقد شعرت بحنانها :

• " حضرتك الأبله بتاعتها !"

واحتضنتها سعاد ، وهي سعيدة بذكائها :

• "أيوه .. قولي لها كده .."

وقالت الفتاة ببراءة :

• " بس دى نايمة ، أصلها تعبانه قوى .. "

فأصرت سعاد على أن توقظها ، فالموضوع لا يتحمل التأجيل :

• " مع لهش ، قولي لها فيه خبر حلو علشانها ، وهى حتصحى على طول ..."

وحضرت منى ، ومعها منال ، فقد انتبهتا سريعا وتهللت أسارير الأختين ، لعل الله استجاب لدعائهما ، وانطلقت منى تحتضن السيدة الطيبة التي قدمت لها السيدة ميشو ، وقبل أن تكمل السيدة الطيبة التقديم ، انهالت السيدة ميشو مكيلة عبارات السب واللعنات على الشباب المستهتر ، ونظرت منى إلى السيدة الطيبة فأومأت إليها بما يفيد بأنها والدة ولاء ، وانفرجت أسارير الأختين

، وتركتا السيدة ميشو تكيل ما شاء لها من سباب ولعان ، وتساءلت السيدة ميشو عما انتهت إليه منى مع ذلك الشاب المستهتر :

• " الحقيقة منال أختي ذهبت إليه ، ويظهر إن ضميره صحي ، ووعد بتصحيح خطئه .."

وأكملت منال – أنه حضر معها ، وربما يكون قد ذهب لإحضار المأذون ، وسعدت السيدة ميشو بهذا الخبر ، وطلبت كوبا من الماء ، كأنما تبتلع أنفاسها بكوب الماء هذا ، وأسرعت منى تحضر الماء لحماة المستقبل ، بينما أبدت السيدة الطيبة تشككها فيما قالته منال ، فأومأت إلى منال تريد أن تتأكد من ذلك ، فهمست منال في أذنها مؤكدة حضوره ، لكنه ربما يكون قد عاد إلى مراوغته ، إذ أنها لم تجده عندما عادت إليه .

وتشككت منى فيمن قدمتها السيدة الطيبة إليهما على أنها والدة ولاء ، فهمست في أذن السيدة الطيبة بشكوكها ، ذلك أن صوتها يختلف كثيرا عن الذي سمعته في الفيلا عندما ذهبت معه ، لقد سمعت صوت والدته ، وبأذن طبيبة المستقبل وجدت له رنة يتبين منه أن صاحبته ليست برقة مدام ميشو هذه ، كما أن الكلمات ومخارجها ليستا كما هي مدام ميشو ، لعل ما درسته من علوم الطب الشرعي تدخل في تحليلها للأصوات والأشخاص، وجحدتها السيدة الطيبة مادحة فراستها ، ولسان حالها يقول " كيف غاب عنها أن تكتشف ما إذا كان المدعو ولاء هذا من النوع الجيد من الشباب ، أم أنه مستهتر يلعب بالعواطف حتى يصل إلى غرضه ، ثم يطلق ساقيه للريح مع أول بادرة " ، وعادت السيدة الطيبة تؤكد على العنوان ، وأخذت تشرح لمنى الفيلا من الخارج والداخل ، وتدقق في كل شئ حتى تتأكد من أنها لم تخطئ العنوان ، وأخيرا طمأنتها ، فإذا كان العنوان صحيحا ، فلا بد وأن المتواجدة معهن الآن هي والدة ولاء ، وربما من قدمها لمنى لم تكن هي ، أو أنها كانت مصابة ببرد أو أي شئ من هذا القبيل . فأقبلت منى على حماة المستقبل تبالغ في المجاملة والترحيب بها ، بينما سارعت تحضر لهما بعض المشروبات من التي تصنع في المترل ، وألحت في أن تتعرف على طلباتهما ، وكأنما البيت عامر بكل ما ترغبان ، لكن الفتاة ركزت على ما يملكونه .

• " ليمون .. أظنه مناسب في هذا الوقت .."

ووافقتا ، وأسرعت تعد لهما الليمون ، بينما دار همس بين السيدتين ، خاصة ما أبدته السيدة ميشو عن الأثاث الذي يظهر فيه ثراء أكثر من المعقول لولا قدمه ، وهذه الشقة فوق السطوح ،

لكنها لا يمكن أن تكون لفقراء ، خاصة وأن بواب العمارة عاملهما بحفاوة وصحبهما إلى الشـقة ، وهذه ليست تصرفات بوابي هذه الأيام ، لا بد وأن والدهما له نفوذ من نوع ما ، أو أن البـــواب يكن له احتراما بصفة خاصة ، لعلهم من الأغنياء الذين أممت الحكومة ممتلكاقم ، فقد كان مـــن الممكن أن يصيب عائلة مدام ميشو ما هو أكثر من ذلك ، لولا وجود بعض أفـــراد العائلـــة في الحكومة وتعرفهم على اتجاهاقا ، وسرعة أبيها في التصرف ، لكانوا الآن في موقف ربما أسوأ مـــن هذه الأسرة بكثير .

فوجئ عبد الجليل بابنته بهانه تحضر من القاهرة دون سابق موعد ، العادة أن الست ترسلها مع السائق حتى بيت أبيها نهارا ، أما أن تأتي في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ويسمع صوت السيارة وهي تنطلق دون سلام أو كلام ، هذا ما لم يعهده من قبل ، لابد وأن هناك شئ ما ، ماذا حدث . ومع بكائها المستمر ، ودموعها التي لا تجف ، حاول الرجل أن يعرف منها سببا لبكائها ، ولكن دون جدوى ، لكن الأم بعفويتها وقلبها الحنون ، احتضنها وأشارت إلى أبيها أن يتركهما وحدهما ، وانفجرت الفتاة في صراخ ونحيب ، والأم تربت على ظهرها ، وتطيب خاطرها بكل ما تحفظ ذاكرتها الجاهلة من كلمات الحب والتشجيع والحنان ، في محاولة لفك عقدة لسانها ، وأخيرا بدأت الفتاة تهدأ قليلا ، ولكن أنى للمظلوم أن يهدأ ! وكيف للمغدور أن يرتاح ! وفجأة استرسلت في سلسلة أخرى من البكاء والتشنج ، فبدأت الأم في سؤالها عما يمكن أن يكون سببا لهذا البكاء ، ومفجرا لكل هذا النحيب ، وأخذت تصعد من تلك الأحداث واحدا تلو الآخر ، بادئة من المعتاد منها ومنتهية إلى ما قد يكون جليلا :

- " الست ضربتك .. طب البيه ضربك .. كسرت حاجة في البيت وخفت يضربوك قمت هربت .. حد من الشغالين اللي هناك تعرض لك .. "

ومع هز رأسها يمنة ويسرة معلنة عدم تعرضها لأي من هذه الأمور ، لم تجد الأم إلا أن تسألها سؤالا لم يكن ليخطر على بالها مطلقا ، فالفتاة لم تبلغ بعد الخامسة عشر ، ولكن الريف بخيراته ، والشمس والهواء النظيف غير الملوث ، وبالرغم من معظم أنواع الأمراض التي تصيب الفلاح ، إلا أن الله أنعم عليهم بصحة يحسدهم عليها قاطني القصور والفيلات ، وأصحاب الملايين ، وجيوش الأطباء والمعالجين ، كذلك كانت بهانه ، في سن الخامسة عشرة ، ولكن من يراها لا يقدر لها سنا بأقل من عشرين ، ومهما كان عمرها ، فإن الكثيرين من أهل الريف لديهم من الأخلاقيات ما يمنعهم من ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والفتاة يمكن أن تتنازل عن أي شئ إلا شرفها ، ذلك أنهن يعرفن تماما أنه لا يوجد تهاون من الأهل أو من أهل القرية عموما في مسائل الشرف هذه ، لذلك من تخطئ ، تسرع الخطى إلى القاهرة أو الإسكندرية ، وهناك تتلقفها الأيادي القذرة أو النظيفة ، وفي الغالب تكون الأيادي قذرة ، أما الأيادي النظيفة ، فمع قلتها لن تكون الفتاة عندهم سوى خادمة بلقمتها وربما كسوتها ، وأما الأيادي القذرة ، فليس أمامهم سوى

استعبادها كراقصة هز وسط والأمور الأخرى ، أو الأمور الأخرى فقط بدون هز وسط ، وفي كلتا الحالتين ، لا يمكن أن يكون بينها وبين القرية أية صلة ، وتعيش في تعاسة من حرمت من أهلها ، وتركت نفسها لتجار وتاجرات الرقيق الأبيض أو الأسود ، ليستنفدوها ، صحة ووقتا وفاحشة ، كل شئ ، وكأنما نزعت الرحمة من قلوبهم ، وكأنما المغدورة ليست بشرا ، وكأنما أمور كثيرة قد يشاء القدر أن تفيق المسكينة منها ، فترفع راية العصيان ، أو أن يستهويها أحد طالبي المتعة ويريد أن يستخلصها لنفسه ، وهناك تجد فرصة للتفكير في أمر نفسها ، أو أن تجد من لا يعرف قصتها فيعطف عليها ثم يحبها ثم ينقذها من براثن العبودية الجديدة ، وقد يغفر لها ويتزوجها ، وتعود إلى أهلها مع زوجها وأولادها ، وفي الغالب يتسامح الأهل معها ، والله غفور رحيم .

وشعرت الأم بحاسة الأنثى ، أن هناك اعتداءا وقع عليها ، وقبل أن تبدأ في صب جام غضبها عليها ، استحلفتها الفتاة بأنها مظلومة وليس لها ذنب فيما حدث ، فقد أمروها بأن تذهب مع السائق لتنظيف شقتهم بالدقي ، ونبه عليها السائق أن لا تفتح لأحد كائن من كان ، حتى ولا البيه الصغير نفسه ، لكن البيه الصغير لم يكن في حاجة لمن يفتح له ، فهو معه مفتاحه الخاص ، وهكذا فوجئت به أمام عينيها ، تركها في حالها ، وأعطاها كيسا من اللبان ، أخذت واحدة منه ثم استيقظت لتجد نفسها هكذا ، في غرفة البك الصغير ، وهو في الحمام ، فغافلته وانطلقت إليهم ، وأخذت تقسم بالأيمانات المغلظة أنها مظلومة ، وأن هذا ما حدث ، وسألتها الأم :

- " ومن قام بتوصيلك ، لقد سمعنا صوت سيارة ..؟ "

وأجابت الفتاة بلعثمة تثير الشك :

- " واحد بيه كان ماشي بعربيته ، ولما لقاني بأتطوح ومش قادرة أسند طولي ، ورجلي مش قادرة تشيلني ، ووقعت أكثر من مرة ، قام عرض علي أن يأخذني إلى مستشفى ، أو يطلب لي الإسعاف ، لكني معرفش اطمأنيت له إزاي ، وطلبت منه يوصلني ليكم ، والأكادة إنه طلع عارف الكفر ، ولما عرف أنا بنت مين ، لقيته هز دماغه وقال لي أبقى أسلم له على أبويا .. بس ما رضيش يقول لي هو يبقى مين ، لكن يظهر إنه حب يطمئنني أكثر بإنه عارفنا كويس ، ده حتى قال لي أسلم له على ستي مسعده ، طب هو حيعرف اسم ستي منين إن ما كنش يعرفنا كويس .."

وتعجبت الأم من هذا ، عابر سبيل يعرض خدماته بأخلاق وأدب ، وصاحب البيت لا يقيم للأخلاق والأدب أية اعتبارات ، ثم سألت الفتاة بقسوة :

• " معاكي اللبان ده ... وريهوني .."

كانت الفتاة قد استدركت أن في هذا اللبان اللعين شيئا ما ، فاحتفظت به كدليل على براءها حقيقة هي ساذجة ، ولم تحصل من التعليم إلا على الابتدائية ، وهي أيا كانت لا تمثل حلقة هامة من حلقات الثقافة ، ولكن ما يعرضه التلفزيون من أعمال فنية ، كفيل بأن يثقف كل جاهل ، ويطلعه على أساليب الخداع ، ولم تتصور الفتاة بسذاجة عمرها ، حتى ولو كانت أكبر من ذلك ، أن هذا اللبان يؤدي إلى هذا المصير . وتركتها الأم بعد أن طمأنتها ، وخرجت إلى أبيها تقص له القصة ، وعندما أراد الرجل أن ينتقم لشرفه ، ويحفظ ماء وجهه ، ويهجم على الفتاة ليفرغ عليها شحنة الغضب لإحساسه بالمهانة التي ستلازمه عمره كله ، وعمر أولاده وبناته ، وقفت زوجته في طريقه ، وقالت له :

• " استهدى بالله يا رجل ، ما فائدة الصلاة والعبادة إن لم تكظم غيظك ، وحاول نشوف حل للموضوع ده ، اللبان أهو ، خلي حد من اللي عارفينه يقول لك إن كان هو ده اللبان اليهودي اللي بيقولوا عليه والا لا ، فإن كان اللبان اليهودي تبقى البنت مظلومة ، ويبقى البيه الصغير هو المسؤول ، وما دام الأمر كذلك ، يبقى مفيش غير انه يصلح غلطته ، يا إما انت عارف بقى ما يجب عمله في الظروف دي ، وإذا لا سمح الله ما كنتش قادر والا خايف ، اخوتي فيهم البركة ...."

وأطرق الرجل قليلا يفكر في الأمر ، ووجد أن كلامها معقول ، وأخذ اللبان من فوره إلى البقال ، وسأله :

• " اللا اللبان اليهودي اللي بيقولوا عليه ده شكله إيه ؟؟ "

ووصفه له البقال ، وساءله لماذا يريده ؟ وهرب عبد الجليل من الجواب بقهقهة من يفهم ما يدور في خاطر البقال ، وتساءل عن مفعوله العجيب في الستات ، وبدا أنه بملاطفته للبقال سوف يبعد تفكيره عن أي شئ :

• " اللا ما استخدمتوش مع حد يا أبو محمود ؟"

ومازحه الرجل وهو يقهقه :

• " حتى لو استعملته ، تفتكر يعني الواحد عنده صحة .."

واشترى منه ما يثبت أنه لم يأتِ لسؤاله عن اللبان اليهودي فقط ، وعاد وقد تيقنت لديه بـــراءة ابنته ، ووضع ثيابه ، وأخذ بمانه ، وأسرع الخطى إلى قصر عبد المنعم بك السلحدار ، ونبه علـــى زوجته ، أن لا يَعلَم أحدٌ بهذا الأمر مهما كان ، حتى ولا اخوهما وأخوالها ، وكرر هذا التنبيه مرارا وتكرارا ، فهو يخشى الفضيحة له ولأهل بيته ، حتى ولو كان ذلك على حساب أمور كثيرة .

فوجئ عبد المنعم بك بأحد مزارعي عزبته يطلب مقابلته ، وقد تعمد السفرجي أن لا يفصح عن هوية عبد الجليل حتى لا يتهرب منه ، فقد رأى بمانه تبكي ، ومادامت تبكي ، فلا بد أن شيئا جللا قد حدث ، وهو ما يحدث دائما ، وقدم البك وهو ينفخ أوداجه ، ويتهادى وكأنما يقول يـــا أرض اهدي ما عليكي قدي ، وهو يتساءل في نفسه عن الرجل الذي قطع المسافة من بيتـــه في العزبـــة ليصله في الصباح الباكر هكذا ، فالعزبة تبعد عشرات الكيلومترات عن القاهرة ، إنها بقايـــا مـــا تركه له الإصلاح من أرض أجداده ، تلك الأرض التي اقتطعها محمد علي باشا لرفيـــق كفاحـــه صلاح باشا السلحدار ، وأنفق الرجل عليها الكثير حتى أصبحت تعطي إنتاجا يباع بالآلاف ، كان دائما يتباهى بذلك ، حتى يطَهِّر عائلته من الشائعات التي تلوك سير أصحاب الإقطاعيات ، من أنها كانت لا تمنح إلا للمحظيات أو قوّاديهم .

حقيقة أنه كان يعامل الفلاحين بقسوة أهل زمانه ، فقد كانت عبودية المصري محكوم بها عليـــه للحاكم أيا كان ، تركياً أو مملوكياً أو حتى ألبانياً اختاره أئمة الأزهر بقيادة الشيخ عمر مكـــرم ، لكن من الواضح أن شعب مصر صبر وصابر وتعايش مع المعاملة المهينة التي يلقاها من المستعمر في الحياة العامة وامتصاص ثروات الأرض ، أو من ضباط الجيش وسطوهم في استعباده باسم التجنيد الإلزامي ، أو من أصحاب الأراضي ، وتسخيرهم له للعمل كعبد في أراضيهم ، إنها العبوديـة ، إذ منذ أن احتل الإسكندر الأكبر مصر ، وشعب مصر يرزح تحت الاحتلال ، فاللامبالاة التي يتمتـع بها الجميع ، جعلت منهم عبيدا تحت نير المستعمر ، حتى كليبر ، انتظر الشعب المصـــري أحـــد السوريين لكي يخلصهم من بأسه ، والصليبيين أيضا صلاح الدين السوري هو الذي خلصهم منـــهم ، حقيقة أن شعب المنصورة قاتلوا ببسالة ، واستطاعوا أن يأسروا ملك الفرنسيين ، وحقيقـــة أن شعب بور سعيد وشعب السويس وشعب الإسماعيلية سجلوا بطولات وأي بطولات فيما فـــرض

على مصر من حروب ، الله وحده يعلم من الذي خطط لها ، ولماذا خططها ؟ ، لكن في حرب ٥٦ ضاعت قطعة من أرض مصر ، أغفلها الزمان بنسيان متعمد من صحافتنا وسياسيينا ، وصـــدرت القرارات من مجلس الأمن بالنص على عدم التفاوض عليها في مفاوضات السلام ، ويكاد يطويـها النسيان لولا بعض الصيحات الوطنية التي تصدر بين الحين والحين تطالب بها هذه الأيام ، وقبلـها أمور كثيرة سجلت على أنها بطولات ، والحقيقة أنها تدمير لما سلبوه منا ، من يفعل ماذا ؟ ولمـاذا يفعله ؟ هذا هو السؤال الذي لن تجد له جوابا ، تماما مثلما هو مصرع كينيدي والسادات ، وربما الزعيم أيضا ، لكن مما لا شك فيه ، أن فلسفة الشعب المصري في التكيـف مـع الأوضـاع ، والتعايش مع الظروف أيا كانت ، هي السر في بقائه واستمراره ، وإلا للحق بالهنود الحمـر ، أو بأهالي استراليا ، فالاستعمار الحديث ، لا يرضى إلا بالرجل الأبيض على سطح الأرض ، والعجيب أنهم يتحدثون عن العنصرية ، وهم مبتدعوها ، ويتحدثون عن الحرية ، وفي الحقيقة لا يقصدون إلا حريتهم ، وصدق الله العظيم في قوله "ليس علينا في الأميين سبيل " .

سأل متعجبا كأنما فوجئ به يحضر في الصباح الباكر ، وما هكذا يحضر الفلاحون إلى ســادتهم ، لكنه كان يعلم بهروب بهانه من شقة الدقي ليلا ، وهذا معناه أن ابنه ربما يكون قد تصرف معـها مثلما هي عادته مع الخادمات ، وأكد ذلك وجود بهانه ببكائها الذي لا ينقطع ، ووقوف أبيـها ذليلا أمامه :

• " من ..؟ عبد الجليل .!! ما الذي جاء بك ، لمن تركت الأرض ؟ "

وسارع عبد الجليل إليه مستغيثا :

• " بنتي يا سعادة البيه ، بنتي .. أبوس على إيدك انت والبيه الصغير تستروا عليَّ وعلى بنتي .."

وتعجب عبد المنعم متسائلا :

• " وإيه دخل البيه الصغير في الموضوع ..؟"

وفغر عبد الجليل فاه بدهشة :

• " إيـــه !! مش هو برضه اللي أعطاها اللبان اليهودي ده ، وعمل عملته .."

فسارع عبد المنعم متهما الفتاة بالسرقة :

• " يالله يا راجل انت وبنتك الحرامية دي ، كويس إن إحنا ما سلمناهاش للبوليس .."

ونزلت ميشو هانم بغطرستها المعتادة ، ولكنها أثقلتها حبتين ، ثم طالعت الفتاة وأبيها بازدراء واضح ، ووجهت لها اتهاما خطيرا ، قلب كل الموازين ، وأصبح الرجل وابنته متهمين بدلا من أنهما كانا ضحايا وأصحاب حقوق :

• " وديتيها فين يا بنت ال.."

وتساءل الرجل بعفوية مطلقة :

• " هي إيه يا ست هانم ..؟"

وقالت السيدة وقد تنازلت عن بعض غطرستها :

• " الإسوارة الألماظ اللي كانت على الشيفونيرة .."

وجحد الرجل ابنته المقهورة من الاتهام المزيَّف ، ولم يسألها ، فقد كان من الواضح أن السيدة تريد أن تحول جريمة اغتصاب ابنهما لابنته إلى تهمة سرقة ، فنظر إلى السيدة ميشو وقد تطاير الشرر من عينيه :

• " انتو بتتكلموا عن سرقة إسوارة ألماظ ، وأنا بأكلمكم عن سرقة شرفي وشرف بنتي ، وانتو اعملوا اللي انتم عايزينه في تهمتكم ، لكن أنا بقى اللي اتسرق مني أغلى بكثير من ألماظكم وذهبكم ، وحياة ربنا المعبود ، ما حدّ منكم يحطّ رجله في الكفر إلا أما أكون قاطعها له ، أنا أو حد من رجالتنا في الكفر ، ويا أنا يا انتم يا بتوع الألماظ انتم .."

وهم أن يخرج ، لكن عبد المنعم بك أمر السفرجية والبواب بمنعه ، فاستل الرجل سكينا كبيرا كان قد أحضره لمثل هذه المواقف ، ونظر إليهم وقال :

• " عيب على شنباتكم لما يبقى البك ومراته يخلو‌كم ...، خضرة وتاواها التراب ، وبنتي برضه حيتاويها التراب ، بس قبل ما يتاويها حيتاوي المحروس ابن الأكابر ، ويمكن كام واحد منكم كده على الماشي .."

ولم يجدوا بدا من تركه ، لكن عبد المنعم بك شعر بضرورة اتخاذ إجراء فعال ، فربما ينفذ هـــذا المجنون تهديده ، ويذهب ابنه وحيده ضحية تهوره ، فناداه بلطف ، بينما طلبت ميشو هانم المستر لبيب تليفونيا ، وبدأت مفاوضاتهم مع الرجل ، وكعادته بدأ لبيب المحامي استجوابه للرجل وابنته :

- " الأول نثبت إن بنتك بريئة من السرقة ، وبعدين نشوف حكاية اللبان اليهودي اللي بتقــول عليها دي "

وأقسمت الفتاة بأغلظ الأيمانات أنها لم ترى ، ولم تعلم ، ولم تأخذ هذا الذي يقولونه ، فقال المتر لبيب بخبث من يريد أن يأخذ من الفتاة اعترافا بأن الأمر كان برضاها :

- " يمكن يكون البيه الصغير أعطاها لك ، يعني كده ما تبقاش سرقة ، ولكن تبقى هديـــة ، وفي الحالة دي الهانم مش حترضى تأخذها منك لأنها هدية من ابنها ليكي .."

لكن الفتاة لم تتركه يكمل ، ثارت فيه وهي تؤكد على أن البيه أعطاها اللبان فقط ، وبعدهـــا لم تشعر بشيء إلا وهي على هذه الحالة ، فخرجت مهرولة إلى دارهم تعرض الأمـــر علـــى أهلـــها ليتصرفوا ، وقالت بصوت عال موجهة كلامها لأبيها :

- " ما هي غلطتكم يا با ، لما تبعتوا بنتكم عند ناس ما يعرفوش دين ولا شرف ، والأكـــادة إن مصيبة خضرة لسة ما بردتش ، قال إيه ؟ ابن الأصول متربي ، أهو طلع مش متربي ، ومعندوش أخلاق ، وحرامي كمان .."

وحاول المتر لبيب أن يجعلها تصمت ، لكن الفتاة وكأنما ذل الشهور الثلاثة التي خدمت فيـــها عندهم ، وبعض صنوف العذاب والحرمان ، أثارت حفيظتها ، فأرادت أن تعطي درسا لأبيها فـــلا يزج بها في هذا الجحيم مرة أخرى ، وينصح كل من يحاولون معه لتشغيل ابنتهم خادمة عندهـــم . وأخيرا أمرها أبوها ببعض الغلظة أن تكف عن هذا الحديث ، ثم سأل بهدوء ، فالرجل نال قســطا من التعليم في كتاب القرية ، ذلك المكان الذي كانوا يتعلمون فيه القراءة والكتابة ، مع تعلمـــهم حفظ القرآن ، ولو كانت الحكومة أبقت على الكتاتيب ، لربما كان الآن شيخ مسجد ، أو شـــئ من هذا القبيل ، لكنه لم ينقطع عن حفظ القرآن والمداومة على قراءته ، لدرجة أنه كـــان أحـــد القلائل في الكفر ، الذي يلجئون إليه في الكثير من شؤونهم ، أما لماذا قبل بأن تعمل ابنته عند عبد المنعم بك خادمة ، فلأن الظروف الأخيرة لم تكن مواتية ، فالأسعار في ارتفاع جنـــوني ، وعمـــل

الرجل وأبنائه لا يغني ولا يشبع من جوع ، وبالجنيهات القليلة التي كان عبد المنعم بك يرسلها لـه شهريا ، وبتحمله لمأكلها ومشربها وملابسها ، مما يخفف عنه المعاناة ، كانت الحياة تسير بهـــم إلى مايستر العورة ، ويكفي المعدة ، ولو علم الرجل أن ما يدفعه عبد المنعم بك ، لا يساوي ربع مـــا يدفع لأي خادمة ، ربما ما كان ليفكر إلا أن تعمل عنده ، وذلك للوعود التي قطعتـــها ميشـــو مؤكدة أنها ستعاملها كابنتها .

واستغاثت الفتاة بالسائق الذي أوصلها إلى شقة الدقي بعد ظهر الأمس ، وأدلى السائق بشـهادته ، التي تؤكد لهم أنه قام بتوصيلها إلى شقة الدقي بناء على تعليمات الست ، ولم تعد من هنـــاك ، والأسوارة سرقت صباح ذلك اليوم ، لأن ميشو هانم كانت تتباهى بها أمام سلفتها ، زوجة السفير ، وهذا لا يمكن إنكاره ، ذلك أن عبد المنعم بك بالرغم من كل ما قد يكون فيــه مـــن أخطـــاء وعيوب ، إلا أن له وقفات في بعض الأحيان تحسب له رجولة وشـــهامة وحقـــا ، أو ربمـــا لأن تصرفات المباهاة بها أمام زوجة أخيه السفير ، أثار حفيظة أخيه فوبخه في غير وجود زوجتيهما على تصرف زوجته الغير لائق ، فأراد أن يرد اعتباره واعتبار أخيه ، فراجعها في محاولتها إنكار وجـــود الأسوارة بالمترل حتى صباح ذلك اليوم ، وربما لكي يثبت لعبد الجليل والد الفتاة أنه رجل حـــق ، ولن يضيع حق ابنته حتى ولو كان عند أغلى الناس عنده وهو ابنه ، وفعلا كان لهـــذه الشـــهادة وقعها عند عبد الجليل ، فإذا كان الحق قد ظهر بالنسبة لسرقة الأسوارة ، فلابد وأنه مستوف حقه بالنسبة لشرفه وشرف ابنته الذي سرق ، وما دامت الفتاة لم تكن موجـــودة عندمـــا ســـرقت الأسوارة ، فمن تراه السارق ؟ لكن عبد الجليل لا يهمه الإسورة ، ومن هو سارقها ، بقدر مـــا يهمه شرفه المسلوب ، فأرعد بصوته الجهوري ، وكأنما ليعلن على الملأ براءة ابنته من الســـرقة ، ومن ثم صدقها فيما حدث لها :

- " يعني بنتي ما لهاش دعوة بسرقة الأسورة ، يبقى أنا بقى حشوفكم تعملوا إيه في سرقة شرفها ، ومش متهيأ لي إن شرفها حيكون أرخص من الأسورة بتاعتكم دي ، عندي أنا على الأقل .."

وأخذ يقسم بالأيمانات المغلظة ، أنه لن يسكت على ذلك ، وأنه لا بد وأن ينتقم من الفاعل حتى ولو كان مين يعني ؟ والجميع يحاولون تهدئته ، والمتر لبيب أفهمه بأن تهديداته هذه ليست في صالحه ، إذ أنه لو حدث أي ضرر لأي فرد من هذه العائلة ، سوف تؤخذ عليه هذه التهديدات ، فسارعه الرجل متسائلا بعفوية مطلقة :

• " دلني على الحل يا خويا ، وأنا وراءك ، يعني تفتكر إن آني مش عايز الحل .."

عرضوا عليه الكثير من الحلول ، منها أن يأخذ قرشين ، أو أن يتم تسجيل فدانين باسمه أو باسم ابنته ، وأخذت الفدادين في الزيادة حتى وصلت خمسة ، يعني ما سبق للإصلاح الزراعي أن اقتطعها له من أرض عائلة السلحدار ، واستولى عليها عبد المنعم بك بما حاكه له المتر لبيب من طرق ملتوية ، مع وعد بإعادة ابنته صاغ سليم ، ولما تساءل الرجل عن كيفية تحقيق هذه المعجزة ، فما زالت تتردد تلك العبارات حول شرف البنت ، وأنه لا يمكن إعادته مرة أخرى كما هو عود الثقاب الذي لا يشتعل سوى مرة واحدة ، لكنهم أوضحوا له أن الطب الآن يستطيع أن يفعل المعجزات ، فاشترط الرجل أن تقوم بالعملية طبيبة وليس طبيبا ، ووافقوه في الحال ، فقد بدأت بوادر الحل ، لكن بقي سؤال مهم ، طرحه الرجل فأحدث دوامة من التفكير خيَّم على الجميع خلالها الصمت ، حتى المتر لبيب الذي لم ينقطع عن الكلام منذ أن حضر ، ولأول مرة يصيبه البكم ، ربما ليعصر فكره في إجابة على سؤال عبد الجليل :

• " ومين ده الأهبل اللي حنلزقها له .. وما يحسش إنها إتعمل ليها العملية اللي بتقولوا عليها دي ، دي تبقى معجزة من السماء ؟"

وأخذت الأفكار تضرب أخماسا في أسداس ، وكلما لاح لأحدهم فكرة أو حلا ، سفهه الرجل ، فهو أدرى الناس بطباع وأخلاق وسلوكيات أهل قريته ، فليلة الدخلة عندهم لها طقوس متعارف عليها ، ولا يمكن لأحد أن يهملها ما لم تكن هناك علة ، ولكي يتم طبخ الموضوع بدقة ، فلابد وأن تسمع الصرخة التي تطلقها العروس وسط التصفيق والغناء بصوت عال وأصوات الدفوف التي تصم الآذان ، لحظتها فقط يتثبت الجميع من أن الفتاة كانت عذراء ، فتتوقف الضجة وينتظر الجميع قطعة القماش الأبيض التي يخرجها العريس ملطخة بدم العذرية ، وفي بعض الأحيان لا يترك للعريس القيام بهذه المهمة ، بل تقوم بها نساء متخصصات ، فيزلن غشاء البكارة ، ويستقبلن الدم على قطعة القماش الأبيض ، وتخرج السيدة لتزف البشرى للجميع ، ولحظتها فقط يرفع أهل العروس رأسهم عاليا ، وتغني السيدات الأغنية الشهيرة التي تقول " يا حلوة يا بلحة يا مقمعة ، شرفتي اخواتك الأربعة" ولا ندري من الذي ألف هذه الأغنية ، ولا من هم اخوة العروس الأربعة ، ولكنها التقاليد . وأخيرا لاحت للمتر لبيب فكرة استقاها من أقوال عبد الجليل ، العريس لابد وأن يكون أهبلا ، تاهت ولقيناها ، لقد سمع عن شاب موجود في الكفر وغير

معروف له أهل ، مصاب ببعض الكآبة التي تجعله دائما مبتعدا عن الناس ، وفي بعض الأحيان تأتيه حالة ، يتصور أن من يحادثه ينظر إليه باستغراب ، فيثور في وجهه ويتهجم عليه ، حتى أصبح الكل يخشاه بالرغم من محاولتهم الاستهزاء به ، وقام عبد الجليل وبعض من حكماء القريـــة بحمايتـــه ، وتوسطوا له عند عبد المنعم بك ليشغله عنده ، واقترح عبد الجليل له العمل في الزريبة ليبعده عـن الناس ، ووجد الشاب أن عشرته للبهائم أفضل كثيرا من عشرته للبشر . لكن الفتاة صرخـــت تنعى حظها :

• " عايز يا با تجوزني للواد الأهبل ده ..أنا عملت فيك إيه تبهدلني كده ..؟"

لكن الرجل طمأنها ، إنها ستتزوجه كام ليلة ريثما تزف البشرى أمام الجميع بأنها كانت عـذراء ، ثم يتم تطليقها منه بدعوى أنه أهبل ولا يصلح للزواج ، لكن هذا أوجد مشكلة أخرى ، فلا بـد وأن تتولى السيدة المتخصصة أمر ليلة الدخلة ، حتى يتم إثبات عذريتها أمام الجميـــع ، وعندمـا يدّعون عدم قدرة الزوج على ممارسة الحياة الزوجية مع الفتاة ، يكون الأمر مقبولا ، والســـيدة المتخصصة تستعمل إصبعها ، ولا بد وأن ينزل الدم أمام عينيها ، وإلا كانت فضيحة بجلاجـــل ، وحاول المتر لبيب والسيد عبد المنعم أن يقنعا الرجل بأن الطب الذي يستطيع إعـــادة الأمـــر إلى أصله ، لا يمكن إلا وأن لديه حل لهذه المشكلة ، وحتى يغري عبد الجليل بالموافقة وعـــد بكتابـــة فدادين أرض باسم بهانه كذلك . لكن عبد الجليل رفض الموافقة إلا بعد أن يكون كل شئ قـــد تم بصفة رسمية ، فاتفقوا على أن يذهب المتر لبيب معهم إلى الشهر العقاري لتسجيل الفدادين باســم بهانه والخمسة باسم عبد الجليل ، ثم الذهاب إلى الشاب الأهبل لتزويجه منها .

كانت الأوليات تحتم ذهابهم أولا إلى الطبيبة التي ستتولى إعادة العذرية إلى الفتاة ، ولقد كـــان للمتر لبيب في هذا المجال صولاته وجولاته ، فلا توجد مشكلة من هذا القبيل ليس لها حلٌ عنده ، قام سريعا بمراجعة مفكرته ، وتوقف عند أحد الأسماء ، وطلبه من المحمول الذي يلازمه كظله ، إذ أن كثيرا ما يطلبه المكتب أو الأصدقاء والمعارف وسماسرة القضايا ، ومع كل رنة هـــاتف ، رزق جديد ، وهو قنوع ، فأيّاً كان الرزق فإنه لا يمانع ، جنحة جناية مش عاتق ، حتى ولو كانت خناقة سالت فيها بعض الدماء ، فيتوسط هو ليشعللها ، فتنقلب بقدرة قادر من محضر صلح إلى جنايـة ، كل هذا من أجل الأتعاب ، ولا يمنع أن يكون الحق واضحا ، فيقلبه إلى باطل ، ويسوف ويؤجل ، ومع التسويف والتأجيل تزيد الأتعاب ، ولا يمنع من أن يكون التسويف والتأجيل في صالح الخصم

، فيقبض من الخصم أيضا . سأله ببساطة من يطلب منه تحديد عنوان صديق أو مكان يقضي بـــه السهرة ، وليثبت أمام عبد المنعم بك أنه ضليع في كل شئ :

• " تعرفش دكتورة أمراض نساء متخصصة في المسائل إياها .. قصدي إعادة الشيء إلى أصله .. يعني ..؟"

وقام على الفور بتسجيل رقم ، سارع بالاتصال به وحدد موعدا للذهاب ، كان الموعد بعد ساعة ، وأراد المتر لبيب الذي أقلقته ميشو هانم بتليفونها المبكر ، أن يفطر ، ومـــادام الإفطـــار علـــى حساب عبد المنعم بك فلابد وأن يكون في فندق خمس نجوم ، فأقنع عبد المنعم بك بأن عزومتـــهم على الإفطار في فندق خمس نجوم سوف تبهرهم ، وسيكون لها أثرها الفعال في الموافقة على كـــل شئ ، وردد المثل الذي يقول " أطعم المعدة تستحي العين " ووافقه عبد المنعم بك ، وأمر الســـائق بالتوجه إلى فندق حدده له ، وتولى المحامي طمأنة عبد الجليل وابنته ، أن موعد الطبيبة بعد ساعة ، ولن يقضوا هذه الساعة في الشارع ، ثم أنهم لم يتناولوا إفطارهم بعد ، وبذلك يكون الإفطار أثنـاء الانتظار شئ مقبول .

وصدق حدس المتر لبيب ، فقد انبهرت أعين الرجل أمام أصناف الطعام الـــتي رصـــت علـــى الطاولات ، والكل يتناول ما يريد منها ويضعه في طبقه ، ولما كانت هذه تجربة جديدة عليه ، فقد وكز الرجل ابنته لكي تفعل كما يفعل هو ، لكن ابنته التي عاشرت الكبراء ، وعلى علم بكل مـــا يفعلونه في مثل هذه المناسبات ، إذ أن ميشو هانم لا يخلو أسبوع دون مناسبة ، ولا تخلو مناســـبة دون طعام ، وكثيرا ما يتم وضع الطعام بنفس الطريقة التي وضعت بها في الفندق ، وهي تراهم عن بعد ، وتسأل السفرجية ، ويجيبونها ، كما أنهم علّموها كيف تأكل مثل الذوات ، فقالت الفتـــاة لأبيها وكأنما تبين له أن الفترة التي قضتها بفيلا ميشو هانم لم تكن هباء :

• "بل افعل أنت كما أفعل أنا .. ولا تخطئ حتى لا يضحك علينا الأغراب .."

وكاد الرجل أن يطلق ضحكة من ضحكاته المدوية ، ولكن ابنته تشبثت حتى تمنعه من ذلـــك ، حيث أنه لو أطلقها لاهتزت لها أركان الفندق كله ، فقال لها بصوت خفيض ، مثلا كثيرا ما يردده أهل قريته إذا كان الابن أو الابنه من المثقفين الذين يريدون لأهلهم التمدن وفقا لمدنيـــة القـــرن العشرين :

• "أيوه ما هي المعزة ، بتعلم أبوها الرعية .."

فأرادت الفتاة أن تصحح المثل لأبيها ، فقالت له أن المثل يقول أمها ، فزجرها الرجل بلطف :

• " مش عيب يبقى الشنب ده كله على حرمة ..؟"

فاعتذرت الفتاة لأبيها وساد الابتسام بينهما ، فغمز المحامي إلى عبد المنعم بك ، مشيرا إلى السعادة التي يعيشها الرجل وابنته بتواجدهم في هذا المكان ، وأمام هذه الموائد التي لم يروا مثلها في حياتهم ، فنظر إليه عبد المنعم بك نظرة المعاتب ، مشيرا إلى أن الفتاة رأت ما هو أفخم كثيرا من هذا الغث ، أما الرجل فربما ، ثم عاتب المحامي أنه يستكثر على هؤلاء الناس ابتسامتهم ، ثم استدرك سريعا ، فقد نسى أنه لا يسعده إلا الهموم والغموم والتزاعات والقضايا ، فالابتسام عنده لا يؤكل المحامين خبزا .

امتلأت المعدات ، وجلس الرجل يطلق الصيحات المهللة بذلك ، فوكزته ابنته ليقلل من صوته المرتفع ، وأشارت إلى الفوطة ليضعها على فمه أثناء ذلك ، فامتثل الرجل سريعا ، فقد اكتشف أنه هو الوحيد الذي يتلذذ بذلك الصوت ، وحان موعد الطبيبة ، فرشف الجميع آخر ما تبقى في فنجان الشاي ، بينما أصدر عبد الجليل الصوت المزعج الذي نبهته ابنته أن لا يطلقه أثناء رشفه للشاي ، لكنها كانت الأخيرة فلم تعلق الفتاة .

كل ما تذكره الفتاة عن عيادات الأطباء ، هو ذلك المكان الذي يذهبون إليه في كفر السلحدار ، والذي يطلقون عليه الوحدة الصحية ، والحقيقة أنها وحدة في كل شئ ، فقد اتحد العاملون فيها على امتصاص دم المرضى ، والإهمال في النظافة متفش ، ولو رزقهم الله بأحد الأطباء من ذوي الضمير ، أخرجوه من الوحدة من ذوي السوابق ، لم يسبق لها أن رأت عيادة بهذه النظافة ، وذلك النظام ، ما أن ذكر اسم المتر لبيب ، حتى نهضت الممرضة إليه مرحبة ، فنظر إلى الفتاة ، فأخذتها برفق إلى غرفة الحقن والتحاليل ، وأخذت منها عينة دم ، وأرشدتها إلى أماكن باقي العينات ، وقامت طبيبة التحاليل بالانتهاء من عملها في سرعة البرق ، وأظهرت النتائج أنها لا تعاني إلا من البلهارسيا ، وتعجب عبد المنعم بك ، إنهم لا يستخدمون خادمة ما لم يتم إجراء التحاليل والكشف الطبي عليها ، فلو أنها تحمل أمراضا ربما تنتقل إليهم ، والوقاية خير من العلاج ، كيف غاب عنهم مسألة البلهارسيا هذه ، وتطوع الرجل بشهامة من يريد أن يثبت لعبد الجليل مدى اهتمامه بهم ، فطلب من الطبيبة كتابة العلاج الخاص بالبلهارسيا ، ثم اصطحبت الممرضة الفتاة إلى غرفة

العمليات ، فقامت طبيبة أخرى بتخديرها ، ولم يستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة ، خرجت بعدها الفتاة وهي مازالت تحت تأثير البنج ، ووضعت في غرفة الإنعاش حتى تفيق ، وأثناء ذلك كان عبد المنعم بك والمتر لبيب يتوليان المحاسبة ، ولم يكن يدور بخلد عبد المنعم الرقم الذي طلب منه ، وهو لم يكن مستعدا لذلك ، وكانت الفرصة الذهبية للمحامي ، فقد سجل اسمه باعتبار أن القادم أحد عملائه ، وعلى هذا فهو يستحق عمولته ، ومادام عبد المنعم بك لا يملك سيولة نقدية تكفي ، فلا بد وأن يحرر شيكا ، وآه لو كان دفتر الشيكات معه ، أو حتى في البيت ، لكن المهم أن لا يكتب الشيك باسم الطبيبة ، فأفهمه أولا أن الطبيبة لا تقبل الشيكات لأسباب كثيرة أهمها الضرائب ، ولا بد وأن يذهب أحد لصرف الشيك من البنك ، وسيتطوع هو للذهاب بالشيك إلى البنك لصرفه ، فمن غير المعقول أن يذهب عبد المنعم بك بنفسه ، وبذلك يمكنه خصم عمولته عند المنبع ، وهذا أفضل من المساومة عندما يذهب لتحصيلها ، فقد حددها بعشرين بالمائة ، شاءت الطبيبة أم أبت ، لكن عبد المنعم خيب رجاءه ، ونادى على السائق فأسرع المتر لبيب ينبهه إلى كبر المبلغ ، مما قد يغري السائق بسرقته ، وتطوع بشهامة أن يتولى هو ذلك ، ومع اعتذارات عبد المنعم بك له أن يقوم بمثل هذا العمل البسيط ، وشكره على تواضعه للقيام به ، أخذ المتر لبيب الشيك المحرر باسمه ، وسارع إلى البنك ليصرفه ، وقلبه يكاد يطير من الفرح ، فقد كانت هذه العملية خاسرة ، لولا هذا الشيك الذي رفع معنوياته ، وجعله يتصرف في الموضوع بحماس شديد ، فقد كان محرجا من المطالبة بأتعاب عن حل هذه المشكلة باعتبار الصداقة التي تجمعه بعبد المنعم بك ، ولأنه زبونه الذي يكسب منه الآلاف ، لكن إذا لاحت في الأفق فرصة ليسترزق منها ، فماذا يمنع ، رفض النعمة بطر ، وهو لا يتبطر على أي نعمة تأتيه ، ثم أن الطبيبة ستحصل على كامل المبلغ ، أخذ لبيب منه عمولته أو لم يأخذها ، وهذا يعني أنه لا يأخذ شيئا من عبد المنعم ، وإنما هو يحصل على حقه من الطبيبة ، أو مش حقه ، غير مهم .

سارع يتصل بمكتبه لتوزيع القضايا على زملائه المحامين ليطلبوا فيها التأجيل أو يقدموا المذكرات ، وجلس هانئ البال في انتظار استفاقة بهانه من البنج ، لكن الطبيبة أفهمتهم بضرورة عرضها عليها في اليوم التالي ، فهل يرغبون في بقائها تحت الملاحظة بالعيادة ، أم أنهم يفضلون حضورها في اليوم التالي ، وسارع المتر لبيب بالإجابة ، بأنهم يفضلون الحل الثاني ، وهمس في أذن عبد المنعم بك ، بأنه ألا يكفي ما أخذوه ، حتى يثبت له أنه الحريص على أمواله ، لكن الطبيبة طلبت حضور والدتها أيضا ، فهناك أمور لا بد من تنفيذها ليلة الدخلة ، وكذلك ، فإنه من الأفضل عدم

الإسراع في الزواج ، لابد من مرور عدة أسابيع ريثما يلتئم الجرح ، وعلى كل فـــلا بـــد مـــن حضورها مرة أخرى بعد أسبوعين . لكن عبد الجليل تململ ، فاصطحبهم المتر لبيب ســـــريعا إلى الخارج ، بينما خرجت بمانه على كرسي متحرك ، وساعدوها حتى ركبت السيارة ، وانطلقت بهم السيارة إلى فيلا عبد المنعم بك ، وأمر عبد المنعم بك بتجهيز غرفة من غرف أهل المنزل لمبيت عبد الجليل وابنته فيها ، ونظرت إليه ميشو هانم موبخة ، لكنه أفهمها بضرورة معاملة عبد الجليل معاملة ممتازة ، وأهمها أن يبيت كما يبيتون هم ، حتى لا يظن بأن في نيتهم أي تلاعب ، فاشترطت زوجته أن يتم تنظيفهم جيدا قبل مبيتهم في هذه الغرفة ، وكذلك لابد من إغراقها بـــالمبيدات الحشــــرية الزاحفة والنطاطة والمعشة في رؤوسهم ، وكذلك لابد من ارتدائهم لملابس نظيفة ، وهنا تطـــوع المتر لبيب بأن يشتري لهم هذه الملابس على حسابه ، وأسرع بسيارة عبد المنعم بـــك وســـائقه ، واشترى للفتاة ولأبيها مجموعة من الملابس الداخلية والخارجية ، للبيت وللخروج ، أشياء علـــى ذوقه ، والحقيقة أنه لم يبخل عليهم بشيء ، فكله من خيرهم ، ولولاهم لما حصل على ما حصـــل عليه صباح ذلك اليوم ، الذي كله سعد ، إفطار في فندق خمس نجوم ، ومبلغ يحمل ثلاثة أصفار ، والأهم من هذا كله ، ازدياد ثقة عبد المنعم بك فيه لما لمسه من إخلاص وحرص على مصالحه .

كان لابد لزوجة عبد الجليل أن تحضر ، فالطبيبة طلبت ضرورة ذلك لترتب معها ما تفعله لابنتها ليلة الدخلة ، حتى يبدو كل شئ طبيعيا ، وكان لابد من أن يتم ذلك دون إثارة الشكوك عند أهل الكفر ، وإلا يضيع كل ما فعلوه ، فتساءل المتر لبيب عن موعد وصول بمانه للكفر ، ولما تأكد من أنها وصلت ليلا ولم يرها أحد ، وكذلك خرجت مع أبيها مع الخيـــوط الأولى للصبـــاح دون أن يراهما أحد ، أظهر المتر لبيب سعادته بذلك ، وطلب من عبد الجليل الاتصال بزوجته على تليفون فيلا عبد المنعم بالكفر ، ويفهمها بما حدث بشيء من الإيجاز ، ولقنه ما يقوله لها حرفيا ، حتى يعلم أهل الكفر أن عبد الجليل سافر سريعا إلى القاهرة لمرض ألم بابنته ، ولابد لها أن تلحق بهما ، حـــتى إذا عادوا بالفتاة متعبة نتيجة العملية ، يكون الأمر طبيعيا ، وليطلب عبد الجليل مـــن زوجتـــه الحضور في اليوم التالي ، وعبد المنعم بك سيرسل إليها السائق ليحضرها ، ونظر إلى عبد المنعم بك ، وهمس في أذنه بما يفيد أنهم ليسوا على استعداد لاستضافة أهل بمانه كلهم .

وتم كل شئ كما خطط المتر لبيب ، واستعدوا للسفر إلى الكفر بعد زيارتهم للطبيبة كما طلبت ، فجهز المتر لبيب أوراق تسجيل الأرض ، ووزع القضايا على زملائه المحامين ، وسافروا جميعا هـــو

وعبد المنعم بك وبمانه وأبوها وأمها إلى الكفر ، حشر عبد المنعم بك والمتر لبيب بجانب السـائق ، بينما تمتع عبد الجليل وزوجته وبمانه بالكنبة الخلفية للسيارة ، لكن كله يـــهون في ســـبيل ســـتر الفتـــاة وأهلها ، وإنقاذ ابنه من تصرف طائش قد يقدم عليه عبد الجليل أو أي من أبنائه . وأكـبر أهل الكفر ما قام به عبد المنعم بك مع بمانه واهتمامه بها في مرضها ، وأشاع عبد الجليل وزوجتـه أن علاجها كان عند أحسن دكاترة ، وأنه أنزله في الفيلا وبات في الغرفة التي تجاوره مباشرة ، أي اهتمام هذا ، انه رجل ولا كل الرجالة ، وازدادت شعبية عبد المنعم بك ، وسعادة أهل الكفر به ، وكانت هذه بادرة جيدة ، استغلها المتر لبيب ليشيد بها أمام عبد المنعم .

في صباح اليوم التالي ، ذهب عبد المنعم والمتر لبيب وعبد الجليل وابنته إلى الشهر العقـــاري في البندر ، وتمت إجراءات تسجيل الأرض باسم بمانه وأبيها ، وبذلك يكون الشطر الأول والثاني من الاتفاق قد تما ، وأراد المتر لبيب أن ينهي الأمر عند هذا الحد ، فمادامت الطبيبة طمأنتهم أن الفتاة عادت عذراء كما كانت ، وأنها شرحت لوالدة الفتاة ترتيبات ليلة الدخلة ، فإن في اســـتطاعتهم تزويجها لمن ترغب الفتاة الزواج منه ، لكن الفتاة التي مازالت تخشى الفضيحة ، لم تتنـــازل عـــن زواجها من أهبل زريبة عبد المنعم بك ، وأيدها أبوها في ذلك ، وقال عبد المنعم بك بشيء مـــن الاعتزاز بكرامته :

- "لا يا متر .. الاتفاق اتفاق ، وإحنا وعدنا ، ولازم نوفي .."

ورضخ المتر لبيب لتعليمات عبد المنعم بك ، ثم حدث نفسه بصوت عال حتى يسمعه عبد الجليل ، وكذلك عبد المنعم بك فيفهم أن الأمر يحتاج إلى تدبير وإعمال فكر :

- " وأهو قدامنا كام أسبوع زي الدكتورة ما قالت ، نستطيع أن ندبر الأمر مع ... "

ولما كان لا يعرف اسمه ، فقد تساءل :

- " هو اسمه إيه ..؟"

واكتشف أنه لا يوجد بالكفر من يعرف له اسما ، فمط شفتيه ، بينما ضرب عبد الجليـــل كفـــا بكف ، وتساءل عن أسباب تغيير الاتفاق ، وذكر أن الطبيبة قالت أن تؤجل الدخلة كام أسبوع ، لكن العقد لابد وأن يعقد قبل سفر البيك من الكفر ، وأسقط في يد المتر لبيب ، ونظر إلى عبـــد المنعم بك ، وحدث نفسه بصوت مسموع أيضا :

• " طب قولولي ازاى ..؟ حنروح على واحد كده من الباب للطاق ونقول له إحنا حنجوزك بمانه ، دي حتى تبقى عيبه في حقك يا عبد الجليل ، والناس تشك ، وحيفتكروا إن البت فيها علة ، ويبقى اللي إحنا حاولنا نخبيه ينكشف .."

وهنا تطاول عبد الجليل على المحامي ، وكاد أن يتطاول على عبد المنعم بك ، لكن عبد المنعم هدأه ، وقال بشيء من الخبث الذي لا يخلو من الحكمة :

• " المتر لبيب بس بيهزر معاك يا عبد الجليل ، لكن هو دلوقتي يشغل مخه ، ويخرج لنا بحل أبالسة من حلوله اللي هي .."

ونظر إلى المتر لبيب وقال :

• " إحنا عطلناك معانا كثير ، بس كله بحسابه يا متر .."

وهذا ما كان يريده المتر لبيب ، فقد قام لتوه بإجراءات تسجيل عقدين ، وكل عقد عليه مبلغ وقدره ، كما أن هذا النطع عبد الجليل ، لابد وأن يفرك جيبه حبتين ، سبعة أفدنه لهفهم كده ببلاش ، يعني حسبة مائة ألف جنيه وأكثر ، ويخرج لبيب من المولد بلا حمص ، هذا كثير جدا ، هل سيهرب هذا الفلاح بهذه الهبشة ، دون أن يأخذ منه شيئا ، هذا أمر لن يكون أبدا ، ويصبح عيبا كبيرا في حقه ، هرش رأسه قليلا ، ثم قال :

• " اسمع يا عبد الجليل ، أنا قمت بتوثيق عقدين لك ولابنتك ، قيمتهما لا تقل عن مائة ألف جنيه ، لأن الفدان ثمنه لا يقل عن خمسة عشر ألفا ، وعمولتي منك على هذين العقدين مش حقول عشرة بالمائة ، كفاية خمسة بالمائة ، يبقى أنا عايز خمسة آلاف جنيه منك ، أما أتعابي مع عبد المنعم بك ، فدي طبعا دفعت مقدما ، واحنا برضك في الخدمة .."

هو يعلم أن عبد الجليل لن يدفع شيئا ، وأن عبد المنعم قد تأخذه النخوة ويتعهد بالدفع ، فأراد أن يضرب ويلاقي في نفس الوقت ، ولذلك اكتفى بمطالبة عبد الجليل بالأتعاب ، وطبعا عبد المنعم بك سيقدر له أنه لم يطالبه بشيء ، وسيقدر له حرصه على مصالحه ، وصدق حدسه ، إذ أن عبد المنعم بك همس بصوت مسموع :

• " كفاية ألفين يا متر ، وضيفهم على الحساب، بتاعي هدية الفرح مني لبهانه .."

وسعد عبد الجليل بذلك ، قبل أن يبدي المتر لبيب شكره لعبد المنعم بك ، وخجله من كرمه ، وتمنعه المصحوب بطمعه ، وعبد المنعم يطيب خاطره ويمطره بمزيد من عبارات المديح ، على عبقريته ، كي يخرج لهم بفكرة توصلهم إلى هذا الأهبل الذي لا يعرفون له اسما ، هرش رأسه أكثر من مرة ، وكأنما هو يعصر فكره ، وحتى يحلل ما حدده له عبد المنعم كأتعاب ، ثم قال :

- " إذا عبد الجليل أشاع في البلد إن الواد العبيط ده واحد من بتوع ربنا ، وإنه مكشوف عنه الحجاب ، وإنه أخبره بأن ابنته عليها عفريت من غير ما يشوفها ، وأنه تطوع بمعالجتها لإخراج العفريت منها ، وبعدين البنت تعمل إنها دايبة في حب الأهبل ده ، وتدعي إن هو كمان بيحبها ، ويتزوجا .."

وهلل عبد المنعم بك بالفكرة ، بينما عبد الجليل مازال يحاول استيعابها ، وحتى يقطع المتر لبيب على عبد الجليل احتمال رفضه للفكرة ، وحتى يعود هو وعبد المنعم بك إلى القاهرة ، إذ يكفي ما عانياه لمدة يومين ، لم يكن لهما شاغل غير عبد الجليل وابنته وزوجته ، والفكرة التي قالها ، لو تمت كما خطط ، فهم ليسوا في حاجة لا لعبد المنعم بك ، ولا للمحامي ، فقال :

- " قدامك عشرة أيام تستطيع خلالها تنفيذ ما اتفقنا عليه ، يعني من دلوقتي ، تحاول تتقرب من الشاب الأهبل ده ، وتدخله بيتك ، وتجعله يرى بهانه ، وتتودد هي إليه ، حتى تجعله يطلبها منك ، بينما تعلل وجوده عندك بأنه يعالجها من العفريت اللي لبسها ، وكده الموضوع يبقى سليم ، وليك علينا يا عم إننا نشهد على العقد ، وعبد المنعم بك يتكفل بكل تكاليف الفرح ، والجهاز كمان .."

وأمن عبد المنعم بك على كلام المتر لبيب ، واقتنع عبد الجليل بذلك ، وعاد عبد الجليل وابنته بإحدى سيارات الأجرة ، بينما عاد عبد المنعم بك والمتر لبيب إلى القاهرة .

استغل عبد الجليل موسما كان قد حل موعده في نفس الأسبوع ، فأمر أهل بيته أن يرسلوا إلى الواد الأهبل طعاما مما أعدوه ، وما أعدوه لم يكن بالشيء القليل ، فقد تنازل عبد المنعم بك له عن الأرض التي خصه بها الإصلاح ، ولما عجز عن سداد حقوق الجمعية التعاونية ، شأنه في ذلك شأن الكثير من المزارعين الآخرين ، لوجود كثيرين من مسئولي هذه الجمعيات اللذين سلطهم الله على خلقه ليتوبوا ، فما تركوا للمزارع أخضرا ولا يابسا إلا جردوه منه ، لكن عبد المنعم بك كان في انتظار ذلك اليوم ، فاشترى من المعسرين ما اضطرتهم ظروفهم لبيعه ، وسجل العقود باسمه

واسم زوجته واسم ابنه ، ولم يترك الفلاحين بلا عمل ، فقد عقد معهم عقود مزارعة في غير الأراضي التي اشتراها منهم ، حتى لا يعيدوا النظر في تلك العقود التي لم تسجل في وقتها لحدود الملكية المحددة قانونا ، وكانت الأرض التي يزرعها عبد الجليل مساحة أكبر من الفدادين الخمسة التي باعها لعبد المنعم ، وهي ذاتها المساحة التي سجلها له ولابنته ثمنا لشرفه المسلوب ، ومنعا من الفضيحة ، ومن حسن الحظ ، أن الأرض كانت محملة بخيرها ، فباع عبد الجليل وقبض وصرف وأسرف ، لكن زوجته نبهته لهذا الإسراف ، فهم لا يريدون أن ينتبه أهل الكفر إليهم ، فأهل الكفر ليس لهم شاغل إلا مراقبة بعضهم البعض ، من اشترى ماذا ؟ ومن أكل ماذا ؟ ومن فعل ماذا ؟ حسدا أو حقدا أو مساءلة ، المهم أنهم لا يتركون بعضهم إلا بتجريح أو نميمة أو اتهام ، لكن ما أمر بإرساله إلى الولد الأهبل ، شئ هام جدا ، وإذا تساءل أهل الكفر ، فلديه الجواب ، أن الفتاة لبسها عفريت ، وعبد المنعم بك تنازل عن هذه الزراعة لعلاجها ، وقد سمع أن الواد الأهبل ده مكشوف عنه الحجاب ، فسيحضره لكي يرقي له ابنته .

وتم ما رسم له حرفيا ، أرسل إليه الطعام ، ثم ذهب لزيارته ، ثم دعاه لتناول الطعام عندهم ، فهم أهل ، والمسلمون اخوة ، ثم نبهه إلى ما ألم بابنته من آلام احتار الطب فيها ، فتطوع الأهبل برقيتها ، فمادام قد أكل ، لابد وأن يفعل شيئا ، وانتشر في الكفر أن الولد الأهبل يستطيع أن يرقي ، وهو من المبروكين ، وتدافعت عليه الوفود تطلب البركة ، والمقابل طعام أو قليل من النقود ، لكن كان عبد الجليل هو الأثير لديه ، فهو الذي فتح له هذا الباب ، وابنته لها الأولية على الجميع ، وتوددت الفتاة إليه وكأنما الأسياد هم الذين يحركونها ، واتفق على ضبطه يعانقها ، والحل الوحيد في هذه الحالة هو أن يتزوجها ، وأخطر عبد المنعم بك والمتر لبيب ، فحضرا فورا من القاهرة ليحلوا مشكلة هذا الشاب الذي اعتدى على حرمة عبد الجليل ، ولوث شرفه ، وحاصروا الشاب المسكين ، الذي لم يكن أمامه سوى الإذعان ، فطأطأ رأسه إلى الأرض ، وكلما أصدروا له أمرا هز رأسه موافقا ، لكنه فجأة رفع رأسه ونظر إلى عبد المنعم بك وقال بتهتهته المعهودة وكلماته غير المترابطة :

• " وأنـ..نـ..نـ..ا ...حعـ..حعـ..يـ..ش..فيـ..يـ..ن.. بـ...بـ...عـد ..يـ...."

وتداول عبد المنعم الأمر مع المتر لبيب ، وتدخل عبد الجليل رافضا فكرة أن تعيش ابنته في هـذا الجحر ، لابد وأن يكون لهما بيتا مناسبا ، فثار عبد المنعم بك قائلا :

- " جرى إيه يا عبد الجليل ، انت بقيت طماع قوي ، ما عندك يا أخي سبع فدادين بثمانية وعشرين ألف متر وزيادة ، ابني له يا أخي بيت في أرضك ، والا أرض بنتك ..؟"

لكن الشاب رفض هذا الاقتراح تماما ، وأخذ يشير برأسه إلى ناحية من العزبة ، وكلما حاولوا أن يستفهموا منه على ما يريد أن يقوله ، يهز رأسه بقوة إلى نفس الناحية ، وأخيرا وبصعوبة استطاعوا أن يفهموا من خلال الكلمات المتقطعة التي ينفحهم بها بين الحين والحين ، أنه يقصد ذلك البناء القديم المهجور غرب قصر عبد المنعم باشا .

وقال المتر لبيب :

- " ما يجراش حاجة يا عبد المنعم بك ، ما هو برضه واحد من رجالتك .."

وتمسك الشاب بهذه العبارة ، وطلب الانتقال فورا إلى البيت المهجور ، لم يفهموا ذلك إلا بصعوبة ، فقد أخذ يشد فيهم واحدا واحدا ، خارج الغرفة التي يسكنها ، والتي لا تفترق عن الزريبة التي يعمل بها ، ولولا أن الباب كان مفتوحا ، وعبد المنعم بك يقف خارجها ووجهه للهواء النقي لما استطاع البقاء لحظة ، وذهبوا جميعا إلى ذلك البيت المهجور ، بحثوا عن المفتاح ، لم يجدوه ولا أحد يعرف له مكانا ، فاتفق على معالجة الباب ليفتح ثم يتم إصلاحه ، وفعلا ، تم إحضار نجار تولى الأمر في دقائق ، ودخل الشاب البيت ، وأخذ يتفحصه وهو يطلق صيحات السعادة ، ويتلمس جدرانه بشيء من الفرح ، ثم نظر إلى الجدران وعبس وجهه ، وبطريقته التي لا تفهم إلا بصعوبة ، وببضع الحروف التي يخرجها ، استطاعوا أن يفهموا ما يريد ، فهو يريده أن ينظف ، ويزخرف ، ويؤثث ، ويجهز بالكهرباء مثل فيلا عبد المنعم بك ، وأشياء كثيرة ، رفضها عبد المنعم بك في البداية ، لكن عبد الجليل صمم ، فهذه من الاشتراطات ، الجهاز ومصاريف الفرح على حسابه ، ومن بين مصاريف الفرح إعداد بيت الزوجية ، بينما انزوى الشاب في ركن من البيت ، وكلما تزايد النقاش ، تزايد انكماشه ، مع أنات خوف وفزع تصدر منه ، تعلو وتخفت مع ارتفاع النقاش وخفوته ، ثم ترك البيت وانطلق خارجا ، لكن المتر لبيب أمسك به وأدخله عنوة هو وعبد الجليل ، وظل عبد الجليل يطيب في خاطره ، ويستسمحه ، حتى هدأ واستكان ، ثم نام ، فتركوه وخرجوا ، وقد تم الاتفاق على كل شئ ، ولم يبقى سوى تحديد موعد الزواج ، بعد تجهيز البيت .

ذهب عبد الجليل في الصباح الباكر إلى بيت عريس ابنته ، وجد الباب مفتوحا ، ولم يجد العريس ، وبدرت منه بعض صيحات الانزعاج ، أين ذهب هذا الأهبل ؟ ماذا سيفعل عبد الجليل لـــو لم يعد؟ ، وراودته فكرة خبيثة ، فبالفدانين التي تملكهما الفتاة ، وبهذا البيت الفخم ، يســـتطيع أن يزوجها سيد سيد هذا الأهبل ، لكن أحلامه لم تستمر طويلا ، فقد فوجئ بأحد الأفندية ، شـــيك جدا ، ولكن في ملابس العمل ، وعندما سأله عبد الجليل ، قال الشاب :

• " هو السلحدار بك ما قالش لك والا إيه ، أنا مهندس الديكور أمرني أعمل ديكـــور للفيـــلا بتاعة سعادته .."

فأشار له عبد الجليل على فيلا السلحدار بك ، لكن المهندس أقنعه بأنه قادم لهذه الفيلا ، وعبـــد الجليل يتعجب ، هذه الخرابة أسماها عبد المنعم بك فيلا كده على طول ، لكنها أيام معـــــدودة ، ظهرت بعدها الفيلا بأحسن ما تكون ، والحديقة حولها وارفة الظـــلال ، وأزهارهـــا متفتحـــة ، والخضرة في كل مكان ، وقد قام المهندس بأخذ خط كهرباء من فيلا عبد المنعم بك ، وتـــلألأت الفيلا ليلا كأنها عروس في زينتها ، وذهب أهل الكفر كلهم ليشاهدوا هذا الحدث الجديد ، لمـــن هذه ، ومن صاحبها ، أليس عبد المنعم بك هو صاحبها ، وما بال الفيلا القديمة المجاورة لها ، وعبد الجليل يحاول أن يخفي في نفسه سعادة تصل إلى حد الزهو والخيلاء ، أن هذه الفيلا ملك لابنتـــه وعريسها الشاب الأهبل ، وهنا فقط تذكر عبد الجليل تساؤله عن اختفاء الشاب الأهبل ، لقـــد عجز عن التفكير في محاولة معرفة المكان الذي يمكن أن يكون قد ذهب إليه ، فهو لا يعرف له أهلا ولا أصحابا ولا بلدا ، فانشغل بمتابعة أعمال الديكور التي يقوم بها المهندس وعماله ، حيث فوجئ بعد الانتهاء من الديكور بأثاث جديد فخم ، لا يجاريه حتى أثاث فيلا عبد المنعم بك ، والســـعادة تغمر الرجل ، كل هذا لابنته وعريسها ، إن عبد المنعم بك هذا رجل شهم فعلا ، لكن هل هـــذا يساوي شرفه الذي سلب ؟ وهل لو كان يعلم أن هذا سيحدث ، يوافق على أن يسلب شـــرفه ؟ هل المال أغلى من الشرف ..؟

فوجئ عبد الجليل بعبد المنعم بك يندفع داخلا الفيلا الجديدة ، وهو ثائر جدا :

• " سراية يا عبد الجليل .. سراية لبنتك وجوزها الأهبل ده على حسابي .."

وتلجلج عبد الجليل ، وأصابت صوته رعشة حالما سيطر عليها ، وهو يحاول أن يـــرد بثبـــات علـــى الرجل الذي باغته :

• " هو مش سعادتك اللي شيعت المهندس بتاع الدركور ، وهو اللي عمل كل حاجة .."

وانتابت عبد المنعم حالة من الهياج ، وهو يحاول أن يفهم كلمة دركور هذه ، وانفجر فيه :

• " أنا يا عبد الجليل حبعت مهندس ديكور علشان يعمل بيت بنتك وجوزها .. ليه .. بلاقـــي الفلوس .."

وحاول عبد الجليل أن يهدئ من الموقف :

• " هو اللي قال كده ، وأنا يعني كنت حاعرف منين ، هو قال إن السلحدار بك هو اللي شيعه ، ده حتى أنا حاولت أوصله للفيلا ، لكنه صمم على الدار دي .."

واحتدم النقاش ، وصدرت التهديدات بخصم هذه المبالغ على حساب عبد الجليل ، والمتر لبيـب يحاول تهدئة الأمور ، والوصول إلى حل وسط ، بين أن يتم تحمل التكاليف مناصفة بين عبد المنعـم بك وعبد الجليل ، أو أن يجهز عبد المنعم مكانا آخر مناسبا لزواج ابنة عبد الجليل ، بينما فكر عبد الجليل مشغول بغياب هذا الأهبل ، ويتمنى أن يظهر فورا ليساعده على تشدد عبد المنعم بـــك ، ويناصره عليه ، لكن أين هو الآن ؟ لقد اختفى فجأة كما ظهر فجأة ، ولم يستطع عبد الجليـــل أن يذكر اختفاءه ، فهذا معناه أن كل ما بناه يهدم ، لذلك آثر التكتم على اختفائه ، ريثما يتدبـو الأمر ، أو أن يعود إلى الظهور . ودق جرس الهاتف في فيلا عبد المنعم بالكفر ، وجاءه اســـتدعاء عاجل للرد على الهاتف ، وفجع الرجل في خبر وجود ابنه بالمستشفى بين الحياة والموت ، فـــترك كل شئ ، وهرول سريعا إلى السيارة ، آمرا السائق بالتوجه بأسرع ما يمكن إلى المستشفى الـــتي بهـــا ابنه ، عل وجوده يكون فيه خيرا عليه ، وبصعوبة لحقه المتر لبيب ، وهو يهون عليه المصـلب ، وربما تكون الدادة بفيلا القاهرة تهول من الأمر ، وان شاء الله خير ، والرجل يضغط على أسنانه بعصبية واضحة ، ويدعو الله أن يسلم ابنه ، وردد المتر لبيب والسائق الدعاء وراءه .

٥–جريمة

لم يكن الوالد والوالدة بالمنزل ، لذلك كانت هناك فرصة مناسبة لتتداول الفتاتان الموضوع مع السيدة الطيبة ومدام ميشو بتكتم حتى لا تفهمه أختهما الصغيرة ، فهما تعرفان أنها تتنصت على الأحاديث ، هكذا هم من في سنها ، تريد أن تعرف كل شئ ، وقد أمرتها منى أن تدخل غرفتها وتذاكر ولا تخرج منها لأي سبب كان ، لكنها ما أن سمعت جرس الباب حتى سارعت تفتحه ، فهذه من مهامها الأساسية . وجدته شابا أنيقا في ملابس مدنية ، فبادرته متسائلة :

• " مين حضرتك ؟ "

وتعجب الضابط من طريقة السؤال ، فقد كانت كمن تأمره :

• " أنا ضابط بوليس ."

وساءلته بنفس طريقتها :

• " وعايز إيه .."

وجد نفسه يجيب ، وهي التي تسأل ، والعادة أنه هو الذي يسأل ، فسألها محتدا ولديه رغبة في أن يكيد لها ليعرف رد فعلها :

• " فيه حد كبير أكلمه ؟ "

لكنها باغتته بتعجبها :

• " يعنى أنا مش كفاية !! "

فقال معتذرا ، وقد شعر بأنها تملك عقلية ناضجة رغم صغر سنها :

• " لا .. لا سمح الله ..."

لكنها لم تترك له المجال للاسترسال :

• " وبعدين انت مش لابس بدله البوليس ، ومافيش نجوم ؟ "

فأجابها بتحفظ شديد حتى لا تسترسل في أسئلتها :

• " أصلي أنا ضابط مباحث ."

وخرجت منال تستفسر عن الطارق ، فنهض الضابط من الخناءته التي كان عليها ليتفاهم مـــع أختها الصغيرة القصيرة ، على العكس من أختها الممشوقة القوام ، جميلة الوجه صافية العينين رائعة التكوين ، محجبة والحجاب يعني الإيمان ومن ثم الأخلاق ، مثلها نادر هذه الأيام ، إنما هي بـــدون شك ، ذلك الذي ذكره الله سبحانه وتعالى من أنه خلق لنا من أنفسنا أزواجا ، لابد وأنهـــا هـــي الزوجة التي خلقها الله له ، وقف يتأملها كأنما ليرى إن كـــانت تناســـبه زوجـــة ، وإن كـــانت المقـــاييس والمعايير تتفق والمواصفات التي سبق أن حددها لزوجة المستقبل ، كان يريدها شـــقراء كباقي أفراد عائلته ، وعيون ملونة ، طويلة ممشوقة القوام ليست رفيعة هانم أو حتى إحدى قريباها ، ويا ليته يستطيع أن يستشف الثقافة ، فيا حبذا لو كانت جامعية ، ليس مهما أن تكون في كليـــة من كليات القمة ، لكن المهم أن تكون جامعية ، فهو يدرس الماجستير ، وربما يليه الدكتـــوراه ، ويريد زوجته أن تكون في نفس المستوى العلمي على الأقل ، ويا حبذا .. يا حبذا لو كان اسمـــها جميلا كشكلها . وبعد فترة صمت قطعتها منال في محاولة لحثه على الإفصاح عن سبب تشريفه لهم ، قدم لها ضابط المباحث نفسه وأنه قد حضر لاستكمال التحقيق في الحادث الذي كان ضحيتـــه أحد الشباب أسفل العمارة ، وبدأ أسئلته :

• " الاسم والسن والوظيفة وصلتك بأصحاب البيت .."

لم تكن تعرف أنه يريد أن يعرف هذه المعلومات لنفسه ، فأجابت ببراءة ، فقد تعودنا في مصر منذ أيام السلطة العثمانية وحتى ما بعدها أن نخشى رجال البوليس ، ونباعد بيننا وبينهم :

• " الاسم منال محمد عبد المؤمن ، والسن عشرون سنة ، والوظيفة طالبة بكلية الصيدلة .."

يا لسعادة قلبه ، اسم جميل لمخلوقة أكثر جمالا وجامعية ، والمعاينة مائة بالمائة ، لا يبقى إلا موافقة الأهل ، والمأذون ، وعلى بركة الله ، لكن ، هل مدحت بك الأناضولي سيوافق على زواجه مـــن أسرة تسكن السطوح ، إنه هو الذي سيتزوج وليس مدحت بك الأناضولي ، حتى ولو اعـــترضت والدته فسوف يصمم على رأيه ، أين يجد الشاب فتاة بهذه المواصفات ، والأهم من ذلك كلـــه ، تدينها الذي يؤكده تحجبها وامتناعها عن مصافحته ، ومع طول فترات صمته التي يخلو فيها مـــع نفسه ، يحادثها وتحادثه . ظنته جديدا في هذه المهنة ، فعن لها أن تسأله عن هويته ، فهل كل مـــن قدم للسؤال عن جريمة أو حادث يكون من رجال الشرطة ، لكنها ترددت مـــع وجـــود أمـــين

شـــرطة بملابسه الرسمية ، لكن لا ، لماذا هو فقط ؟ وما يدريها أنه كان يسأل أسئلته عن الاســـم والسن والوظيفة لأمور تهم التحقيق ، كما أنها شعرت بشيء عجيب ، إنه يروق لها ، وقد لمحت في وجهه بشاشة ازدادت إشراقا عندما عرف المعلومات التي سألها عنها ، وقالت له بفظاظة متعمدة :

• " إنت صحيح ضابط بوليس ، والا ..؟ أين هي هويتك ، أليس من حقي ..؟"

وبحركة لا إرادية ، أخرج لها هويته ، فنظرت فيها بتمعن واضح ، وقرأت الاسم بصوت عال :

• " الاسم حسام مدحت عصمت ، والسن ٢٦ سنة ، والوظيفة نقيب شرطة .."

وقبل أن تعطيه الهوية ، وحتى لا يشعر أمين الشرطة أن المسألة ليست إلا تعارف بينهما، بعـد أن وافق نفسيهما الهوى ، طلب منه أن يعطيها هو الآخر هويته ، فأعطاها لها ، فنظرت فيها ســـريعا ثم أعادتها إليه ، فقال ببعض الفظاظة :

• " حضرتك فاكره إننا بنرمي بلانا على الناس ..؟"

وردت بدبلوماسية وهدوء أعصاب ، وقد أشرق وجهها بنور رباني ، مسح الكآبة التي صحبتـها طوال اليوم قلقا وسخطا وأملا ، قلقا على أختها التي خرجت ولم تعد ، وسخطا علـــى مســـتهتر يراوغ دائما ، وأملا في أن تحل المشكلة على أيدي السيدتين بالداخل قبل أن يأتي الوالد والوالدة :

• " حضرتك سألت عن الاسم والسن والوظيفة ، ومن حقي أن أعرف من أنت .. والا إيـــه ؟ وبعدين حضرتك نقيب ، يعني رجل قديم في الشرطة ، والصمت الطويل بين كل سؤال وسؤال لا يعكس ذلك ، فكان لازم أعرف .."

واستحثته أن يفصح عن سبب زيارته لهم ، فشرح لها الحادث الذي وقع أسفل العمارة بتفصيـــل واف مستفيض ، وأنه يجمع التحريات ليعرف أسبابه ، وبما أن المصاب وقع على رأسه شئ مـــن مكان مرتفع ، وهو أسفل العمارة التي يسكنون فيها ، فلابد وأن يكون هذا الشيء قد وقع مـــن عندهم ، ويهمه أن يعرف إن كان هذا الشيء قد وقع قضاء وقدرا ، أم أنه بفعل فاعل ، كـــان يردد تلقائيا ما تعلمه وحفظه من كثرة ما سبق له أن ردده في كل حادث أو جريمة ، كان يتحدث وهو يحدق في وجهها ، وكأنما يقرأ جريدة ، لم يكن منتبها تماما لما يقول ، إنها عبـــارات روتينيـــة تعودوا عليها في معظم محاضرهم ، بينما عيناه لم تتخليا عن النظر إليها ولو للحظة ، فهو يطـــالع وجهها الصبوح ويقول في نفسه لا يمكن لفتاة بهذه الرقة ، وبهذا الجمال أن يكون لهـــا دخـــل في

حادث كهذا ، وكلما أطال الصمت ، كلما سارعت في حثه على الكلام ، وقد عجبت منه ، إنه لا يسأل لمعرفة أسباب الحادث ، لقد تسمرت قدماه ، ولا يريد أن يتحرك ، وهي لم تعطه فرصة لدخول الشقة ، اعتذرت بعدم وجود والدها ، وهذا معناه أنه ممنوع على الرجال الدخول ، وابتسمت ، وكم كانت ابتسامتها غاية في الشفافية والجمال ، آه لو كانت تستطيع أن تقرأ أفكاره ، فتعرف أن سبب سرحانه هو أنه يفكر فيها زوجة ، وحبيبة ، ورفيقة عمر . نبهته لأكثر من مرة أن ينهي هذا التحقيق ، فليس لديها وقت ، تعجب .. ألا تخشى الشرطة ؟ فسألها بسرعة من يريد إنهاء الاستجواب :

• "هل تعرفونه ؟"

وأجابته بتعجب :

• " نعرف من !!"

ورن جرس الهاتف المحمول الذي معه ، وبعد حديث قصير ، أعلن أنهم تعرفوا على شخصية المصاب ، وأعلن اسمه بصوت مسموع ، به رنة عالية وكأنما ليعلم كل من في المنزل ، فلا يحتاج لاستجوابهم :

• " يظهر إنهم تعرفوا على شخصية المصاب .. اسمه علاء الدين عبد المنعم .. حد فيكم يعرفه ؟"

وأنكرت منال معرفتهم لأحد بهذا الاسم ، وتساءلت :

• " هل لابد لنا أن نعرفه ؟ "

بينما انطلقت السيدة ميشو تسأل الضابط :

• " حضرتك قلت علاء الدين عبد المنعم ... ما له ؟"

وفوجئ باستفسارها ، فأجابها بعصبية ، إذ أنها قطعت عليه حديثه مع حبيبة القلب التي ظهرت له فجأة ، ولا يريد أن يضيعها من يديه :

• "ده اسم المصاب ..."

وتلعثمت السيدة من شدة انفعالها ، وخرجت الكلمات بصعوبة بالغة حتى أنها لم تستطع أن تكملها :

• " مصاب ... حضرتك متأكد ..."

ووقعت مغشيا عليها .... وقامت سعاد بمحاولة تطبيبها بينما بدا على منى ومنال الحيرة ، وسألت السيدة الطيبة منى عن اسم حبيب القلب :

• " هل هو علاء أم ولاء ...؟ "

بينما تساءلت منال عما حدث له ، وأجاب الضابط :

• " يقولون أن شيئا ما سقط من مكان ما بالعمارة فوق رأسه فشجها ، وهو الآن في المستشفى تحت العلاج ، وربما يحتاج إلى عملية سريعة ، وقد استدلوا على عنوانه ، وتم استدعاء والده ، الذي ذهب إلى المستشفى ، وهو معه الآن . "

وتساءلت منال عن الشكل والسن ، والعنوان ، وأجاب الضابط وهو في حالة من الشك والريبة ، ذلك أن منال تخلت عن تحفظها !!!

• " لقد رأيته أثناء المعاينة ، إنه شاب فوق العشرين ، أبيض اللون ، أسود الشعر ، طوله حوالي متر وخمسة وسبعين سنتي ، وجهه مستدير بدون شارب .. لقد قالوا أن عنوانه ٥٢ شارع ٧٧ المعادي "

وقالت منال بشيء من العفوية المشوبة بالحذر :

• "إحنا نعرف واحد بالأوصاف دى ، ويمكن يكون في العنوان اللي حضرتك قلته ، بس اسمه ولاء .."

وقال الضابط محذرا ، وقد اكتست لهجته بأسلوب بوليسي لا يستخدم إلا مع المجرمين ، نسي معه ما كان يمني به نفسه من حب أو زواج أو خلافه ، فالعمل عمل ، والواجب فوق كل شئ :

• " شوفوا بقى ... من غير شوشرة ، ولا دوشة ، وحتى لا نثير ريبة ، أنا سأخرج عادى ، وانتو تحصلونى على المستشفى ، بعد ما تفوقوا الست اللي أغمى عليها ، وإذا تأخرتم ، سوف أرسل الشرطة للقبض عليكم ، وفى المستشفى وبعد أن تتعرفوا على المصاب ، تبقوا تقولوا إذا كان اسمه علاء ، والا ولاء ...."

ومد يده مصافحا ، وقد بدت عليه بشاشة من يطلب العفو والسماح على ما قد يكـــون بـــدر منـــه بسبب المهنة التي لا تحمل بين طياتها سوى الشك والتحقيق ، وأنه إنسان يعني ليس آلة ينفذ التعليمات وبس ، وعندما تقع عيناه على جمال بجمالها ، ورقة لم يرى لها مثيل ، فلتعذره . لكنـــها نظرت إلى يده الممدودة ، وقد علا وجهها خجل ، احمرت له وجنتاها ، فطار صوابه ، فقد أضافت الحمرة إلى وجهها من الجمال والبهاء ما لا يمكنه تحمله ، لو كان الأمر بيده ، لانتزعها إلى أقـــرب مأذون ، ولصارت زوجته من التو واللحظة ، فهي له ، لا يمكن أن يكون ما يشـــعر بـــه إلا مـــا يرسمـــه القدر مصداقا لآياته ، قالت ببراءة خجلة :

• " أرجو المعذرة ، فأنا لا أسلم على الرجال .."

فانسحب بهدوء وهو يردد كلمات الاعتذار الرقيقة ، ولم ينس أن يسألها الدعوات ، وأفـــاقت السيدة ميشو ، وقد بدا عليها الخوف والهلع على ابنها ، وحيدها ، بينما منى ومنال والســـيدة الطيبة يحاولن طمأنتها ، وقد يكون هناك تشابه بالأسماء ، وعلى كل ، عندما يصلون المستشـــفى سيعرفون المصاب ، وإن شاء الله ، لا يكون ولاء هو المصاب ، وتعجبت السيدة ميشو :

• " من ولاء هذا ؟ "

وهمست السيدة الطيبة في أذن منى :

• " فيه واحدة تحب شاب ما تعرفش اسمه !!"

ونظرت إليها منى وكأنما تريد أن تقول لها ، إحنا في إيه والا إيه .. أما منال فقد جحدت أختـــها معاتبة ، بينما تنهدت السيدة الطيبة ، وهى تخشى من أحد أمرين ، أن يكون المصـــاب هـــو ولاء صاحب المشكلة ، وفى هذه الحالة ، فمن هو ابن هذه السيدة ؟ وحمدت الله أنها لم تكشف لها أبطال هذه المشكلة ، أو تشير من قريب أو بعيد إلى أن ابنها هو الشاب المستهتر ، صاحب الكارثـــة ، وإنما اكتفت بشرحها لها باعتبارها مشكلة منى . لكن ماذا لو كان المصاب هو علاء ، ابن هـــذه السيدة ، فما الذي أتى به إلى هذا المكان ، وما هو عنوان ولاء حبيب الست منى ، ومـــاذا لـــو كـــان ولاء هو علاء ، والضابط يقول أن حالته خطيرة ، فماذا لو .. وعندما وصلـــوا إلى بـــاب المستشفى ، وجدوا الضابط في انتظارهم على أحر من الجمر :

• " لقد أفاق والحمد لله ، وهذه بادرة طيبة ..."

وشاهدت السيدة ميشو زوجها ، فهرولت إليه ، وألقت بثقلها على صدره ، وهـــي تبكـــي ، وتسأل عن علائها ، حبيبها ، والرجل عاجز تماما عن الرد ، لعدم إعطائه فرصة ، فهي لم تصمـت منذ أن شاهدته ، وكذلك من ثقل حجمها ، فقد ألقت بكل ثقلها عليه ، وكم كان ثقلها هـــذا ، وطمـأنها على ابنها ، وأنهم يطهرون مكان الإصابة تمهيدا للخياطة ، والحمـــد لله أن الإصابـــة لم تحطم عظم الجمجمة .

كانت السيدة ميشو تظن أن السيدة الطيبة والفتاتين قدما معها إلى المستشفى للاطمئنان علـــى ابنها علاء ، ولذلك كالت لهم المديح عند زوجها ، واختصت الدكتورة سعاد التي تظن أن اسمـها زينب هانم ، مديرة جمعية الأخلاق الكريمة ، بمزيد من الحمد والشكر ، محاولة التأكيد على أنهـــا صديقتها ، وأشادت بمحاولاتها المستميتة لوضع شعارات الجمعية موضع التنفيذ العملـــي ، وهـــي بذلك تحاول إظهار كم هي أثيرة عندها ، وتختصها بوافر من اهتماماتها ، ذلك أنها عضو فعـــال في الجمعية :

- " أتدرى لماذا شرفتني بزيارتها ؟... لكي أساعدها في حل مشكلة فتاة ، يا عيني مسكينة ، فيـــه شاب مستهتر من شباب اليومين دول ، ضحك عليها ، أعطاها لبان إســـرائيلي مـــن اللـــي أعلنـــوا عن تأثيره اللعين على البنات ، واعتدى عليها النذل ، وهى الآن حامل منه ، ومـــش عارفة تعمل إيه ... تصور ..كانت ناوية تنتحر .. لولا زينب هانم مديرة الجمعية أنقذتهـــا في آخر لحظة ، ومسكينة محتاسة معاها من ساعتها ، بس إيه ، وحياتك لأكون أنا الســـبب الأول والمباشر في حل مشكلتها ، ولازم النذل ده يدفع ثمن غلطته ، هي الدنيا سايبة ، كل من معـــاه قرشين يلعب ببنات الناس ..."

وتساءل الزوج بشيء من الحذر :

- " إيه اللبان الإسرائيلي ده ، إوعى يكون زي اللي وجدناه في غرفة ابننا علاء ، لمـــا البنـــت الشغالة كانت عامله زي الثور الهايج ، تجرى وراء كل راجل شويه ؟؟"

وأجابته ميشو ببساطة :

- " يظهر كده ..."

إلا أن الرجل توجس خيفة :

• "والله أنا خايف يكون المستهتر اللي بتتكلمي عنه ده يبقى ابنك ، ما هو انتي دلعتيه أكثر مما يجب .. حتى أصبحت هواية عنده ."

وقالت ميشو لتخفف من خوف زوجها :

• " معقولة ابننا يعمل حاجات زي دي ، ده شاب متربي .. ربنا يستر على ولايانا ..."

لكنها استدركت بسرعة ، لماذا لا ؟ ، لقد أصيب علاء ، أسفل منزل منى ، ما الذي ذهب به إلى هناك ؟ ، وساعدها زوجها في الاستنتاج ، صحيح أنها غبية ، ولا تفكر في أبعد من اهتماماتها الشخصية السخيفة ، وأمورها الخاصة ، وتحاول أن تظهر نفسها بأنها الأفضل ، والأحسن ، والأذكى .. لكن هذا لا يمنع من أن لها عقلية بوليسية ، إذا استخدمتها جيدا ، توصلت إلى نتائج تتضاءل أمامها عبقرية من سبقوها في هذا المجال ، أمثال طيب الذكر شرلوك هولمز ، والمبجل كولومبو ، والأصلع كوجاك ، لم لا أليست من مواليد برج العذراء ، حيث يصلح معظم مواليده في أعمال النيابة والشرطة !!!

• " يعنى انتي عايزه تقولي إن ابنك هو اللي ..."

فقالت وهي تقدح زناد فكرها :

• " طب فسرها معايا كده ، زينب هانم تيجي عندي ، وهي لم تشرفني من قبل ، وتأخذني معها لبيت منى ، وتحصل حادثة هناك ، ويطلع إن المصاب هو ابننا ، ده كله معناه إيه ، إلا إن علاء كان رايح يصلح غلطته ويتجوزها .."

فاستوقفها الرجل :

• " إنت قلتى منى ... هو ده الاسم اللي كان يردده وهو في غير وعيه ..."

فأرادت أن تبعد الشبهة عن ابنها :

• " بس هم قالوا إن اسمه ولاء .."

فعاجلها زوجها موضحا :

• " وهو برضه حيقول لضحاياه اسمه الحقيقي ... مايبقاش ابنك ..!"

وأخذ الرجل يردد كلمات ابنه في لحظات اللاوعى ، وقلقه على الفتاة بالرغم مما هو فيه من آلام ، وتصميمه على الزواج منها ، إنه يخشى عليها الانتحار ، فقد حاولت ذلك ، بل ربما تكون قد انتحرت ، والسيدة ميشو تؤكد كلماته ، فقد أنقذها السيدة زينب هانم من الانتحار ، والفتاة حامل .. ثم سأل زوجته :

• " إنت شفتي البنت ؟"

فأكدت رؤيتها للفتاة ، وزادت :

• "ورحت بيتهم .."

وسألها زوجها :

• " وإيه رأيك ؟ "

وبدأت السيدة ميشو تصف في سكنهم :

• " الشقة بتاعتهم في حي راق ، مش بطال يعنى ، والعمارة من أكبر العمارات في المنطقة ، بس هم ساكنين فوق السطوح ، والعفش قديم شويه ، لكن باين عليه إنه كان غالى ... يعنى ... "

فقاطعها الرجل موضحا سؤاله :

• " يا ستى أنا لا أتحدث عن الظواهر والمظاهر ... إيه رأيك في البنت ؟؟"

فأجابت بامتعاض :

• "يعنى ... "

فأراد أن يستوضحها :

" إيه يعنى دى ؟ هي مش عاجباكى وألا إيه ؟؟ "

وبعد فترة من الصمت ، قضتها السيدة في إعادة تقييمها للفتاة :

• "شكلها بيقول إنها حلوة قوي ، يعني البياض من النوع الجميل ، بس يمكن المصيبة اللي هي فيها مش مبيناه ، والقوام نحيل قوي ، بس يمكن يكون الحمل هو السبب ، والشعر شكله زي ما يكون أشقر ، بس الحجاب مش مبينه ..."

وعاجلها زوجها ، فهو يريد أن يستوضح الأمور كلها دفعة واحدة :

• "وهي حامل بجد ؟ وألا عاملنها كده علشان يورطوا الولد ... "

وأجابت ميشو بتعجب ، فإن ما قصته من وقائع تؤكد إجابة سؤاله :

• " أمال يعنى هي كانت رايحة تنتحر ليه ؟ "

وعلق الرجل وكأنما قد استسلم لقضاء الله :

• " مش عارف أقول لك إيه يا مشمش ، يمكن ربنا بيحطنا في امتحان .."

وبدت على ميشو إمارات التعجب :

• "يعنى إيه ؟؟"

وأجاب زوجها ، وكأنما قد تملكته الحكمة :

• " إحنا لسة مخلصناش من موضوع بمانه ، وأهو عبد الجليل عمال يملي شروطه زي ما يكون ما صدق ، وغير بمانه .. إحنا ياما ظلمنا ناس كثير ... فاكره البنت خضره ، طردناها لما اتهمت ابنك بانه اغتصبها ، ولم نهتم حتى لما عرفنا إن أهلها قتلوها ... ، وخوفنا من أن يحدث لبهانة ما حدث لخضرة ، ادي إحنا بنحاول نلزقها للواد الأهبل اللي بيشتغل في الزريبة ، وهو أنا جاى من هناك على طول ، الراجل عبد الجليل ده طلع مصيبة مسيحة واحنا ما احناش عارفين ، تصوري جاب مهندس ديكور علشان يعمل ديكور لبيت " شوق " أرملة الباشا رحمه الله ، لمجرد إني وافقت على إن بنته تعيش فيه هي وجوزها الأهبل ده ، والفاتورة مع الأثاث بأكثر من مائة ألف جنيه .."

وتساءلت ميشو بانزعاج :

• " بيت شوق مرات أبوك ! هو مش ده البيت اللي في الأرض بتاعتها ..؟"

وأجاب عبد المنعم ببرود :

• "أيوه يا ستي .."

واندهشت ميشو :

• " وانت من حقك تتصرف فيه ! مش انت بايع لي الأرض بتاعتها بالبيت اللي فيها ؟.."

وأرادها عبد المنعم أن تتغاضى عن هذه الأمور ، فالوقت ليس للمحاسبة والعتاب :

• "كل ده يهون علشان ابننا ما يتعرضش لتهديد عبد الجليل ، أديكي شفتي عمل إيه لما الشغالين حاولوا يمنعوه من الخروج ، ده شايل معاه سيف يا ميشو ، شوفي بقى الفضيحة اللي كان ممكن يعملها لنا ، وطبعا أهل خضره حيندااروا علينا أول ما عبد الجليل يشيع في الكفر إن ابننا هـــو صاحب البركات ، اللي بيخللى البنات اللي بيشتغلوا عندنا أمهات ، .... ويمكن يكون هناك غير خضره وغير بمانه ، واحنا فاكرين ابننا ملاك ... أهو طلع شيطان ، والمرة دى ، الجريمـــة لبساه لبساه .. ومين عارف ، يمكن يكون زي ما كان عقله الباطن بيقول ...."

وقاطعته ، رغم أنه كان مسترسلا :

• " بيقول إيه ؟؟"

وأكمل والغيظ يكاد يقتله :

• "كان بيقول إن ده انتقام ربنا ... لأنه كان في طريقه للهرب كالعادة ..."

وبعقليتها البوليسية ، أسرعت في ربط ما حدث لابنها ، بانتقام الفتاة منه ، وبدأ الزوج في تفسير ذلك :

• " يعنى إنت عايزه تقولي إن الإصابة بفعل فاعل .."

واسترسلت وكأن زوجها لم يأتِ بجديد :

• "والهم استدرجوه لبيتهم علشان يقتلوه .."

وأعمل الرجل فكره في استنتاجات زوجته ، وبدا له أنها قد تكون معقولة ، وبالتالي فلعل هذا ما حدث ، فردد ساهما :

• " على رأيك ، كل الأدلة والملابسات تؤكد هذه الاستنتاجات .."

ولم يتمهلا حتى يدرسا الوقائع التي أدت بهم إلى هذا الاتهام بشئ من التأني والروية ، ولا حـــتى يبحثا في الجوانب القانونية ، أو يستطلعا رأي المحامي فيها ، فقد يترتب عليها مشاكل أكثر مـــن الاتهام ذاته ، بل عقدا العزم على الإدلاء بهذه المعلومات للضابط .

ما أن ذكر الضابط أن المصاب أفاق ، وأن حالته مطمئنة ، حتى تشبثت به منى لتعرف المزيد :

• " قول لي بصراحة ... أنا أعصابي كويسة ، هو صحيح بخير ، ولاء بخير ..."

وتعجب الضابط ، مَنْ ولاء هذا ؟ لكن في مثل هذه الظروف لابد له من طمأنة الجميع ، وأكد لهن ، أن هذه هي أقوال الأطباء ، وإن شاء الله ربنا يسلم . وسارعت سعاد تسأل منى :

• " هل هو علاء ، وألاّ ولاء ... ؟ الدلائل كلها بتقول إن اسمه علاء مش ولاء ... فوقي بقى وصحصي اسمه في ذاكرتك .."

لم يتصور الضابط أن هناك فتيات في هذه الأيام بهذه السذاجة فقال :

• " لما تشوفوه ابقوا قولوا لي ، هو علاء وألا ولاء ...!"

وشعر حسام بأن الموضوع ليس ببساطة الاسم ، وهل هو علاء أم ولاء ، ولم يشأ أن يحادث حبيبة القلب ذات الفصاحة والتلاعب بالعبارات ، ومنى لن تكون ذات فائدة كبيرة في استيضاح المستور ، هي صاحبة المشكلة ، وخجلها سيمنعها بالقطع من أن تسرد ما ستره الله ، لكنه يريد أن يعرف التفاصيل ، فلم يجد أمامه سوى السيدة الطيبة ، فلخصته في إيجاز سريع :

• " استهتار شباب استخدمت فيه أساليب رخيصة ، وربما دنيئة ، تخدير أو شئ من هذا القبيل ، ثم اعتداء ترتب عليه حمل ، ومحاولة إقناع بالزواج وتصحيح ما حدث ، وطبعا هرب ، وأخيرا قصاص الله سبحانه وتعالى .."

ودخلت السيدة ميشو وهى تلهث ، وكلماها تتقطع من اللهفة والانفعال ، وخلفها زوجها يؤكد كلماها :

• " أقبض عليهم يا حضرة الضابط ...."

وأصاب الضابط سخط من نوع خاص سواء من الطريقة أو الأسلوب ، فقال ساخرا :

• "خير إن شاء الله ، معالي وزير الداخلية ، والباشا مدير الأمن العام ...أنتم مين ، إيه الأوامر دي ، وأقبض على مين .. أنتم عايزين إيه بالضبط ؟؟"

وأجاب الرجل بهدوء ، بعيدا عن انفعال وعصبية زوجته :

• " أنا عبد المنعم محمد السلحدار ، والد علاء عبد المنعم السلحدار ، وهذه السيدة مشيرة حسين الدرمللي زوجتي ووالدة علاء ..."

وتساءل الضابط محاولا ضبط النفس ، لكن نبرة صوته لا تكاد تخلو من الانفعال :

• "وإيه المطلوب منى ؟"

واندفعت السيدة ميشو :

• " أقبض على المجرمة دى ، وأختها !!!"

وتساءل الضابط متعجبا :

• "كده ببساطة !!"

فأعاد عبد المنعم ترتيب كلمات زوجته :

• " إحنا بنشك أن تكون الإصابة اللي حصلت لابننا بفعل فاعل ، وأن الفاعل ده يبقى الآنسة منى ، وأختها الآنسة ..."

وبدأ التوتر على وجه الضابط ، لا يدري هل هو بسبب ما شعر به منذ أن رأى منال ، وهذا الهاتف الخفي الذي مازال يلاحقه بأنها هي .. ولا يدري هي من هذه ، لكنه كان كلما أعطى لفكره الفرصة للتفكير المتأني ، يجدها أمامه زوجة وحبيبة وكل شئ ، أما منى ، فقد كان لها بعض الأثر ولكنه من نوع آخر ، وبخاصة ما أظهرته من سذاجة يحسدها عليها الكثيرون ، لكنه شعر بتعاطف كبير معهما ، ربما لبراءتهما التي تعكسها سماحة وجهيهما ، أو لشعوره بميل غريب نحو منال .

سأل الزوجين بشيء من التعنيف :

• " عندكم دليل مادي .."

وهمت السيدة ميشو أن تتكلم ، إلا أن زوجها منعها وبدأ يرتب الأمور :

• "شوف يا حضرة الضابط ، من الواضح إن هناك علاقة بين ابني والآنسة منى ، وجايز تكون ضحكت عليه ودحلبته في الكلام لحد ما وعدها بالزواج أو حاجة زي دى ، وطبعا للفارق

العائلي ، والمستوى الاجتماعي والمالي ، كان لازم يتهرب ، فدبروا له هذه المكيدة للتخلص منه ، وكان من الممكن أن تفر المجرمة بجريمتها دون عقاب ، لولا أن الله سبحانه وتعالى أراد كشف سترهم ، فوهب لابنى الحياة علشان يفضح جريمتهم الآثمة ."

وبقدر شعور الضابط بالامتعاض من إلقاء التبعة على الفتاة ، تلك التي يتبين من شكلها وتصرفاتها كم هي ساذجة ، بقدر تعجبه من فصاحة الرجل ، حتى ظنه محاميا ، وبدأ يناقشهما في اتهامهما للفتاتين :

• " أولا وقبل كل شئ ، هذه الافتراضات كان من الممكن أن تكون صحيحة قبل أن أقوم بتحرياتي ، وتحرياتي أثبتت أن منى لم تكن متواجدة في البيت ، ولا في العمارة ، ولا حتى في المنطقة كلها ، وقت وقوع الحادث ، وهناك شهود عيان ، بل ومصاحبة مكانية وزمنية ، أما عن الآنسة أختها ، فقد كانت أسفل العمارة وقت وقوع الحادث ، وأنا بنفسي شفتها ، لأنها ببساطة كانت في انتظار أختها اللي تأخرت ، واللي كانت قلقة عليها لأنها كانت تعتزم الانتحار هربا من الفضيحة التي سببها اغتصاب ابنك لها ، ومسألة محاولة الانتحار دى مؤكدة بشهادة الشهود اللي أنقذوها في آخر لحظة ، ودي قضية ثانية سنحقق معها فيها ، وبناء عليه فإن اعترافاتك إنت والمدام ، بالإضافة إلى الكلام اللي قاله ابنك أول ما أفاق ، يؤكدان ارتكاب ابنك لجريمة الاغتصاب ، وأنا في الحقيقة منتظر خروجه من العملية ، ومواجهته بهذه التهمه بمجرد ما يستطيع الإجابة على التحقيق ."

انتفضت فرائس الرجل وزوجته ، اغتصاب يعنى إعدام ، ولا بد من التصرف بسرعة ، فإذا الولد خرج من الحادثة سليم ، فكيف التصرف مع حكم الإعدام الذي ينتظره ، وطلبا هاتفا لإحضار محامى عنهما ، بينما وجدت السيدة الطيبة الأمور تسير بخطى سريعة ، يخشى معها عدم السيطرة عليها ، ورأت أنه لا بد لها من أن تطلب محامى لتوكله عن الفتاتين ، وأسقط في يد الفتاتين ، فكان لابد لوالديهما من الحضور ، أو على الأقل ، إحاطتهما علما بما يحدث ، ولكن كيف ؟؟

تولت منال ذلك ، طلبت المترل ، وردت عليها الأخت الصغرى ، فطلبت الوالدة ، وقالت لها هامسة :

• " ماما ... طبعا حضرتك عرفتي إن فيه حادثة حصلت تحت العمارة ، بيقولوا حاجة وقعت على راس أحد المارة ، وهو في المستشفى الآن ، شوفي إن كانت قصارى الزرع اللي على السور ناحية الشارع ، فيهم قصريه ناقصة ، تكون القطة وقعتها والا حاجة ، إحنا متهمين بإلقاء شئ من فوق على الرجل ، وحالته قد تكون خطيرة ، شوفي وتأكدي ، وفى جميع الأحوال لازم تنقلوا قصاري الزرع من السور اللي على الشارع ، وتضعوها على سور المنور ، امحي أي أثر ليها من على السور ..."

وبعد تأكيدات عديدة ، ومحاولة طمأنتها ، استدارت لتفاجأ بأن الضابط سمع كل كلمة قالتها ... واجهته بشجاعة :

• " مش من حقك التنصت علينا ... وكمان لا تستطيع إثبات أي شئ ضدنا .."

فسألها مستجوبا :

• "ومين قال لك إن اللي وقع على رأسه كان قصريه زرع ؟"

شعرت أن سؤاله يحمل في طياته اتهاما بأنها تعرف ماذا وقع على رأس المصاب ، ومن ثم فمن الممكن أن تكون هي التي أسقطته ، فارتعش صوتها وهي تجيب ، فحتى البريء ، قد ينتابه الذعر ويشعر بالخوف إذا وجه إليه اتهام قد تؤكده الوقائع :

• " أصل إحنا ما عندناش حاجه ممكن تقع من فوق غير قصارى الزرع ..."

فوجه الضابط إليها ما ارتعش صوتها من احتماله :

• "وألا أنت اللي أسقطتيها متعمدة ، لما لقيت الأفندى ناوى يزق عجله ، ويهرب ..."

ولما وجدت نفسها في دائرة الاتهام ، والمواجهة خير وسيلة للدفاع ، قالت له بثبات وجرأة حسدها عليهما الضابط :

• " خانك ذكاؤك في دى يا حضرة الضابط ، لإني لما نزلت كنت بدور عليه ، لأن كان فيه اتفاق انه ينتظر في مكان معين ، ولما ما لقتوش ، اتجننت ، لكن صدقني لو قلت لك إني كنت متوقعه هروبه .. ثم إن إحنا في إيه وألا إيه ..."

وهم الضابط أن يتحدث ، لكن منال عاجلته :

• " تفتكر إنه من مصلحتنا انه يموت قبل ما يصلح غلطته !!! طبعا حضرتك تأكدت دلوقتي عدم وجود أية نية لدينا للتخلص منه ، وأنه بفرض إن اللي وقع على رأسه هي قصريه من عندنـا ، فلا بد وأن يكون ذلك قضاء وقدرا .."

لكنه أراد أن يكيد لها كما كادت له ، فقال كمن يؤكد ارتكابها للجريمة :

• " على كل تحقيق النيابة هو اللي حيبين كل حاجة .."

ولم تستطع منال أن تخفي انزعاجها ، فتساءلت :

• "تحقيق نيابة .."

فأراد أن يزيد من كيده بها :

• " طبعا ، مش لازم النيابة تباشر اختصاصها ..."

وكانت مني قد اقتربت منهما عندما أعلنها بتحقيق النيابة ، فكادت أن تصاب بالإغماء ، ذلـك أنها تعلم أن تحقيق نيابة معناه حبس ، والوالد والوالدة يعرفوا ، وآه لو عرف الوالد ، مصيبـة ، فالرجل صعيدي لم تغير مدنية القاهرة منه الكثير ، البذلة جائز ، اللهجة في التعامل مع أهل القاهرة والمسؤولين والزملاء جائز ، إنما في المترل ، ومع أهل بيته وأقاربه وأصدقائه المقربين ... لا وألف لا ، ومن ثم الطباع .. كلها طباع أهل الصعيد ، الشهامة والكرم والتلقائية في التعامل ، والتفاعل مع الغير في أحزانهم وأفراحهم ، وحل مشاكلهم حتى ولو كان ذلك على حساب آخر مليم في جيبه ، وربنا هو الرزاق ، وهو الستار ، حنون جدا مع بناته ، عيره بهن بعض الأقـارب والأصدقـاء ، فاختال عليهم بمنى ، في كلية الطب ما شاء الله ، وأختها منال في الصيدلة ، وان شاء الله مهجـة البنت الصغرى تحصلهما ، يا طب ، يا صيدلة ، فهي ذكية ، ربما أكثر من أختيها ، جيل تليفزيوني ، ما عرفته أختاها في سنة ، تعرفه هي في أيام ، ماذا لو عرف بهذه المصيبة ، ربنا يستر .

أحست منال بالمصيبة التي تتعرض لها أختها ، فطلبت من الضابط مناقشة الأمر على انفـراد ، وتطوعت سعاد محاولةً حثه على الموافقة ، قالت منال :

• " حضرة الضابط ، إنت لك أخوات بنات ... وطبعا فضيحة زي دى ... واحنا صعـــايدة ، يكون ثمنها غالى جدا ، يا منى أختي ، يا والدي ، وفى الغالب الأعم ، سيكون هذا الشاب ، لو خرج من الإصابة دى على خير ... وأنت لا يرضيك .. لا هذا ولا ذاك .. "

وأضافت سعاد :

• " يا حضرة الضابط ، كل إنسان معرض للخطأ ، وإذا الخطأ كان بالصورة اللي حصلت مــع منى ، فلا بد أن نلتمس لها العذر ، ونحاول نساعدها على قد ما نقدر ، واحنا لا سمـــح الله لا نمنعك من القيام بواجبك ، لك أن تتحرى ، فإذا كان الحادث قضاءً وقدراً ، يبقى يا دار مـــا دخلك شر ، والمسألة تبقى في أيدينا ، يعنى التهديدات اللي انت هددتها لوالد المصاب ووالدته ، كان لها أثر فعال بدليل إنهم طلبوا المحامى بتاعهم ، وأنا الحقيقة طلبت المحامى بتاعى حـــتى لا نقع في المشاكل القانونية التي قد يدخلنا فيها المحامى بتاعهم .."

وقاطعها الضابط :

• " وإيه المطلوب منى بالضبط ؟ النيابة لازم تيجى شئنا أو لم نشأ ..."

وأوضحت له سعاد :

• "بس بعد ما نوصل لحل مع الشاب ووالديه ...أرجوك ..."

فنظر الضابط إلى منى وقال :

• " والدتك بتحبك قوى يا منى ... ولو إن شكلها صغير ، هي والدتك وألا أختك الكبيرة ..؟"

ونظرت إليها سعاد ، وأومأت لها برأسها أن لا تعترض ، فهمست منى في أذنها بعد أن غادرهمـــا الضابط :

• "يمكن ولا أمي تعمل اللي انتي عملتيه معايا ... بارك الله فيك ...."

وانخرطت في بكاء مر .. وسعاد تواسيها ، وتطلب منها رباطة الجأش حتى يتغلبوا علـــى هـــذه المصيبة . وخرج الجراح من غرفة العمليات ، فاتجهوا جميعا إليه ، وما أن لمح الدكتورة سعاد ، حتى رحب بها أيما ترحيب ، وبعد أن عرف أن المصاب يهمها ، اصطحبها إلى غرفة العمليات ، وبعـــد اتخاذ الإجراءات ، شاهدت الجرح قبل أن ينتهي المساعدين من خياطته ، وبدأ الحوار بينهما عـــن

كيفية حدوث الإصابة ، وهل هناك خطورة ، ومدة الشفاء ، والآثار الجانبية في الحال أو الاستقبال ، وطمأنها الطبيب ، وخرجا ليطمئنا الآخرين ، ثم اصطحبت الضابط ، الذي تغيرت طريقة تعامله معها بعد أن عرف مركزها من اهتمام الجراح وحفاوته بها ، وإصراره على الاستئناس برأيها ، وقالت له :

• " أرجوك .. لا تتخذ أي إجراء قبل ما يعد الجراح تقريره ويقدمه لك ..."

ووعدها الضابط خيرا ، بينما أسرعت السيدة ميشو تمطر الدكتورة سعاد .. الطبيبة بوابل من الأسئلة عن حالة ابنها ، وقد اتسمت عباراتها بكل الاحترام والود ، وأحس كل من والد المجني عليه وزوجته بالخطأ الجسيم الذي ارتكباه في حق الدكتورة زينب ، وطلبا منها مسامحتهما ، لكنهما تمنيا أن تنال منى وأختها العقاب المناسب لفعلتهما ، فقاطعتهما الدكتورة :

• "مش لو كانتا مخطئتين !!!"

وفى ذهول واضح تساءل الرجل وزوجته :

• " يعنى إيه ؟؟"

وأجابت الدكتورة بهدوء :

• "ده موضوع سابق لأوانه ، لما الجراح يقدم تقريره ، يبقى ساعتها يتم تحديد المسؤولية .. والحمد لله على سلامة ابنكم .."

فحمد الرجل الله سبحانه على ستره ، بينما برطمت السيدة ميشو ببعض العبارات التي يفهم منها أنها سعيدة بشفاء ابنها ، لكنها كانت تتمنى أن ترى منى وأختها في عقاب ما ، فجحدتها السيدة الطيبة بنظرة ليس لها سوى معنى واحد ، هو أن تشكر الله سبحانه وتعالى على نجاة ابنها ، أما موضوع منى ، فلا بد وأن يحسم ، والآن .

وسألها الضابط :

• " يا ترى الدكتورة زينب ده اسم حضرتك ... "

وأجابته بتعجب :

• " أنا اسمي الدكتورة سعاد ..."

وفوجئت بالضابط والسيد عبد المنعم يقولان في صوت واحد ، وقد ركزا بصريهما على السـيدة ميشو ، التي أصابها الارتباك ، فلم تعرف بماذا تجيب :

" أمال زينب دي تطلع مين ... ؟ "

وتعجب الضابط من ملابسات هذه القضية ، فالتي ظنها متهمة تبين أنها مجني عليها ، والمجني عليه المضرج في دمه ، تبين أنه هو المتهم ، وتهمته ليست بسيطة ، ولكنه متهم في جناية قد توصلـه إلى حبل المشنقة ، والأسماء ليست حقيقية ، ولا حتى الأشخاص ، فمن ظنها والدة منى ، هي أصغـر كثيرا من أن تكون كذلك ، ومن أطلقوا عليه ولاء ، تبين أن اسمه علاء ، وأن الدكتورة سـعاد ، كانوا يطلقون عليها زينب هانم ، وتأتي بعد كل هذا أو قبله ، هذه المنال ، التي وجد نفسه لا يفكر إلا فيها ، وتتصدر كل ما عرضته عليه والدته من بنات عائلات تعرفهن ، وكذلك أخوات وأقارب أصدقائه وزملائه أو زوجاتهم ، والعجب كل العجب من الأشكال التي تشبه أناسا قريبين جدا منه لكن ذاكرته لا تسعفه بالربط بينهم ، ولا يدري ماذا بعد كل هذا ؟

حضر المحاميان ، وتداخلا في حوار قانوني ، كل يبني رأيه بناء على المعطيات التي زوده بها موكله ، محامي السيد عبد المنعم وزوجته ، ومحاولته نفي جريمة الاغتصاب ، وإثبات أن منى وأختها هما المسئولتان عن جريمة إصابة علاء ، ومحامي الدكتورة سعاد يحاول تأكيد جريمة الاغتصاب ، ويدحض اتهامهما بجريمة إصابة علاء ، وكل يؤكد حيثيات دفاعه . وفي خضم هذا النقاش القانوني ، فوجئ الجميع بدخول رجل تتبعه امرأة ، ما أن رأتهما منى حتى غابت عن الوعي ، ثم خيم الصمت على الجميع عندما ارتطم جسدها بالأرض ، فهجم الرجل عليها ، بينما تضاءلت أختها حتى التصقت بالحائط ، وهم الضابط أن يقف في طريق الرجل خشية أن يقوم بتصرف غير قانوني ، إلا أن الدكتورة سعاد منعته ، فرفع الرجل منى بحنان ، وأجلسها إلى جانبه واحتضن رأسها إلى صدره ، يربت عليها ويبثها عطفه ، والدكتورة تقوم بإجراءات استفاقتها ، وما أن أفاقت ووجدت رأسها على صدر أبيها ، حتى انخرطت في بكاء حار وصل درجة النحيب ، والرجل تتساقط قطرات الدموع من عينيه في صمت ، ويضمها إلى قلبه بلهفة مفجع عاجز عن أن يتجاوز عن شرفه الذي سلب ، ومستقبل ابنته الذي على وشك أن يتلاشى .

وبعد أن استقرت الأمور ،عاود المحاميان تراشقهما ، فهمس الرجل بصوت خفيض كسير :

• " انت غلطان يا حضرة الضابط ..."

وتعجب الجميع من هذا التطاول ، فالرجل لا يدل مظهره على أنه من ذوى النفوذ أو السلطان ، ويتهم ضابط بهذه البساطة ، لكن الضابط بذكائه ، أدرك أن الرجل هو والد منى ، وقد قام بتصرف لم يكن يتوقعه أحد ، فسايره :

• "في إيه يا أفندم .."

فنظر الرجل إلى الموجودين جميعا ، واحدا واحدا ، وركز نظره على من توقع أن يكونا والد الشاب ووالدته ، ثم قال :

• " في أثناء معاينتك لمكان الحادث ، كان لازم ، تثبت وجود مواد أسمنتية متناثرة ، يختلط بها بعض الحصى التي تستخدم في صناعة الطوب الأسمنتي ، وبناء عليه ، كان في استطاعتك أن تعرف أن إصابة المحروس ابنهما ، كانت نتيجة سقوط قالب طوب أسمنتي مغشوش ، يعني

الأسمنت اللي فيه قليل ، علشان كده الأفندي ما وقعش في مكان الإصابة مباشـــرة ، وإنمـا لنذالته ، ولأنه كان ينوى الهرب بجريمته الشنيعة ، استطاع الوصول إلى المكان الذي عثر عليه فيه ، وقالب الطوب اللي وقع على رأسه .. وياريته كان خد خبره هو واللي زيه ، تفتت حتت ، وضاع تحت الأرجل ، ولذلك لم يكن له من الأثر إلا قليل ، لم تستطع يا حضرة الضابط انت واللي معاك من ملاحظته ..."

وحاولت السيدة ميشو التعبير عن ألمها لتمنيات الرجل الذي كان من الواضح أنه والد مـــنى ، لابنها بالموت ، إلا أن الضابط قاطعها موجها سؤاله لوالد منى :

• " وقصارى الزرع بتاعتكم ...!"

فأجاب الرجل بنفس الهدوء :

• "أنا كسرتهم منذ مدة طويلة ، لما لقيت مهجة بنتي مصممة على اقتناء قط ، تبين لي أنه يتسبب في اتساخ الشقة من الطين اللي في قصارى الزرع ، واحنا ناس على قد حالنا ، لا عندنا خدم ، ولا حشم..."

وانطلقت السيدة ميشو متهمة الرجل بالكذب ، وأنهم قد أزالوا كل أثر لقصـــاري الـــزرع ، ليمحوا دليل إدانتهم بتسببهم في إصابة ابنها ، بهدف قتله والتخلص منه ، فتساءل الرجل بهـــدوء من يحاول ضبط أعصابه :

• " هو إحنا بينا وبين ابنك حاجة لا سمح الله ، علشان نقتله ولا نتخلص منه ! "

وأجاب زوجها بشيء من التعالي والتكبر :

• " الله .. هو سيادتك ما تعرفش والا إيه ... مش بنتك بتتهم ابني بأنه اغتصبها وإنها حـــامل ، وانه وعدها بالزواج وماطل.."

وكادت منى أن تنهار مرة أخرى .. إلا أن والدها هدأ من روعها :

• " هو برضك الهام يا عبد المنعم بك ... آسف باشا .. مش برضك بيندهو لك كده في البيـــت ..آسف في السراية .."

وتعجب الرجل من معرفته اسمه .. واللقب الذي ينادونه به في السراية ، وعلق :

• "طبعا الهام ... أنا ابني ما يعرفش الأشكال بتاعتكم دى ..."

وجن جنون الرجل ، لكنه حاول أن يتصنع الهدوء :

• " أنا بعاملك باحترام ... إيه لزوم اللخبطة دى ؟ "

وفجأة ارتفعت نبرة صوته كأنما هو أسد يزأر .. فأسرعت زوجته تغلق الباب :

• "أنا لولا عامل احترام للناس الموجودين كنت عرفتك مين اللي أشكال هلامية ليس لها طعم ، ولا معنى .."

وهم أن ينهض من مكانه ، فتشبثت به ابنته ، ووقفت زوجته والدكتورة في طريقه ، بينما فتح الباب ، ودخل الجراح بتقريره الذي ناوله للضابط الذي فضه وقرأ محتوياته بصوت مسموع ، وأعلن تأكيدا لكلام والد منى ، أن الإصابة بجسم أسمنتي هش ، وقع من ارتفاع حوالي عشرة أمتار ، وأن مدة العلاج عشرون يوما ، وأن المصاب بحالة جيدة ، وما أن أكمل الضابط قراءة التقرير ، حتى واجهه الأب :

• " أظن بناتي ملهومش عازه ..."

قالها بالصعيدية البحتة ، واستشعرت الأم وكذلك الدكتورة الخطر ، فاللهجة الصعيدية لا تأتي إلا بالعادات والعصبية الصعيدية ، ويا ويله يا سواد ليله ، ذلك الذي يقف أمامه ... ووجه كلامه لبناته :

• " وخري يا بت انت وهى عاد ... خذيهم يا جميلة وجعبزوا غاد ..."

وما كان لواحدة منهن أن تتوانى عن تنفيذ تعليماته ، بينما وجه كلامه للدكتورة سعاد :

• " معلهش بابنتي ، أنا تعبتك معايا .. "

وأمسك برأسها وقبل جبهتها .. وتعجبت البنتان ، وكذلك الأم ... ونظرت ميشو إلى زوجها نظرات شك وريبة ، بينما الضابط ، زادت حيرته ، فقد كانت المشكلة علاء وولاء ، وزينب وسعاد ، والآن من كان يظنها والدة منى ، اكتشف أنها ليست والدتها .. من تكون إذاً ؟ وعاجلهم الرجل حتى لا يطيل عليهم لحظات التعجب والدهشة ، فقدمها لهم :

• " الدكتورة سعاد .. بنت أختي ، لساها واصلة من أمريكا بعد ما حصلت على الدكتـــوراه ، وبدلا من إنها تعالج المرضى بما جاءت به من أساليب حديثة ، ضيعت وقتها علشـــان تعـالج مشكلة علاء أفندي اللي نازل اغتصاب في بنات الناس اللي ليس لهم طعم ولا معنى على رأي السيد الفاضل والده .. "

ثم وجه كلامه للمحامي حسنين ، طالبا منه إبلاغ الضابط بواقعة الاغتصاب ، فقال المحامي :

• " بناء على طلب موكلي السيد محمد عبد المؤمن الصقر ، الولي الشرعي لابنته منى ، فإنني أبلغ رسميا عن اغتصاب المدعو علاء عبد المنعم السلحدار لابنة موكلي الآنسة منى محمد عبد المؤمن ، باستخدام الحيلة والدهاء ، ذلك أنه وبتاريخ ١٤ مايو ، استغل المدعو عـــلاء الســلحدار خروج الآنسة منى من كلية الطب ، ورجاها الذهاب معه لإنقاذ عمته التي أصيبـــت بذبحـة صدريه .. وهناك قام بفعلته الشنعاء وذلك باستخدام مخدر أولا ، ثم دس في فمها اللبان اللعين الذي صدرته إسرائيل ضمن ما يصدرونه من وسائل الإفساد .. وحدث ما حدث ..."

وقاطعه محامي عائلة السلحدار الأستاذ لبيب :

• " ليس من حقك ..."

ولم يمهله والد منى :

• "بلا حق بلا باطل يا محامي الضلال ..."

وحاول المحامي الاعتراض ، طالبا من الضابط إثبات ذلك باعتباره تشهيرا وسب علـــني ، وإذا بالرجل في ثورة غضب عارمة وقد وقف منفعلا ، وأصابعه مشهرة نحو المحامي كأنها سيف مســلط عليه :

• " اثبت يا حضرة الضابط ، واثبت كمان إن البيه المحامي يشجع على الفسق والفجور ، وانـــه ساعد هذا المستهتر السعران على ارتكاب اكثر من جريمة اغتصاب ... "

ونظر إلى المحامي متوعدا :

• " إن شاء الله ، حخليك عبرة لكل محامٍ باع ضميره من أجل الفلوس ، حتى ولو كان ذلـــك على حساب حقوق الناس ، وكرامتهم ، وشرفهم .."

وحاول المحامى الدفاع عن نفسه ، فزأر الرجل :

• " حسابك معايا يا حضرة المحامى حيكون عسير ، وألا على إيه ، الولد إخوان خضرة حيقوموا بالواجب ، مش برضك خضرة من ضمن ضحاياك انت والمحروس .."

وما أن سمع المحامى اسم خضرة ، حتى اخضر لونه واصفر ، ونسي الحارس الخاص الذي عينـــه علاء خادما لمكتبه ، ودائما ما يكلفه بحمل حقيبته وملفات القضايا ، ولا يذهـــب إلى أي مكـــان بدونه ، بينما الرجل يكمل حديثه :

• " والا بمانه بنت عبد الجليل ... عائلة عبد الجليل مش حتسيبكم ، بس حد يقول لأهل الكفر الحكاية ، هم مش عارفين إيه اللي بيحصل ، لكن وحياتك حد بس يفهمـــهم الطبـــخ اللـــي بتطبخوه ، شوف بقى إيه اللي ممكن يحصل لكم ... مش انت بس ، لا .. وكمان اسم النـــبي حارسه وصاينه ، ننوس عين أمه وأبوه ... وطبعا الأمر لا يخلو من حاجه على الماشي للباشـــا والهانم مراته ..."

وصمت الرجل .. ثم أكمل :

• " هيه ... حتخرص انت وهو ..وهى .. وألا عندكم حاجة تقولوها ..."

ووقف الضابط لا يدرى ماذا يفعل في حفل الفضائح هذا .. وحاول تهدئـــة الرجـــل .. إلا أن الرجل تصاعدت ثورته .. بعد أن ضمن صمت المحامى ، وكذلك الباشا وزوجته ...ونادى بصوت عال :

• " يا ولد ... خليه يدخل .."

وفوجئ الجميع بشيخ وقور ، ومعه رجل آخر يحمل حقيبة ، وحيا الشيخ الجميع بتحية الإسلام ، وجلس ، وأمر حامل الحقيبة بفتحها ، ونادى:

• " أين العريس ؟"

وثار والد علاء ووالدته ... فقال الرجل :

• "شيل شنطتك يا شيخ طاهر ، وخد إجراءاتك يا حضرة الضابط .."

وعلق والد الشاب :

• " أيوه .. خد إجراءاتك يا حضرة الضابط .. أنا ابني شريف ، ولا يوجد ما يشينه .."

فقال الرجل باللهجة الصعيدية إياها :

• "ما هو شوف .. يا جواز الولد من البنت .. ياحتدخل انت والمحامى بتاعك السجن ، و ابنك مش حيفلت .. إن مكنش من الحادثة ، فيبقي من الإعدام ، وان فلت من الاثنين ، فمش حيفلت من ..."

وتماسك في آخر لحظة حتى لا يجرمه القانون بالتهديد ، وقال مسلما أمره إلى الله :

• " حيروح فين من عدالة ربنا ..."

فقال عبد المنعم :

• "أنا لا يشرفني نسبكم .."

ورد عليه عبد المؤمن :

• " ولا أنا وحياتك ... غيرش الظروف ..."

وبدأت أعصاب عبد المنعم تهتز بعنف :

• "أنا لا أوافق .. وخلي القضاء يأخذ مجراه ... طبيا لا يوجد شئ اسمه اغتصاب .."

وضحك عبد المؤمن من قلبه :

• " ده صح .. لو لم يكن لدى الدليل .. اللي حوديكو كلكم في ستين داهية ، انت والمحامى المحترم والمحروس ابنك ..."

ووجه كلامه للضابط :

• "شوف شغلك يا حضرة الضابط .. مش عارف، الأستاذ المحامي حيعمل إيه .. يوكل محام ثان عنه .. لا أعتقد إن فيه محامى عنده شرف ونخوة ورجولة .. يقبل أن يدافع عن ذئاب أعواض على شاكلتكم ... دى حتبقى قضية الموسم .. هي صحيح فضيحة لبنتي !!!.. لكن حيكون التراب طواها .. مش كانت ناوية تنتحر ... والعناية الإلهية أنقذتها .. ندعى العناية الإلهية

تسيبها .. تغرق .. وألا تروح في ستين داهية حتى ... واحنا ... نرجع ثاني البلد .. وبلا علام بنات بلا زفت .... "

ثم وضع يده على شاربه ، وقال بانفعال واضح ، وبأسلوب هستيري :

- " وشرفي اللي سرقتوه مني .... لأبيعكم اللي وراكم واللي قدامكم ... وأخلى اللي ما يشترى يتفرج ...."

وبعنجهية زائفة ... قال عبد المنعم :

- "الجعجعة الكذابة دى مش حتهمني ..."

بينما استطرد عبد المؤمن ، وكأنه لم يسمع شيئا :

- " بس أرجوك يا حضرة الضابط ، تعمل تفتيش وبسرعة ، لبيت سعادة الباشـــا .. علشـــان يضبطوا اللبان الإسرائيلي ... "

ونظر إلى عبد المنعم وقال :

- " تحب أقول لحضرة الضابط بتعمل به إيه ، مع الست .... و...."

واهتزت أعصاب عبد المنعم أكثر ... بينما استرسل عبد المؤمن :

- "وتفتيش الشقة المفروشة في عمارهم بالدقى .. والتحفظ على أفلام الفيديو اللـــي فيـــها ، وكمان اللي في مكتب حضرة المحامى المحترم ، وهذه هي أدلة الاتهام لهم جميعـــا .. الـــواد .. وأبوه .. والمحامى بتاعهم .. وكفاية كده .. ربنا يستر على عبيده ، والتفتيش ده يتم دلوقـــتي وفورا ، مع التحفظ عليهم قبل أن يحاولوا تبديد هذه الأدلة الغالية .. الغالية جدا .."

وقبل أن ينهى حديثه .. قال عبد المنعم والمحامى لبيب في وقت واحد وبكلمات مختلفة ، ما معناه أنهما مستعدان لتنفيذ كل ما يأمر به ، وأمر عبد المؤمن بإدخال الشيخ المأذون ، وكذلك زوجتـــه وبناته ، وسأل المأذون :

- " أين العريس ؟ "

ورد المحامي لبيب بأنه وكيله ، فسأله المأذون عن التوكيل ، فأخرج المحامي من حقيبته توكيل رسمي ، اطلع عليه المأذون الذي وافق ، وسأل العروس التي أجابت بأن والدها هو وكيلها ، واعترض والد منى في الحال :

• "انتم مش بتقولوا إن العريس فاق من العملية ، وان حالته مطمئنة .."

وقبل أن يكمل إجراءات العقد ، دخلت ممرضة تسأل عن من تسمى منى ، وقالت إن علاء يريدها ، ونظر الجميع إلى والدها ، الذي صرح لها بالذهاب مع والدها وأختها والدكتورة سعاد ، بينما تمسكت ميشو هانم بضرورة الذهاب معهم ، ورأى الضابط أن ذهابه هام ، فهو أولا يريد أن يعرف الحقيقة ، وثانيا هو يعد رسالة ماجستير عن السلوك البشرى في المواقف الحرجة ، ولا يوجد أكثر من هذا الموقف حرجا ، بينما رأى الباقون أن ذهابهم هام ، ولو من بعيد .

أمسك علاء بيدي منى ، التي سلمتها له بدون حرج ، وحاول الشاب أن يقبلها نادما :

• " أرجوك يا منى تسامحيني .. أنا غلطت في حقك .. وراضي بالحكم اللي تحكمي به علي .. أنا كنت فاكرك زي باقي البنات ، علشان كده كنت بتهرب من الجواز منك .. وبعد الأحداث دى ، بأرجوكي توافقي على الجواز .. وإذا كان دلوقت حالا يبقى أفضل . "

ثم نظر إلى والدته وقال :

• " أرجوك يا ماما تبعتي تجيبي المأذون حالا .."

ودخل المأذون ... وأتم عقد قران شاب مصاب في رأسه يرقد في المستشفى ، على فتاه محجبة ، في حضور ضابط بوليس ، ومحامي الطرفين ، حيث اختار والد منى الأستاذ حسنين محامي الدكتورة سعاد والضابط ليكونا شاهدا العقد ، فقد تيقن في وجدانه أن شهادة الأستاذ لبيب محامي عائلة السلحدار غير شرعية ، وخرج الجميع من المستشفى ، رؤوسهم خفيضة ، وقلوبهم كسيرة ، وحاول الضابط إن يضفي شيئا من الابتسام ، لكنه أمسك ، فقد كان الجو مشحونا بالحزن والأسى ، لدرجة أن العروس كانت تذرف الدموع ... ووالدها يبتلع حزنه بأسى ، وقد احتبست عبراته ، فامتنع حتى عن سلام المغادرة ، والسيدة ميشو تتوعد زوجها بكل الصمت الذي يعبر عن فجيعتها في الرجل الذي أحبته ، وتتصور أنه كان مخلصا لها ، وتفكر ، وتدبر ، لمعرفة ماذا في شرائط الفيديو وما بها من فضائح تدينه ، أما الأستاذ لبيب المحامي ، فقد أخذ يلعن ذلك اليوم

الذي عرفهم فيه ، وصمم على أن يحرق ما بمكتبه من شرائط كفيلة بأن تدمر مستقبله ، بل وحاضره أيضا ، بينما الضابط يضرب أخماسا في أسداس ، يتعجب من هذا الرجل البسيط القادم من أقصى الصعيد ، مع ما يمثله أهل الصعيد للكثيرين من سذاجة ، وعفوية جعلتهم عرضة للعديد من السخافات التي يطلقونها عليهم ، والعجيب أن الكثيرين يضحكون عليها ، ونسوا أمر الله أن لا يسخر قوم من قوم . كيف استطاع هذا الرجل البسيط أن يجمع كل هذه المعلومات عن الخصم ؟ ، وكيف استطاع استخدام هذه المعلومات وتسخيرها بما يحقق أغراضه المشروعة ، ويستخلص حقوق ابنته ؟ ، وأن يعالج مشكلتها بعيدا عن العبارات التي تتردد على ألسنة العامة " النار ولا العار .. وشرف البنت زي عود الكبريت ..." وكل هذه العبارات التي تؤكد على ضرورة قتلها ، وربما وأدها ، كيف لهذا الرجل أن يتحمل كل هذا الهوان ، ويعبر عن حبه لابنته ، وعطفه عليها ، ويعرف كيف يصون حقوقها وكرامتها ، أما والدة منى ، فقد سارت ورأسها إلى الأرض ، لم ترفعه منذ أن علمت بالخبر في المستشفى ، ودمعة ساخنة تحجرت في مقلتيها ، فلا انطلقت لتخفف من معاناتها وقهرها ، ولا ابتعدت لترى عينيها الطريق ، فقد استندت إلى ذراع ابنتها منى التي استندت هي الأخرى إلى ذراع أختها منال ، ولا أحد يدرى من يواسى من ؟

وازدادت حيرة الضابط ، الوجوه مألوفة له ، فيما عدا الدكتورة سعاد ، فالوالدة كمن رآها من قبل ، أو ربما هي قريبة الشبه بواحدة ممن حوله ، والرجل يثير فيه الكثير من التساؤلات ، فلا يمكن أن يكون بالسذاجة التي تظهره بها ملابسه ، وعباراته وتكتيكه ، لا يصدران إلا عن رجل نال قسطا وافرا من التعليم ، إلى جانب خبرة بالحياة ، كما أن تصرفه معه يؤكد سابق معرفته به ، لكن أين ؟ هذا ما يتمنى لو يعرفه ، خاصة ذلك التعاطف العجيب الذي لازمه منذ اللحظة الأولى التي رأى فيها منال ، وأيضا منى ، فقد شعر بأنهن قريبات جدا إليه ، لا يدري كيف ؟ .

ركب عبد المنعم وزوجته ميشو سيارتهما التي كانت في انتظارهما مع السائق ، وركب كل من المحاميين سيارته ، والضابط ركب سيارة الشرطة التي كانت في انتظاره ، ووقف عبد المؤمن يجول بناظريه عله يعثر على تاكسي .. أو أي شئ ينتشله من هذا المكان ، لم يفكر أحدهم أن يعرض عليه الركوب معه ، أو لعلهم تصوروا أنه يمتلك سيارة مثلما هم ، فمن يملكون السيارات يتصورون أن الكل يملك سيارة مثلهم ، تماما مثلما هو الشبعان ، لا يتصور أن هناك جوعى ، والغني .. يتصور أن من يسأله مالا يريد أن يزداد ثراء على حسابه ، وكل لاه فيما سخره الله له ،

وما هي إلا لحظات حتى لحقت بهم الدكتورة سعاد بسيارتها ، فتمتم الرجـــل بكلمـــات الحمـــد والشكر لله سبحانه وتعالى ، مبديا امتنانه لابنة أخته على انتشالهم من هذا المكان ، فقد ســـاوره شعور وكأنما خلق الله جميعا ينظرون إليه باحتقار ، أو بتعاطف ، لا يهم ، فإنه كـــان يـــرى كـــل النظرات مصوبة نحوه ، ولا تحمل سوى معنى واحدا ، الاستهزاء من رجل تهاون في شرفه الـــذي سلبه شاب مستهتر لم يراع حرمة دين ولا أخلاق ، لكن ابنته هي الملامة ، كيف لها أن تذهب مع شاب أجنبي أيا كانت نواياه إلى أي مكان حتى ولو كان دار عبادة ، إننا في زمن يخشى الإنسان فيه على نفسه من نفسه ، وذكر قوله سبحانه وتعـــالى " واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون " وقوله جل وعلا " واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب " وخامره شعور طيب ، أن الله قد استجاب لدعائه ، ومكنه من استخلاص حق ابنته مـــن شاب مستهتر ، شجعه ثراء ووجاهة عائلته ومحامي منعدم الضمير ، على الاستهانة بأعراض الناس ، وأمر ابنة أخته فجلست وسط ابنتيه على الكنبة الخلفية ، بينما تولى هو قيادة السيارة ، وزوجته إلى جواره ، وفي نيته التوجه إلى أحد بيوت الله ليصلوا له شكرا على نعمه ، لكن حنينه أخـــذه إلى المسجد الذي بناه والده الشيخ عبد المؤمن الصقر ، في منطقة الأهرام ، بداية حياتهم عندما انتقلوا من بلدتهم إلى القاهرة ، والأرض التي شاهدت سعادتهم ، وزواجه من حبيبة قلبه نورهان الجميلة ، التي أسماها بهذا الاسم ، فسعدت به ونسيت اسم نورهان .

قال لابنتيه وابنة أخته ليعيد إليهن الابتسام ، ويبعد كابوس الحزن والكآبة :

- " يمكن تكونوا ما تعرفوش إننا كنا ساكنين هنا ، وان كلكم اتولدتم هنا ، حتى أنت يا ســـعاد ، بس الدار بقي تحولت لأكوام الخرسانة والحجارة اللي انتو شايفينها دي ، وكمـــــان الأرض ، إحنا كان لينا أرض هنا مساحتها أكثر من عشرة فدن ، بس بقى الله يسامح اللي كانوا السبب في هجرنا لبيوتنا وأرضنا في البلد وهنا .."

ونظرت الفتيات إلى بعضهن البعض ، إن أبيهما لديه أسرار كثيرة ، لا تعرف أي منهما شيئا عنها ، ليته يحكي لهما كل شئ ، فيكفي أنهما كانتا تظنان أنهن وحيدات في هذا العالم ، فإذا بهما تجـــدان أن لهن ابنة خال ، ومن غيرها ربما هناك الكثيرون من أبناء وبنات العم والخال ، ثم مـــاذا بعـــد ، وهمست منال في أذن سعاد تستحثها أن تجعل أباهما يجود بما عنده من أسرار عن عائلتهما ، فالبنتان لا تعرفان شيئا عن عائلتهما ، لا عائلة الأب ولا عائلة الأم ، كل ما تذكره منال ، أنهـــا عندمـــا

قرأت اسم الأم في شهادة ميلادها ، ووجدته مختلفا عما يناديه بها أبوها ، تساءلت بينها وبين نفسها ، لكنها لم تجرؤ على سؤال أبيها أو أمها . وبعد أن فرغوا من الصلاة ، فوجئوا بالكثيرين الذين يصافحون الوالد بحنين وشوق ، انهم يعرفونه وهو يعرفهم ، وكان أول سؤال تبادر لذهن الجميع بمجرد أن استقرت بهم الأمور في السيارة ، من هؤلاء ، ومتى تعرف بهم الوالد ؟ فقال الرجل ببساطة :

- " ألم أخبركن بأننا كنا ساكنين هنا ، والجامع ده اللي بناه جدكم الشيخ عبد المؤمن الصقر رحمه الله ، والشيخ عبد المؤمن الصقر كان خريج الأزهر الشريف ، وحصل على العالمية منه ، اللي بيسموها النهارده الدكتوراه ، واحنا منتظرين الدكتورة منى والدكتورة منال والدكتورة مهجة لما يحصلن هن أيضا على الدكتوراه .."

قالها ليشجع ابنته على نسيان ما حدث ، والاستعداد لما هو آت ، وأن المطلوب منها الدكتوراه في الطب ، وليس البكالوريوس فقط ، وهناك القدوة ، وهناك العينة ، الجد دكتوراه ، وابنة العمة دكتوراه ، ولم يبقى سواهن ، منى ومنال ومهجة ، وإن شاء الله كل منهن تحصل على الدكتوراه ، فهذه كانت أمنية الجدين ، الشيخ عبد المؤمن الصقر ، وعصمت باشا الأناضولي ، وتعجبت الفتاتان من سماعهما للقب باشا الذي جاء بعد اسم جدهما لأمهما ، وكانت منال على وشك أن تسأل والدها عن قصة الباشوية التي أطلقها على جدها ، وهل كان باشا حقيقة ، أم أنها باشوية مثل عبد المنعم باشا السلحدار ، ربما كانت تريد أن تفهم منى بأن جدهن كان باشا حقيقي ، وبذلك فهي أفضل من علاء أفندي بتاعها ، يعني لا يستطيع علاء أن يطاولها نسبا ، لكنها تذكرت أنها سمعت أو قرأت اسم الأناضولي هذا قبل ذلك ، فتذكرت إسم والدتها في شهادة الميلاد ، " نورهان رفعت الأناضولي " ، وفجأة تذكرت إسم حسام مدحت رفعت الأناضولي ، فهو اسم لن تنساه أبدا. لكن الأب لم يمهلها ، فقد ركز على اهتمام منى بصحتها أولا ، وبعد ذلك لا شئ سوى الدراسة ، فما بقي من أيام قليلة على الامتحانات تتطلب الكثير من الجهد ، وعلى الدكتورة سعاد أن تهتم بصحتها وتراعيها في حملها ومذاكرتها . وهنا سألته سعاد سؤالا مباشرا :

- " حضرتك عايز الجنين يا خالي ..؟"

وأجاب الرجل بسرعة ، وهو يحاول أن يخفف من نبرة صوته :

• " ودي عايزة سؤال يا دكتورة ، حد يرفض نعمة ربنا ، صحيح هو بدأ خطأ ، لكن الحمـد لله دلوقتي بقي ابن حلال مائة بالمائة ، صحيح أنا غير راضي عن الناس دول ، لكن ما باليد حيلـة ، ومين عارف يمكن اللي تخاف منه ما يطلعش أحسن منه ، ويمكن بعد الدرس القاسي اللـــي أخذوه النهاردة ، ينصلح حالهم .."

فعلقت سعاد بشيء من التفاكه :

• " الحق يا خالي ده درس ، مش متهيئ لي إن عبد المنعم بك حيطلع منه سليم ، شفت حضرتك مراته كانت بتبص له إزاى ، زى ما تكون عايزة تأكله بنظراتها ، وبتستحلف له ؟"

لكن خالها نظر إليها مؤنبا ، ثم ما لبث أن قهقه بصوت عال ، وكأنما ليزيل أثر التوتر من الجميع ، فقد فهم مغزى كلمات ابنة أخته ، فأراد أن لا يحرجها في أول تعرفها على عائلته :

• " وانت عارفة يا دكتورة إني أنا بأبص على الحريم ! لكن الحقيقة أنا ما قدرتش أمنع نفسي من مشاهدة أثر كلامي على وشها ، ووشه هو كمان ، وشه احمر وبقى زي الجزرة .."

ثم نظر إلى بناته وزوجته ، وقال ممازحا :

• " طبعا انتو ما تعرفوش الدكتورة سعاد بنت عمتكم ، دي ثاني طبيبة تحصل على الدكتوراه من أمريكا ، سبقها الدكتور طه ولد أخوى ، ربنا يرجعه لنا بالسلامة .."

ونظرت الفتاتان إلى الدكتورة سعاد ، وإلى والدهما نظرة عتاب ، وقالتا في وقت واحد ، وربمـا بعبارات مختلفة ، ولكنها تحمل نفس المعنى :

• " لينا بنت عمه وابن عم وما نعرفهمش ، ويا ترى مين ثاني ما نعرفوش ..؟ "

واستمهلهما الرجل الحنون حتى يجد الوقت المناسب ويقول لهما كل ما ترغبان معرفته ، بينمـا انهالت الفتاتان على ابنة عمتهما تقبيلا وأحضانا من الأعماق ، إن من كانتا تظنانها سـيدة طيبـة متبرعة بأن تتولى حل مشكلة منى ، تبين أنها ابنة عمتهما ، وقد استعان بها والدهما لكي تنقذ ابنتـه من حماقة الانتحار ، وتساعده في استخلاص حقها من هذا المستهتر الذي نال جزاءه في الدنيـا ، وتعجبت الفتاتان أنى لأبيهما بكل هذه المعلومات عن عائلة السلحدار ، وكيـف عـرف بـأمر الأشرطة ، وماذا في هذه الأشرطة ، وأسرعت منى تواري وجهها خجلا ، خوفا من أن تكون قـد

ظهرت في أي من هذه الأشرطة ، ومادام أبوها يعرف هذه الأشرطة ، فلا بد وأنه رآها ، ولو رآها ، فلا بد وأنه رأى ما حدث لابنته ، ولابد .. ولابد .. ولابد .. وكلما استرسلت في تصوراتها فيما يكون أبوها قد رآه عنها ، تداري وجهها خجلا ، ثم سرحت قليلا فيمن يمكن أن يكون قد رأى هذه الأشرطة أيضا ، لابد وأن عبد المنعم بك والمحامي يكونان أول من رآهما بعد علاء ، يالها من فضيحة ، وأي فضيحة ، ثم تذكرت أنهما تزوجا ، حقيقة أنه أكره على زواجه منها سواء كان ذلك بما فعله والدها مع أبويه ، أو أنه فعله بعد أن تحطم تحت هذا الثقل الذي سقط فوق رأسه ، المهم أنهما تزوجا ، وليحكي لها فيما بعد ، قصة الأشرطة ، ومن آخر رأى تلك العلاقة في هذه الأشرطة . ولاحظت منال شرود أختها ، فهمست في أذنها تستوضح الأسباب ، وسمعت سعاد همسهما ، فقالت بكياسة شديدة ، أنها لم تكن تعرف بأمر هذه الأشرطة إلا عندما أعلن عنها خالها ، وبهذا تكون قد أخرجت نفسها ممن يحتمل إطلاعهم على علاقتها الآثمة بعلاء ، وفي نفس الوقت تطمئن منى أن أباها حتى ولو كان رآها في هذه الأشرطة ، فليس هذا بالعيب الذي تخشاه ، المهم أن لا يكون هناك آخرون رأوها ممن يعرفونها ، وعادت منى تواري وجهها خجلا والدموع تنهمر من عينيها .

لم يغب عن الأب ما يدور بين البنات في الكنبة الخلفية للسيارة ، وتحقق من أن منى التي عرفت بموضوع الأشرطة عن طريق ما قاله والدها للضابط ، وأنها من حيائها وعفتها وقوة إيمانها ، تخشى أن يرى أى انسان ما قد يكون صور لها من أشرطة ، وأن أباها قد يكون رآها واحتفظ بها ليثبت جريمة الإغتصاب . فقال بضعا من الكلمات التي تطمئن منى من مخاوفها ، مشيرا إلى ما يفهم منه أنه استولى على الأشرطة الخاصة بها وحطمها كلية ، فلا هي بين أشرطة شقة الأنس ، وكذلك ليست ضمن أشرطة محامي الضلال .

ما أن غادره الجميع ، ووجد نفسه وحيدا إلا من الممرضة المكلفة بالسهر عليه وملاحظة حالته ، حتى بدأت أحلام اليقظة تسعده ، لقد ارتبط أخيرا ، أصبح زوجا ، وسيكون له ابن أو ابنة بعد عدة شهور ، يا له من شعور جميل ، لم يكن يشعر به من قبل ، لكنه سعيد به الآن ، وأخذ يبحث في ذاكرته التي أيقظها ذلك الحجر الذي كاد يذهب بحياته ، وهل حياته كانت حياة ، كيف له أن يسعد بامرأة يشاركه فيها غيره ، حتى ولو كان معلم الفساد ، لكن منى شئ آخر ، إنها ملاك طاهر لوثه هو بعبثه ومجونه ، لعله أحبها منذ أن رآها ، ولكن شيطان الشر زين له أن كل شئ سهل المنال ، وما عليه إلا أن يتحلى ببعض الصبر ، واتبع معها هذا الأسلوب حتى أوقع بها بوسائله الخبيثة ، لكنها ملاكه الذي لم يستطع أن يدنسه وهي في وعيها ، وحافظت على نفسها أن تغيب عن الوعي حتى لا تدنس ثانية ، لا .. بل إنها كانت تصطحب معها أحد أبناء العمومة إياهم في كل مرة تحضر فيها إليه ، لتقنعه بستر الفضيحة ، والفضيحة لم تستر إلا بعد أن أصبحت سيرة يتغنى بها الكثيرون ممن في المستشفى ، وذلك الضابط الذي شهد على العقد ، والمحاميان ووالديه ووالديها ، وتلك السيدة التي كانوا ينادونها بالدكتورة ، وربما كثيرون غيرهم ، المهم أنها الآن أصبحت زوجته ، والفضيحة أصبحت شرعا ، فهل تراه سعيد بها زوجة له ، وأم لمولوده أيا كان ، ذكرا أو أنثى .. لا إنه يريده ذكرا ، فهو يخشى إن جاءته أنثى ، فقد يعاني ما عاناه والد منى ، أو والد خضره ، أو والد بهانه .. لا .. إنه لا يريد أن يعاني مثلهم ، ألم يعرف معنى المعاناة إلا الآن ؟ لعلها صحوة الضمير التي تأتي دائما بعد فوات الأوان .

ولم يستطع أن ينام ، إذ لا تمر لحظة دون أن يوقظ الممرضة المسؤولة ، يسألها رأيها في عروسته ، ويصف لها جمالها ويزيد ويعيد بل ويتغنى به ، والممرضة المسكينة لا تستطيع إلا أن توافقه ، فبعد مجهود يوم كامل في عمل دائب ، هي في حاجة إلى بعض الراحة ، ظنوا أنه سينام حتى الصباح على الأقل ، لكنه كما القط ، بسبعة أرواح ، ولا يهمد ، وعيناها المسكينة تكادان تذهبان في سبات عميق ، وهو لا يفتأ يسألها فيوقظها ، ولما لم يجد منها نفعا ، لم ينتظر شروق الشمس ، أو حضور والديه لزيارته ، بل طلب من الممرضة الهاتف وخاطبهما بشأن زوجته ، ولتصوره أن حالة عائلتها المالية غير متيسرة ، بنتان في كليات عملية من كليات القمة ، والمصروفات التي لا ترحم ، فلا يمكن لها أن تكون في استقرار نفسي ومادي يمكنها من إنجاب طفله الأول في صحة جيدة ،

وأكدت والدته على كلامه ، فقد زارهم في البيت ، وهي تعلم أن شقتهم فوق سطوح إحدى العمارات ، وهو يعرف ذلك ، فقد وقع الحجر فوق رأسه أسفل تلك العمارة ، ومن ثم فإن قدراهم المالية لابد وأنها غير متيسرة ، وهناك جنين في أحشائها ، هذا الجنين ابنه ، ولابد له أن يبدأ حياته في عز أبيه ، لذلك فقد طلب منهما أن يلحا في طلبها للإقامة معهما في الفيلا ، وبذلك يمكن أن يطمئن عليها ، ويراها دائما ، فقد وحشته منذ أن بارحته حتى تلك اللحظة ، لكنها أبدا لم تبعد عن فكره ، بهذه البساطة التي تتمثل فيها طيبتها وسذاجتها ، بالنظارات الطبية التي تضعها على عينيها فتكسبهما جمالا فوق جمالهما الطبيعي ، حتى لكأنه أصبح يحب النظارات الطبية من أجلها ، إنه لا يدري ، هل كان دائما يحبها ولكن نظرا لانغماسه في حياة الضياع التي كان يحياها لم يتح له قلبه الاستدلال عليها حبيبة وزوجة ؟ وجاءت هذه الحادثة لتعيد إليه أمورا كثيرة ، أهمها التوازن الذي فقده ، أو ربما مع الهدوء النفسي بالمستشفى ، بدأ يرى ما لم يكن يراه في جريه وراء البنات ، وسعيه وراء كل ما هو محرم .

وصادف طلب علاء ، ما سبق لعبد المنعم وزوجته التداول بشأنه ، فقد أكد لهما الأطباء أن الإصابة ليست بالبساطة التي عولجت بها ، وأن حالته ربما لن تعود إلى سابق عهدها ، فربما يكون لهذا الحادث تأثيره على بعض المراكز الهامة في المخ ، وفي هذه الحالة ، فقد لا يتمكن من الإنجاب قبل فترة قد تمتد إلى سنوات ، وربما لا يتمكن من الإنجاب بشكل طبيعي ، وهذا ما جعلهما يفكران جديا في ابنه من منى ، فقد يكون وحيده إذا لم تتحسن حالته ، ومهما كانت الظروف ، فإن الحل الأمثل هو في المحافظة على هذا الوحيد حتى ولو كانت عائلة أمه مهما كانت ، وجاء طلب علاء لكي يسرعا في اتخاذ إجراءات فعالة وسريعة للحفاظ على هذا الجنين .

لذلك لم ينتظر عبد المنعم بك حتى تشرق الشمس ، واتصل من فوره بالضابط حسام يرجوه أن يتوسط له عند الحاج محمد ، لينفذ طلبات ابنه . ومن حسن الحظ أن الضابط حسام كان في نوبتجية ، ولذلك مر عليهم قبل ذهابه إلى بيته ، فالحاج محمد يعني منال ، ومنال ملكت عليه تفكيره منذ أن رآها ، وتمكنت من قلبه بعد أن حادثها ، وهام بها حبا وولعا بعد أن رفضت السلام عليه لتدينها ، وقرر الزواج منها مهما كانت الظروف ، بعد أن لاحظ تصرفاها في مشكلة أختها ، وازداد اقتناعا بعائلتها بعد أن رأى والدها وتصرفاته التي ما كان يمكن أن يتصور حدوثها من أحد رجالات الصعيد ، أما عن والدها ، فقد تحقق أنها تشبه أخته صفيه الخالق الناطق ، لولا فرق السن

، وشعر بشيء ما يجذبه إلى هذه العائلة ، لا يدريه ، ولكنه كان قويا بالقدر الذي جعله يبادر لتلبية طلب عبد المنعم بمجرد أن اتصل به ، فهو في خدمة أي إنسان يدعوه للاقتراب من حبيبة قلبه منال ، أو التحدث إليها ، وكم يتمنى لو أنها هي التي تحادثه في التليفون ، تصور أنه يمكنـــه أن يبثـــها حبـــه بمجرد أن يسمع صوتها عبر الهاتف ، ثم يشد أسلاك الهاتف ، ربما تشدها معها فتأتي بها إليه ، أو تحمله إليها ، وشعر بخيبة أمل أن العلم مازال عاجزا عن أن ينجز ما تجري الأبحاث بشأنه ، وأن يتمكن من أن ينقل الإنسان عبر أسلاك الهاتف ، كما استطاع أن ينقل صوتـــه أولا ثم صورتـــه ورسائله المكتوبة بعد ذلك .

وفوجئ الحاج محمد بجرس الهاتف يدق في الصباح الباكر ، كان الرجل قد انتـــهى لتـــوه مـــن صـــلاة الفجر والنوافل ، وقراءة القرآن ، وبدأ ورد التسبيح ، الذي تعود عليه منذ أن كـــان في الكتاب وهو صغير يعلمه أبوه الشيخ عبد المؤمن إمام الجامع ، وتعجب أن يكون ضابط البوليـــس هو المتحدث :

• " خير يا حضرة الضابط .."

فقال حسام بكل أدب واحترام :

• "أرجو إني مكنش أزعجت سيادتك والا حاجة .."

فجامله الحاج محمد ، حتى لا يشعره بالإحراج :

• " لا مفيش إزعاج .."

لكن حسام أراد أن يؤكد أنه مضطر لهذا الاتصال التليفوني :

• "الحقيقة أنا محرج .. لكن بقى عبد المنعم بلك رجاني الاتصال بسعادتك .."

وقاطعه الرجل غاضبا :

• " هو أنا مش حاخلص من عبد المنعم وعائلته .."

وحاول الضابط تهدئته ، فاستدرك الرجل :

• "أنا آسف يا ابني .. بس الجماعة دول سيرتهم بتعكنني .."

وشرح حسام الموضوع باختصار ، وهو أن علاء يستسمحه لو أن منى تعيش في بيتها ، فمادامت قد أصبحت زوجته ، فهو مكلف بالإنفاق عليها وعلى جنينه الذي تحمله منه ، وتعجب الحاج محمد من هذا الطلب الغريب ، وسأل الضابط إن كان عبد المنعم بك طلب منه ذلك بصفة شخصية ، أم بصفته الرسمية ؟ واستخدم الضابط كل لباقته ، ليشرح له أبعاد المسألة ، وأن منى الآن زوجة علاء بصفة رسمية ، وأنه هو شخصيا شاهد على العقد ، وإقامتها في بيت الزوجية أمر حتمي ، ولم يتمالك الحاج محمد أعصابه ، فانطلقت الكلمات من فمه دون أن يستطيع التحكم فيها :

• " هو فاكر انه اشتراها .. أي بيت اللي بيتكلموا عليه .. شقة الأنس اللي الواد وأبوه والمحامى عاملنها أرد خانة .. والا سراية سى عبد المنعم باشا وحرمه المصون ، علشان بنتي تتعامل فيها معاملة .. مش حقول خدامه ، لكن بالقطع من الدرجة الثانية وربما الثالثة أو الرابعة .. لا يا حسام بك .. انت راجل تعرف الأصول .. الطلب ده مرفوض كلية .."

وحاول الضابط أن يشرح له أن ابنته ستكون معززة مكرمة ، وستكون الكلمة كلمتها والأمر أمرها ، وشعر الحاج محمد أنه ربما تكون عائلة علاء هي التي تلقنه كل هذه العبارات ، خاصة وأن الضابط أخذ يردد رجاءه الشخصي طالبا موافقته ، ولكي يحسم الأمور ، استأذنه أن يحضر لتناول القهوة معه ، إلا إذا كان لا يرغب في رؤيته هو أيضا ، ولم يمهله لكي يرفض ، فلم يملك الرجل إلا أن يرحب به .

من حسن حظ الضابط حسام ، أن الدكتورة سعاد كانت على وشك الدخول إلى المصعد ، فقفز السلالم حتى يكون إلى جوارها ، وساعدها في حمل ما كان معها ، واستقبلهما الحاج محمد بالترحاب ، ونظر إلى الدكتورة سعاد لائما تصميمها إحضار الإفطار معها ، والمسكينة تخفي وجهها ... ربما لكي لا يلمح دمعة ترقرقت في عينيها ، ودخلت سعاد المطبخ ، وتعاون الجميع معها في إعداده . وصمم الحاج محمد أن يشاركهم الضابط حسام طعام الإفطار ، ولما حاول التهرب بحجة أنه لا يفطر ، وباعتبار أن غالبية شباب هذه الأيام لا يتناولون طعام الإفطار ، نتيجة للسهر مع برامج التليفزيون وأفلام الفيديو والنوم المتأخر جدا ، ربما إلى ما بعد نسمات صباح اليوم التالي ، فمن غير المعقول أن يكون هناك قابلية لطعام أو خلافه ، خاصة مع التدخين الذي هو آفة الآفات

، والمسبب المباشر في فقدانهم للشهية ، ولم يرحمه الحاج محمد ، أعطاه محاضرة في أهميـــة إفطـار الصباح الباكر ، بعد استقبال اليوم بصلاة الفجر ، والتسبيح لله سبحانه وتعالى .

كانت عيناه تجولان المكان بحثا عنها ، وأخيرا لمحها وهى تعد الأطباق على طاولة الطعام ، لم يكن يتصور أنها على هذا الجانب من الجمال ، فبعد أن زال التوتر ، ولحظات الخوف الـتي اسـتبدت بالعائلة كلها ، من اتهام في جريمة ، إلى كشف فضيحة الاغتصاب ، إلى زواج صامت كأنه جنازة ، كل هذه الأمور أصابت وجهها الصبوح بغلالة من الغم أخفت خلفها معالم الجمال الرقيق الهامس ، ذلك النوع من الجمال الذي يتسلل إلى القلب ببطء مقنع يأتي بإعمال العقل ، بعيدا عن الهـوى الناتج من الانبهار بجمال صنعته وسائل التجميل ومواده التي تتلف فطرة الله ، وبهرجة مغالى فيـها تجعل المرأة تبدو وكأنها سلعة في سوق النخاسة . ومن حسن حظه أنها خرجت بدون حجاب ، فقد كانت تتصرف على طبيعتها ، ولا تعرف أن هناك رجل غريب ، ورأى شعرها الكستنائي الطويل الذي يغطى الأكتاف ، مسترسل إلى ما بعد منتصف الظهر ، وكأنه خيوط متراصة في نسيج متناغم ، لم تشعر بوجوده في بادئ الأمر ، وعندما وجه إليها تحية رقيقة ، حملت معها بعض التعابير الـتي لمست شغاف قلبها ، فرت مسرعة لتضع الخمار ، لكن هذا لم يفت الدكتورة سعاد ، فابتسمت لها عندما عادت ، وأومأت لها برأسها ، وكأنما تقول لها ، " ما يقع إلا الشاطر ". كان الحاج محمـد منهمكا في تلاوة دعاء الطعام ، وأفراد العائلة يرددونه خلفه كالجوقـة ، شـئ جديـد لم يألفـه الضـابط من قبل ، العائلة تتجمع على طعام الإفطار ، تدعوا دعاء الطعام الذي كان يظنه بدعـة أمريكية لا يراها إلا في أفلامهم ، ولاحظهم وهم يناقشون أمورهم أثناء الطعام ، وليس الانهماك في محاولة ازدراد أكبر قدر ممكن منه ولو على حساب الآخرين هو الشاغل الأول ، كما يلاحظه مـن أبيه ، وبعد أن أنهت مهجة الابنة الصغرى طعامها ، وذهبت تستعد لمدرستها ، قال الوالد لمـنى ، وقد اتسمت عباراته بالجدية ، وهي تحمل لها مفهوم الرد بعدم الموافقة ، فلا يكون له دخل فيها :

• " جوزك عايزك تروحي بيته ... إيه رأيك ؟ "

وطأطأت الفتاة رأسها .. فاستحثها الوالد أن تفصح :

• " هذه الأمور لا يصلح الخجل في معالجتها .. "

وبدأ محاضرة طويلة ضمنها كل ما يدور في رأسه :

• " أنا في الحقيقة لا أحب السرقة ، ولا أحب الطعن من الخلف ، والأفندى عمل الاثنين ، سرقني ، وطعني من الخلف ، وهو وان كان استطاع الوصول لابنتي بالحيلة ، فلن تكون له بعد ذلك ، والزواج للهروب من الفضيحة فقط ، وتصحيح غلط ، والامتحانات قربت ، ومنى قدامها دروس كثيرة فاتتها بسبب هذا الموضوع ، وحرام ، تعب سنين يضيع في لحظات علشان رغبات وأهواء شاب نزق أهمل أبواه تربيته ، ذلك أنهما أصلا يحتاجان للتربية ، والأمر لله ولمنى ، وليكم .."

قالت الدكتورة سعاد بشيء من الكياسة :

• " الموضوع للنقاش والرأي يا خالي .. والا أوامر تنفذ .."

فقال لها مداعبا :

• "هو للرأي .. لكن الرأي المصري ، الصعيدي .. مش الأمريكاني .."

فعدلت الدكتورة سعاد من جلستها ، ورشفت من فنجان الشاي ، ونظرت إلى منى بتفحص ، وقالت :

• " طبعا الكلمة الأولى والأخيرة لحضرتك .. لكن برضه فيه قانون ممكن حضرة الضابط يفيدنا فيه ، وفيه مشاعر ممكن منى تعبر عنها ، وفيه حقوق لزوج ، وفيه جنين ، وفيه دراسة ، وفيه حاجات كثيرة محتاجة لمناقشة .. أما الدراسة فهذه مهمتي ، منى معي في الكلية ، وما فاتها يمكن تداركه بالمساعدة الفعالة مني ، ومن زملائي أساتذة الكلية .."

ونظرت إلى حسام لكي يدلى بدلوه في موضوع القانون ، ففوجئت به يمتدح العائلة ، ويشكر الظروف التي عرفته بهم ، بالرغم من عدم مناسبتها ، ثم قال :

• " قانون إيه ، أمام عمي الحاج محمد يقف أعتى رجال القانون تلاميذ في مدرسته ، وأعتقد يعنى إن محامى السيد عبد المنعم وهو أحد جهابذة القانون ، وقف أمس كتلميذ راسب في الامتحان ، وطبعا عبد المنعم بك يعلم ذلك جيدا هو وزوجته ، ولولا تأكدهم من عدم قدرتهم على مجاراة الحاج ، لما لجأوا إليّ باعتبار أن لي معزة خاصة عند عمى الحاج محمد ، مش تسمح لي برضه أقول لك يا عمى ... لكن خلينا نقول إن مفيش مانع إن منى تذهب بيت الزوجية بعد خروج زوجها من المستشفى ، وطبعا شئ أساسي إشهار الزواج ، فليكن الحفل حفلين ، واحد

.. احتفالا بخروج علاء من المستشفى ، ونجاته بسلامة الله وحفظه ، والثاني .. احتفالا بعقد قرانه على صاحبة الصون والعفاف ، منى هانم عبد المؤمن ."

وقاطعه الرجل معترضا :

• " أنا قلت إنها لن تكون له .. وهى موافقانى على كده .. هو سلبها ما لم يكن من حقه قبل الزواج ، وهى لن تمكنه مما هو حقه بعد الزواج .."

وببعض الحرج ، قال حسام :

• " الحقيقة يا عمى .. ومع كل احترامي لرأى سعادتك .. ده منافي للشرع .. ومع يقيني انك تعلم الكثير من أمور ديننا الحنيف ، فأعتقد أن الله سبحانه وتعالى غفور رحيم ، والتوبة الصادقة تبدل السيئات حسنات .. وبعدين فيه بيبي .. وهذا الطفل له حقوق على أبيه ، وعائلة أبيه واحد واحد .. وتأكد إنه حيكون رقم واحد في هذه العائلة ، ولا أخفى عليك ، وطبعا الدكتورة سعاد تعلم هذا جيدا .. إن علاء لن يكون في كامل صحته بعد هذه الإصابة ، اللهم إلا إذا حدثت معجزة من السماء ، يعنى .."

وقاطعه الرجل :

• " يعنى انت رأيك إنها تروح ، والدكتورة سعاد كذلك .. فاضل رأى منى .."

الفتاة لم ترفع رأسها ، وبدا وكأنها لم تسمع كلمات والدها .. فأعاد الرجل عليها السؤال ، فانتبهت ، وتلجلجت ، ثم قالت أخيرا بتحفظ شديد جدا :

• "الدراسة أولا .."

وتعلق الحاج محمد بهذه العبارة كما لو كانت هي كل إجابتها :

• " شفتم .. يعنى رأى منى من رأيي .."

وقاطعته الدكتورة سعاد :

• " ده نص الرأي .. فين الباقي ؟"

فقالت منى بحياء واضح :

• "لكن كل واحد لازم يتحمل مسئولياته .."

وتعلق الجميع بما يستحثها التفسير .. فقالت منال بهدوء وعقلانية :

• " منى يا بابا رأيها دايما من رأى حضرتك .. بس .."

ونطق الجميع في نفس واحد :

• "بس إيه ؟؟؟"

وقالت منى تكمل كلام أختها :

• " الأمر الآن اصبح مختلف ، وزي ما قال الضابط حسام ، فيه جنين ، والجنين عايز رعاية ، ومتابعة طبية ، والتزامات ولادة ، ومصاريف لابد وأن يتحملها من يحمل الجنين اسمه .."

فقاطعها والدها بحدة :

• " واحنا بقى معندناش الرعاية دى ولا المتابعة الطبية ، ولا الالتزامات .. الخ اللي انتى قلتيها دى .. "

فشعرت منى بأن كلماتها قد تكون أحرجت والدها ، فعدلت منها سريعا :

• "أنا لا أقصد ، بالعكس ، أنا لن أجد الحنان والحب الحقيقي غير هنا ، لكن زى ما سبق أن قلت ، كل واحد لازم يتحمل مسئولياته .."

وتدخلت والدتها في الحديث لأول مرة :

• " أنا من رأى منى يا حاج ، الست لازم تكون جنب جوزها في مرضه على الأقل ، وعلاء ربما يكون في أشد الحاجة إليها الآن أكثر من أي وقت آخر ، والا عايزها تسيب جوزها وهو مريض .."

وحولت هذه الكلمات مجرى الحديث كاملا ، فبالرغم من أنها كلمات مقتضبة ، لكنها تحمل في طياتها الإدراك الكامل لمجريات الأحداث ، والطريقة التي ألقتها بها ، تنم عن ثقافة وسعة إطلاع ، الفكرة التي كان حسام يتصورها عنها قبل أن يربط شبهها بأخته صفيه ، أنها امرأة من الصعيد قدمت مع زوجها ، ولم تأخذ من مدنية القاهرة سوى الحجاب الأبيض والملابس الحشمة بدلا من

الملس ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تتحدث فيها أمامه ، فلم يكن قد سمع صوتها من قبل ، وجدها لا تتحدث ، ولكن هناك في صوتها جمال من نوع خاص ، هل هو جمال الثقافة ، أم أن الله وهبها صوتا جميلا بطبيعته . بدأت كلامها عن هذا الزواج ، هل هو زواج ؟ أم تصحيح أخطاء ؟ وتطرق الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك ، هل هو خطأ علاء فقط ، أم أنه خطأ مني أيضا ؟ وبغض النظر عن النتائج ، فهل اختارها علاء دونا عن بنات كلية الطب كلهن كي يدعوها لعلاج عمته المزعومة ، أم أن العلاقة بينهما سبقت ذلك الحدث ، وما طبيعة هذه العلاقة ..؟ هل هناك حب ..؟ على الأقل من طرف مني ، وهل الحب عيب ، أو حرام ..؟ وهنا فجرت الوالدة أول قنبلة أحرجت الحاج محمد ، وجعلت العرق يتصبب من جبينه ، وهو يحاول إخفاء حمرة خجل علت وجهه ، ويرجوها الصمت بكل ما يملك من قدرة على التعبير ، وهي وكأنما تريد أن تثبت له صحة وجهة نظرها في خطأ الأسلوب المغلق لتربية البنات ، وقالت بنفس الهدوء ، وبالأسلوب المنمق الذي اعتادته حتى في مخاطبتها للجميع ، حتى مع بناتها ، محاولة إثبات براءتها للرجل الذي أحبته ، مما قد يعتبره فشلا في تربيتها لبناتها ، كان ما حدث أهم نتائجه :

• " دى مني أثبتت كده إنها بنت حلال مصفية .."

وكانت كلماتها حجرا آخر ألقي في بركة ماء راكدة ، جعلتها تهدر بأمواج عاتية ، ووجدت أن المفهوم قد يختلط على الجميع ، فأوضحته بشيء من الكياسة ، متوخية المنطق والحجة :

• "طبعا ماتقدرش تنكر إننا تزوجنا عن حب يا حاج ..! "

ووضع الحاج محمد في دائرة الاستجواب ، واشتركت البنتان مع ابنة عمتهما الدكتورة سعاد في حثه على التفسير ، وكذلك فعل الضابط حسام ، الذي بدأ يتصرف وكأنه أحد أفراد العائلة ، فقد تأكد له أن هذه السيدة تربطها به صلة قرابة قوية ، إذ أنها عندما تحدثت لم يملك إلا أن ينظر إليها ، ولما لاحظ العيون التي زادها الله جمالا باللون الأزرق الذي تشتهر به عائلة الأناضولي ، لم يبق أمامه سوى أن يتحقق من أنها شقراء ، وهذا لا يمكنه بعد السن التي وصلت إليه ، والذي ربما يكون قد حول الشعر الأشقر إلى بياض .

وملأت البسمة وجوه الجميع ، فلا بد وأن الذكريات الجميلة لا تأتي إلا والبسمة معها .. بل والسعادة كلها ، وهمس الرجل في أذن زوجته بعد أن أجلسها إلى جانبه ، وأدناها من قلبه بكل

الحب والحنان ، والجميع يستحثونه المزيد ، فلحظات الحب قليلة ، ولحظات السعادة أقل ، إلا أن السيدة أبت إلا أن تنشر لهم ما قال :

- " شوف يا حاج .. إحنا عشنا على الحلوة والمرة ، كثير شويه .. ما إعترضتش ولم أبـدى أي تحفظ ، ودي المهمة الحقيقية للزوجة ، ستر وغطاء على زوجها ، مش ده كلام الحاجة والدتك الله يرحمها ، واحنا خلاص ، ربنا يدينا طول العمر لحد ما نستر البنات ، اتق الله يا حـاج في بنتك ، وفى زوج بنتك ، وفي حفيدك ، ده أول حفيد ، ومين عارف ، مش يمكن اللي تخـاف منه ، مايطلعش أحسن منه .."

لكن الجميع يريد أن يعرف قصة الحب التي ربطت الاثنين ، وبدا لحسام أنه يقع على كنز سوف يساعده كثيرا في رسالته عن السلوكيات ، خاصة وأنها وقفت به عند مفترق صعب ، لن ينقذه منه إلا سلوكيات هذه الأسرة في واقعة هي جريمة في عرفهم ، لا بل إن الأمر سوف يتجاوز ذلـك إلى مفارقات أخرى قد تكون أقوى في التعرف على السلوكيات من تلك الجريمة ، وتنبه حسام إلى أنه الوحيد الذي لا ينتمي لهذه العائلة ، فأراد أن يجعل ذلك بطلب من الحاج نفسه ، وذلك بإعلانـه الانسحاب ، حيث أن الموضوع عائلي ، وهو خارج العائلة ، وربما يتحرج الحاج من ذكر أي شئ في حضوره ، وهم بالوقوف استعدادا للانصراف ، لكن الحاج تشبث به ، وقال :

- " يا خبر يا حسام يا ابني ، أنا مشاعري نحوك كأنك أحد .."

وتوقف الرجل فهو ليس له أولاد ، وإذا فالتكملة لا تكون إلا أحد بنـاتي .. وأراد حسـام أن يشيع في المجلس جوا من القهقهة قال مازحا :

- " ما تقولها يا حاج .. أحد بناتك .."

واشترك الجميع في الضحك والقهقهة ، لولا مسحة من الحزن والجدية علت وجه الرجل وهـو يقول :

- "صحيح أنا ما خلفتش أبناء ، لكنى مش عارف بحس انك كما لو كنت ابني ، ودي حقيقة .."

وتشجع حسام وهو يستحث الرجل على ذكر قصة الحب التي توجت بهذا الزواج السـعيد ، رغم العبارة التي قالها الرجل بإحساسه به كما لو كان ابنه ، إن إحساسه لم يخطئ ، إنه يتذكر هـذا الرجل ، رآه أكثر من مرة ، وفي أكثر من مناسبة ، لكنه لا يذكر أين ، ومتى ؟؟

٩- ذكريات حب

بدأ الحاج محمد عبد المؤمن يجتر ذكريات كانت قد واراها الزمن في صراعه معه ، ذكريات جميلة كالجميلة التي أحبها ، والتي هي فعلا جميلة خلقا وخلقا ، واسما أطلقه عليها ، وسرح الرجل ببصره بعيدا ، وقد علت وجهه ابتسامة غلفتها الذكرى الجميلة بمسحة من السعادة ، ثم قال :

• " كنت أتمنى أن تكون أختكم مهجة معنا ، لتعرف تاريخ العائلة ، فقد كنتم دائمي السؤال عن عائلتيكم ، عائلة أبيكم ، وعائلة أمكم ، وأنس فقط تعرفتم بواحدة من عائلة أبيكم ، هـي في الحقيقة بنتي البكر ، وسبحان الله ، برضه بنت ، الدكتورة سعاد ، ودي بنت أختي لزم ، يعـنى بنت عمتكم ، ما تسألونيش ليه ما عرفتكمش بيها من زمان ، حقول لكـــم بعديـــن ، ومـــا تقاطعونيش علشان أعرف أسلسل أفكاري ..."

ثم صمت الرجل برهة ، وتساءل عن الشاي أو القهوة أو أي شئ يثرى هذه الجلسة الجميلـــة ، ولكنه ذكر بأن حضرة الضابط حسام قد يكون عنده عمل ، لكن الضابط حسام طمأنه ، فـهو في راحة ، بينما نهضت منال بسرعة ، ووالدتها تصف لها مكان عدة القهوة القديمة ، فقد اســتحثتها الذكرى بمسحات من ديكورات زمان ، صينية القهوة ، بسخان الكحول والفناجين البيشة الـــتي ليس لها يد .

وتعجب حسام من همة منال ونشاطها ، فأين ذلك من تلكؤ بنات هذه الأيام ، مقارنة بأختيــــه على الأقل ، الكل يعتمد على الكل ، والنتيجة ، لا شئ يتم ، وأخذ يحصي لها نقاط تفوقــــها ، الجمال حوالي سبعة أو ثمانية من عشرة وربما أكثر ، ولكنه لا يريد أن يغالي ، النشاط حوالي تسعة وربما أكثر ، وأيضا لا يريد أن يغالي ، سرعة البديهة تسعة وربما أكثر ، وهكذا ، وهو لا يـــدرى لماذا يعد لها هذه النقاط ، ولكنها إحدى العادات التي أصبحت كاللازمة معه منذ أن بدأ رســالته عن السلوكيات . حضرت منال بسرعة ، بعد أن انتزعت عدة القهوة من صندوقها القديم وقامت بغسلتها جيدا ، وما هي إلا لحظات ، حتى أوقدت السخان ووضعت الكنكة عليه ، بعد أن قامت الوالدة بوضع البن والسكر الخفيف ، وأثناء ذلك ، كانت منال لا تفتأ تستحث أباها أن لا يبــدأ قبل أن تفرغ من إعداد القهوة ، وأوفى الرجل لابنته طلبها في ترحاب بحسام والدكتورة ســعاد ، وما أن استكملت الجلسة أفرادها ومستلزماتها ، حتى بدأ الرجل حديثه :

• " إحنا من الهوارة في الصعيد ، عيلتنا لقبها الصقر ، وده لان جدي أبو بـوى نشـن علـى واحـد من المطاريد ، قتل العمدة واستخبى في الدراوه ، وقدر جدي يصيبه وهو بيهرب داخل الدراوه بالليل ، لكن يظهر إن الرجل لم يمت ، وفى التحقيق قال كلام كثير أضر بعائلة العمدة كلياهم ، وكانوا من الأشراف ، وبدأت عداوة بين الهواره والأشراف في البلد ، وبدءوا يقتلوا في بعضيهم تقتيل ، لكن الكل كان يخاف من جدي ، وكان الهم كلياته ييجى على رأسه ، اللي يتقتل من الهواره ، يطلبوا من جدي يا خد بتاره ، واللي يتقتل من الأشراف يروحوا لجـدي يجيب لهم حقهم ..."

الصمت يخيم على الجميع ، وكلام الرجل ينساب كأنه يقص إحدى قصـص ألـف ليلـة ، والآذان مشرئبة ، ويتصورون المنظر كأنه أمامهم يحدث مع حديث الرجل . رشف ما تبقى مـن فنجان القهوة ، وعدل من جعدته على الأريكة الإسطانبوللى التي كان يفضل الاتكـاء عليـها ، ولمـا وجد الجميع يستحثونه تكملة الحديث ، قال :

• " صلوا بينا على النبي ... اذكروا الله .."

كان دائما يذكرهم بذكر الله والصلاة على النبي ، ويقول لهم انه لابد وأن يذكر اسم الله دائما ، ولا تمر ساعة دون ذكره سبحانه وتعالى .. ولاحظ حسام أن شفاه الجميع لم تصمت رغم سماعـهن لروايات أبيهن ، وعرف السبب ، إنهن يذكرن الله ، وهذا معناه أن كلام الرجل يقصد به حسام ، الذي وجد نفسه بالتبعية يذكر الله سبحانه وتعالى بطريقتهم ، واستكمل الرجل حديثه :

"جدي كان شيع بوى يتعلم في الأزهر ، ولما عاد ، كان هو إمام الجامع والمقرئ ، وكان يسـتغل الجامع في الفترة بين الساعة السابعة صباحا وحتى صلاة الظهر ، يعلم الأطفال القراءة والكتابـة ، ويحفظهم القرآن ، ومن بعد صلاة المغرب حتى صلاة العشاء ، يعلم الكبار القـراءة والكتابـة ، وحفظ القرآن ، والحمد لله اتعلم على يدينه العشرات ... لا بل المئات ، ودي كانت مخلية لبوى مكانة كبيرة عند الجميع ، يحترمونه ، ويبجلونه ، ويستشيرونه في كل شئ ، ويستفتونه في أمـور الدين والدنيا ، وكان بوى علشان ما يخلهمش يلجأوا إلى الإفتاءات الغلط ، فحـتى لـو كـان الإفتـاء معروفا له ، لازم يقرأها لهم من الكتب الدينية الموثوق فيها ، والآيات رغم إنه حـافظ القرآن كله ، لكن كان لازم يقرأها لهم من المصحف ، ويعرفهم السورة ورقـم الآيـة ، يظـهر علموهم كده في الأزهر . واتقتل عمى ..وشاط جنون جدي ..فلم يكن يتصـور أن الجسـارة

ستصل بهم إلى عرينه ، وأمر بوى ياخد بتاره ، لكن بوى قرأ على مسامع جدي قول الله سبحانه وتعالى " ولئن صبرتم لهو خير للصابرين "، وجدي يصر ووالدي يرفض أن يعصى أمر الله ، وأن ولى الأمر هو المنوط به القصاص من القاتل ، وكفانا قتل وتقتيل ، إلى أن ضاق جدي ذرعا بأبوي ، فطرده ، وتبرأ منه ، وعندما أراد أبي أن يأخذنا معه ، أنا وأمي وثلاثة اخوة وثلاث بنات ، رفض جدي أن نذهب معه ، وقال له :

• "مش لما تعرف توكل روحك الأول .."

" ذلك أن بوى كان يعمل كل ما يقوم به من عمل لله سبحانه وتعالى ولا يتقاضى عليه أجرا ، وعايش هو واحنا على الأرض بتاعة جدي ..واستعد بوى يا خد خلقاته ، لكن جدي أقسم انه يتزل بالقفطان اللي عليه ، ورفض الجميع مساعدته امتثالا لأوامر جدي ، وأمي دموعها على خدها ، والحمرة ملأت عينيها من النحيب المكبوت ، فما كانت تستطيع أن تعلنه حتى لا يسمعه جدي ."

" لكن جدتي رحمها الله دست بضع جنيهات في جيب بوى ، فهي كانت تعلم انه لا يحمل معه نقودا بالمرة ، فلا حاجة له بها ، فهو لا يشترى شيئا ، حتى لا يصر صاحب المحل على عدم تقاضى ثمنه ، فقد كان الجميع يحبونه ويجلونه ولا ينادونه إلا بالأستاذ أو سيدنا الشيخ ، أو مولانا ..كان رجال الدين زمان لهم احترامهم ، لأنهم كانوا يحترمون أنفسهم ، فلا أحد يفتى بتحريم الربا تنفيذا لأوامره سبحانه وتعالى ، ويأكله هو أو يتعامل به ، ولا أحد يحرم الخمر أو المخدرات أو أي من المنكرات ، ويضبط متلبسا بأي منهم . عرج أبي على المسجد ، يصلى لله ويبتهل له أن يأخذ بيده في هذه المحنة ، فهو يثق في قوله سبحانه " من يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب " وبعد أن أنهى صلاته ، لمح رجلا يراه لأول مرة يصلى إلى جواره ، كان يدعو الله ويبتهل ، والدموع تملأ مقلتيه ، فاقترب أبي منه يهون عليه المصاب ، وأن الله غفور رحيم ، وما أن رأى الرجل والدي حتى هرول خارجا وقد ترك كل شئ حتى مداسه ، وتعجب أبي ، لكن عجبه لم يطل ، ذلك أن رجال القرية تجمعوا حول الرجل وأمسكوا به ، ولما خرج والدي من المسجد ، سقط الرجل على قدميه يعترف بجرمه ، ويستسمحه ، وهو قابل بما يصنعون فيه ، ولم يكن أحد يعرف عما يتحدث الرجل ، إلى أن ذكر واقعة مقتل عمى ، وإنها كانت قضاءا وقدرا ، ولا دخل له بها سوى أن عمى خرج فجأة إلى الطريق ، ولم يستطع الرجل أن يوقف السيارة أو يتفاداه فصدمه ،

ولما عرف أنه ابن الصقر الكبير ، وأخوه إمام الجامع الطيب ، هرب بالسيارة النقـــل ، وســـلمها لصاحبها ، وعاد لينال جزاءه ، لكن برضك الروح غالية ، فطمأنه بوى ، واصطحبه إلى الـدوار ، وحاول إقناع جدي بالأمر ، لكنه كان رافضا حتى النظر إلى أبي ، وتدخلت جدتي ، وتم إخطـــار المركز ، واتخذت الإجراءات القانونية ، لكن الشرخ الذي حدث في علاقة أبي بجدي ، كان لـــه كبير الأثر في تعاملهما ، فآثر والدي السفر إلى الأزهر الشريف لاستكمال دراسته ، والحصـــول على العالمية اللي اسمها { الدكتوراه } بلغة اليومين دول ، وقد تذكر قول جدي عن عدم إمكانيته إطعام نفسه ، فصمم على الاعتماد على نفسه ، ولم يأخذ معه شيئا بالمرة ، حتى ملابسه ، لم يأخذها ، واستسمح جدي في بقائنا عنده حتى يدبر أموره ، فيأتي لأخذنا .. وأصر جدي على أن يعـــده والدي بالإبقاء على عهده ، فلا يتقاضى أجرا عن كلام الله ، لا قراءة ، ولا وعظا ، ولا تعليما ..''

وبدا الإرهاق على وجه الرجل ، فكف عن الحديث ، وذكر الدكتورة بموعد محاضراتها ، ومادام البنات عرفوا قرابتها لهم ، فقد آن الأوان أن تحضر حاجياتها بعد انتهاء الدراسة ، فنادت الدكتورة سعاد على منى ومنال للذهاب معها إلى الجامعة ، بينما وجد حسام نفسه وحيدا مع الحاج محمـــد خاصة بعد أن تركتهم الحاجة لشؤون المترل ، فدنى منه على استحياء ، هامسا بأن يبت في مسألة منى وعلاء ، وأعطاه كل التأكيدات التي تضمن له مستقبل ابنته مع عائلة علاء ، وأنه هو شخصيا سيكون مسؤولا عن أي شئ قد لا يرضيه ، فقال الرجل بهدوء :

- " أمهلنا لما بعد عودة البنات من الجامعة ، وإن شاء الله ربنا يقدم اللي فيه الخير ..."

فاستأذن حسام ، على أمل العودة عصرا ليذهبوا سويا لزيارة علاء ، وتركهم من فوره إلى عبـد المنعم بك ، حيث نقل إليه ما دار ببعض التصرف ، وأن الحاج محمد يرفض إلا أن يكون لابنتـــه بيتها الخاص ، بغض النظر عن الإقامة فيه أو في الفيلا ، لكن بيت الزوجية لا بد وأن يكون مستقلا ، وهذا بحسب الشرع ، وصور لهم كم هم من أكبر عائلات الصعيد ، وأن الدكتورة سعاد واحدة من عشرات من العائلة الحاصلين على الدكتوراه ووالده أولهم ، والدكتوراه حصلت عليها ســعاد من أمريكا ، وأن هذا ليس له سوى مفهوم واحد ، ألا وهو أنهم أثرياء ، على الأقل ثروتهـــم في أولادهم وبناتهم ، وليست في عمارات وفلل ، وأن أي شكوك عند عبد المنعم وزوجته ، من حيث النسب أو الثراء ليس لها أساس من الواقع .

كانت مدام ميشو ما تزال تضرب أخماسا في أسداس عن ما في الشرائط من أحداث ، جعلت زوجها والمحامي ينفذون للحاج محمد جميع طلباته دون مناقشة ، وعن لها أن تكيد لزوجها وتقطع عليه خط الرجعة ، فلا خيانة بعد الآن ، وأول شئ ممكن لها أن تنهي به هذه الخيانات ، هو إغلاق وكر الملذات في وجهه ، فانتهزتها فرصة ، وأرادت أن تضعه في موقف حرج أمام الضابط حسام ، فقررت أن تكون شقة الأنس هي بيت الزوجية الذي يشترطه الحاج محمد ، وأصرت على ذلك أمام رفض زوجها الذي يصر على ضرورة حضورها للإقامة مع ابنه في الفيلا معهم ، فهو لا يطمئن على ابنه مع منى في وجود أبيها الصعيدي بمفاهيمه التي ربما لن ينسى أن علاء اغتصب عرض ابنته ولوث شرفه دون أن يعاقب .

وأوضح حسام هذه النقطة قائلا :

" لو أن الحاج محمد ينوي شرا ، لفعله منذ مدة ، فالمعلومات التي جمعها الرجل عنكم ، تؤكد معرفته بالموضوع وتفاصيله منذ مدة طويلة ، ربما منذ ما قبل حدوثه ، ولعلكم لاحظتم أن المحامي الذي طلبته الدكتورة سعاد ، هو في الحقيقة محامي الحاج محمد ، ولعلكم لاحظتم أنه ذكر التاريخ الذي حدثت فيه جريمة الاغتصاب ، وأنه لم يعرف بناته بالدكتورة سعاد رغم أنها أستاذة في كلية الطب التي تدرس فيها منى ، لأنها كانت عينه على منى حتى لا ترتكب أية حماقة أخرى ، ولذلك فقد كانت خلفها عندما قررت الانتحار ، وأنا حتى الآن لا أعرف كيف استطاع هذا الرجل أن يعرف كل شئ عنكم وعن ابنكم وعن المحامي بتاعكم ، بالصورة اللي جعلتكم توافقون على طلباته بدون تحفظ .. ، ولقد كان متأكدا من ذلك ، بدليل أنه أحضر المأذون معه .. "

وقالت مدام ميشو أنها مصممة إلا أن تكون شقة الأنس هي شقة الزوجية ، وحتى لا يحدث تراجع ، فسوف تكتبها باسم منى ، وتمليك أيضا ، فعلق حسام على ذلك بأنه تصرف أكثر من ممتاز ، على الأقل يستطيعون بذلك أن يثبتوا للحاج محمد كم هو حسن النية عندهم ، وأن الشقة هي مهر منى ، فلا ينسوا أنهم لم يدفعوا مهرا عاجلا لها ، واكتفوا بمؤخر كبير نسبيا .

لم يكن حسام يعرف أن الشقة باعتبارها تؤجر مفروشة ، عليها ضرائب تقريبا مبلغ يعادل ثمنها ، وبتمليكها لمنى ، يهربون أو يتهربون من الضرائب المستحقة عليها ، لكن عبد المنعم بك أثار هذه النقطة ، وكادت مدام ميشو تصعق من زوجها الذي لا يخفي شيئا ، لكن الرجل قال بكرامة وعزة نفس ، أن أي تصرف يكون فيه غدر بهؤلاء الناس ، ليس له سوى مردود واحد ، هو الانعكاس

السريع على حياة ابنه ، وهو ليس له سواه ، وليس لديه استعداد أن يفقده نتيجة تصرف أرعن من ميشو أو من غيرها . لكن حسام تدخل في الموضوع بكياسة ، وحاول أن يشرح وجهة نظـــره في الموضوع من ناحية قانونية ، فالضرائب تحصل بنسبة كبيرة من دخل الشقة ، وليس كمـــا حـــدد القانون من الإيجار الأصلي للشقة ، لكنهم شرحوا له أن مأمور الضرائب لا يهمه إلا الحصيلـــة ، وليذهب القانون وأصحابه إلى الجحيم ، والشاطر يقف أمامهم ، إغلاق .. أو حجز الإيراد مـــن المنبع .. وبهدلة ما بعدها بهدلة ، والناس عارفة هذا جيدا ، فلا أحد يلجأ للقـــانون ، ولا أحـــد يعترض ، وهذه هي أكبر آفاتنا الحديثة ، لا أحد يطالب بحقه ، لأنه ربما لا أحد يعرف مـــا هـــي حقوقه ، أما عن الالتزامات ، فمادام هناك من يستطيع أن يفرضون قوانين خاصة بهم ، وتتكـــاثر شوكتهم يوما بعد يوم .. فمن هذا الذي يستطيع أن يدعى حقـــا أو يذكـــر بـــالتزام أمامـــهم ، والكثيرون يحذون حذوهم ، والشاطر .. هو الذي يغلب ، وما أكثرهم ، فلا يضيع في هذا العـــالم سوى الفقير المغلوب على أمره .

لكن عبد المنعم بك أنهى الأمر بسهولة ويسر ، فقد شرح له المحامي أبعاد المشكلة ، وأفاده بـــأن الشقة إذا تم تأجيرها لشخص آخر غير المالك ، فان الأمر يختلف ، وعلى هذا اتفقوا على تحريـــر عقد إيجار باسم منى أولا ، ثم يتم البيع ، وفي كلتا الحالتين الأمر يحتاج إلى ذهاب منى إلى الشـــهر العقاري للتوقيع على عقد البيع ، وتطوع حسام للقيام بهذه المهمة ، فهو رجل المهمات الصعبـــة ، خاصة إذا كانت هذه المهمات تؤدي إلى القرب من منال .

اصطحب حسام مدام ميشو إلى الشهر العقاري ، ذلك أن العمارة باسمها ، سجلها لها عبد المنعم حتى يستبعدها من ميراث أبيه ، فلا تشاركه فيه زوجة أبيه أو ابنها منه ، تنفيذا لتعليمات والدته التركية ، التي أقنعته بأن هذه الفلاحة لا يمكن أن تكون على قدم المساواة معه ، لا هي ولا ابنها . وذهب عبد المنعم معهما حيث تم تسجيل الشقة باسم منى ، وأخذ حسام صورة العقد لتسليمه للحاج محمد ، على أن تذهب منى لاحقا للتوقيع ، وسوف يسعده الذهاب معهم إذا رغبوا في ذلك ، وشرح لهم أن عقد الشقة هو بمثابة مهر عاجل لمنى ، وتأكيدا من عبد المنعم بك وزوجته على حسن نواياهما ، وشكرت الحاجة جميلة في هؤلاء الناس حسن الأسلوب ، وبالغ حسام بعض الشيء في الإشادة بهم ، حتى تزول الآثار السيئة التي قد تكون عالقة في قلب الحاج محمد ، وقد كان لهذا التصرف بعض الأهمية ، فلم يعترض الحاج محمد على زيارتهم لعلاء بالمستشفى ، وعندما ذكر حسام موضوع إقامتها في الفيلا ، نظر إليه الحاج مستمهلا حتى نهاية الامتحانات . وذهب الجميع لزيارة علاء ، إلا أن الحاج محمد رفض الذهاب ، مكتفيا بإرسال زهور إليه منه بصفة شخصية ، كانت بادرة كريمة ، حملها الجميع دليلا على نبل أخلاقه .

لم يتصور أحد ... ولا حتى الأطباء ، كم كان لتلك الزيارة أثرها الفعال في استجابة علاء للشفاء ، فقد التصقت منى به طوال الزيارة ، بدون حرج ، فهي زوجته شرعا ، وهو حبيبها الذي كادت أن تفقد حياتها من أجله ، وبدراستها للطب ، ساعدت في وضع الضمادات كما يجب تحت إشراف الدكتورة سعاد ، بالتطور الذي بدأت تنقله نتيجة دراساتها الحديثة في أمريكا ، وبعد عودتهم ، شكر الحاج محمد حسام على مواقفه الرجولية ، ونبه منى ومنال إلى الدخول فورا للمذاكرة ، بينما بدأت الدكتورة سعاد في ترتيب حاجياتها في الغرفة التي كانت مخصصة لها أصلا ، ثم دخلت مع منى في سباق مع الزمن لإعدادها للامتياز ، فلا أقل من أن ترد لخالها الجميل في ابنته ، وما فعله معها رغم الظروف التي كان يمر بها ، أكبر بكثير من كل ما قد تقدمه له ولبناته .

تحت إلحاح حسام ، اتصل عبد المنعم بك بالحاج محمد يشكره على زيارة عائلته لابنه ، وكم سيكون لها من أثر كبير في شفائه ، ويستسمحه في حضورهم يوميا ولو لمدة قصيرة ، ساعة أو نصف ساعة ، فقد أكد الأطباء أن ذلك مهم في سرعة شفائه ، ووعده الرجل خيرا ، وأصدر تعليماته لابنته منى والدكتورة سعاد أن يذهبا إلى علاء أثناء عودتهما من الجامعة لمدة نصف ساعة ،

ولا تزيد عن ساعة ، وتعلقت الاثنتان بالمدة الثانية ، فلم يحدث أن قل الوقت عن ساعة ، فقد كانت الدكتورة سعاد مهتمة بالحالة الصحية لعلاء ، إذ أن الإصابة كانت قوية ، والاحتمالات الثانوية لها قد يكون تأثيرها أقوى مما ذكره الأطباء ، خاصة لو حدث تهاون أو اهمال فقد يؤدي ذلك إلى فقدانه لبعض قدرات فحولته ، وربما ، فقدها كلية ، والأطباء يعرفون ذلك ، وهو من هو ، إنه زوج ابنة أغلى الناس لها في هذه الدنيا ، خالها الذي حرم نفسه وبناته لكي تصل إلى ما هي عليه الآن من النجاح والتفوق ، وكانت تشرك منى معها ، حيث كان الأمر يحتاج إلى علاج نفسي بالإضافة إلى الأدوية وتمارين الطب الطبيعي ، حتى لا تتأثر خلايا المخ بالاكتئاب إضافة إلى الإصابة ، فيكون لهما التأثير السلبي على الفحولة ، وهذا ما لن ترضاه لا الدكتورة سعاد ، ولا منى ، ولا حتى الحاج محمد وزوجته ، فضلا عن والدي علاء ، فما أصعب أن يكون الرجل شكلا وفقط ، وما أقسى أن يشعر الإنسان أنه لا فائدة ترجى منه سوى أنه عجلة في ترس إنتاج لا دخل له في أهم جوانبه ، وارتعبت منى من احتمال وصوله لتلك الحالة ، وكانت تظهر بعض الندم أثناء مباشرتها للعلاج النفسي لعلاء ، وسألتها سعاد في إحدى المرات عن سبب ارتعاش يديها وهي تدلك بعض مراكز الإحساس لديه ، وصعقت عندما عرفت أن منى كانت تضمر له في نفسها انتقاما منه ، أن تفعل له ما يشابه فعلته معها ، فهو اغتال أنوثتها ، وهي يجب عليها أن تغتال فحولته ، فكانت تخطط أن تسبب له هذه الإصابة ، فلا يكون لها ، ولا لغيرها ، وتخشى أن يكون الله قد استجاب لهذا الخاطر الذي فكرت فيه في لحظة غضب عارمة ، كانت الغلبة فيها للشيطان ، ربما تكون قد نسيت الله فيها ، فأذاقها عاقبة أمرها ، هي الآن كسبته زوجا ، لكنها فقدته رجلا ، فقالت لها سعاد بكياسة بنت النيل التي وهبها الله سماحته :

- " لذلك نهانا الله حتى عن الدعاء على من ظلمنا ، وكان ما ساقه لنا في هذا أكبر حكمة ، فقال سبحانه ما معناه ، أنه إذا تمنيت أن يستجيب الله لدعائك على من ظلمك ، فلا تطلبي منه أن لا يستجيب لدعاء من تظلمينه عليك .."

فوجئ الحاج محمد بحسام يتصل به في الصباح الباكر ، ويستسمحه الحضور لتناول الإفطار معهم ، بشرط أن يحضر هو الإفطار ، وتعجب الحاج محمد ، بينما ابتسمت سعاد ابتسامة لها معنى ، لم تغفل عن الرجل ، فهمس في أذنها يسألها الحكاية ، فضحكت وقالت :

- "بكره نشوف يا خالي ، الحكاية دى وراءها سر .."

فقال الرجل بعفوية :

• " مين يا تري ..مفيش غيرك .."

وبسرعة قالت :

• "لا .. أنا مين يا خالي .. ومش معقول مهجة ، فيه قمورة ثانية بقت عروسه .."

واحتار الرجل ، رجال البوليس منهم من تترك له بلاد ، ولا يريد أن يورط أي من بناته مع واحد منهم ، وكيف له أن يعرف إن كان حسام من النوع الطيب ، أم انه من النوع الآخر ، لكن سعاد أكدت له أن تصرفاته منذ البداية تنم عن أصل طيب ، ومعدن ممتاز ، ويكفى أنه سيطر على موضوع منى ، فلم يعرف به أحد غيرهم ، ليس هذا فقط ، بل انه لعب دورا كبيرا في إتمام هذه الزيجة ، وذكرته بموضوع الشقة التي جاء بها على طبق من ذهب ، ملكية خالصه لابنته ، ولا تعتقد أن يكون هذا التصرف تم من مدام ميشو وعبد المنعم بدون تدخل حسام ، فهز الرجل رأسه متمتما :

• " ربنا يقدم اللي فيه الخير.. "

دقائق معدودة ، ودق جرس الباب ، وأسرع الحاج بنفسه ليفتح الباب ، فقد عقد العزم على أن لا يرى منال مرة أخرى ، ولا باقي أفراد الأسرة ، وان كان غرضه شريف فليفصح عنه ، لكن يطلع على أسرار البيت وحريمه بدون صفة رسمية ، فهذا لا يجوز ، وفوجئ بحسام يقف أمامه في أدب وكياسة ، ويقول :

• "معي ضيف .. هو مش ضيف .. لكن ضيفة .. أختي نشوى.."

ورحب الرجل بهما ، وأكبرها في هذا الشاب الذي يفكر بعقلية رجل صعيدي لا يمكنه تقبل شاب غريب في بيته ، حتى ولو كان وزير الداخلية نفسه ، وأسرعت الدكتورة سعاد باستقبالهما ، ودخل البواب خلفهما وهو محمل بعلب ، فعلق الرجل بهدوء ، لائما حسام على هذا التكليف :

• " يظهر الأكل بتاعنا أمس لم يعجبك.."

ولكن حسام سارع بالرد :

• "يا خبر يا عمى .. أنا لم أذق طعام إفطار في مثل حلاوته.."

فعلقت الدكتورة سعاد :

• " جائز لأنه كان الأول ، وربما الوحيد.."

وقهقه الجميع .. بينما شمرت أخته -رغم رقتها الواضحة - عن ساعديها استعدادا للمشاركة في تجهيز المائدة ، ولم تجد محاولات الدكتورة سعاد الهادفة إلى راحتها .. وهي تعلم تماما أنها قدمت لتتعرف على منال ، وتحاول الوصول إلى مكنونات قلبها ، وتزكي أخاها عندها ، وقد حدث ، فاستغرقت الاثنتان في حديث طويل ، لم يتنبها منه إلا عندما حان موعد مدرسة مهجة ، وفورا نهضت منال لإحضار صينية القهوة ، وتحلقوا جميعا حولها ، وصمتوا .. فنظر إليهم الحاج محمد ، وقرأ في أعينهم الرغبة في إكمال ما بدأه أمس ، وتفحص الرجل حسام ، شكله مختلف تماما عن الأمس ، هل للبذلة الرسمية ذلك الأثر الواضح ، لقد كان عريسا ، رشيقا ، جميلا ، له بريق من نوع آخر ، ليس كسابقه ، وزادته البذلة الرسمية جمالا ورشاقة ، حتى أن مهجة لم يفتها ذلك ، فعلقت تعليقا بسيطا ، قالت :

• " شكلك كده أحلى بكثير يا أبيه حسام .."

وتعجب الرجل .. هل هي شفافية أطفال ، أن تناديه من الآن أبيه ، وأين سمعت أبيه هذه ، إنها غير متداولة في المنزل ، فلا يوجد بالمنزل رجال سواه ، وقد سمح لهم أن ينادونه بكلمة بابا ، لأن كلمة بوى كانت ثقيلة على ألسنتهم ، وغالبا لا يستعملها أحد في العمارة ، وقد لا تكون مستعملة في الشارع وربما في الحي كله ، وقالت الدكتورة سعاد :

• "أنت تعرف يا خالي إننا كلنا متشوقين لمعرفة مالا نعرفه عن عائلاتنا .."

فقال الرجل بهدوء :

• " أيوه يا بنتي .. بس إيه ذنبها القمورة دى ندوشها بحكاياتنا .."

فقال حسام :

• "نشوى يا عمى صممت تعرف أنا روحت فين الصبح بدري ، واستغربت إني بقيت أفطر ، فقلت لها إن فيه أهل ، الإفطار لا يحلو إلا معهم ، ولما كانت من المضربات عن الإفطار شأنها

شأن باقي أفراد الأسرة ، فقد رأت أن تشاركنا اليوم لكي تحكم بنفسها كم هو الإفطار شـهيا وصحيا بصحبتكم ، والحمد لله إن رأيها من رأى .."

وعلق الرجل بهدوء :

- " وشغلك .. اوعى تقول انك في راحة ، بدلتك تفضحك .. وكمان الجامعة ، مش القمورة في الجامعة برضه .."

وأجابت نشوى بخجل :

- " آه طبعا .. بس أبيه حسام حيوصلنى .."

أبيه مرة أخرى .. لابد له أن يعترف بأن الزمن تغير ، فالبنات يحببن أن يدلعن ، ولذلك ، فإنهن يدلعن الرجال ، وتذكر .. كم كانت منى تداعبه وتدلعه ، خاصة إذا ألمت به وعكة ، وكذلـــك منال ، والدور هذه الأيام على مهجه ، التي لا ترتاح إلا على صدر بابا ، وهى في هذا العـــرش ، يحلو لها أن تتمسح في وجهه وتربت على ظهره ، وتقبله مئات بل آلاف المرات ، ولا تفتأ تنادى في الذهاب وفى العودة ، وفى كل وقت .. بابا .. بابا .. وكأنما هي كلمة جميلة تحب أن تسمعها دائما بصوتها ، حتى لكأنها تكثر من ترديدها مخافة أن تنساها .. ولم يكد حسام يطرق بابهم ، حتى أضفت عليه الست مهجة بعضا من عطاياها الغالية ، وأعطته لقب أبيه ، وهكذا أصبح حسام أخا لبناته ، فمادامت نشوى تناديه أبيه ، وكذلك مهجه ، وهو أخو نشوى ، فلا بد أن يكون أخـــو مهجــه بالتبعية ، أما منال .. فالله أعلم ، يظهر كلام سعاد سيتحقق . ومع الاستغراق في التفكير ، علـت الأصوات تطالبه بإكمال ما انقطع من الحديث ، ولعل الوالدة كانت هي المحركة هــــذه المــرة ، حركت البنات وحسام ، فهي تريده أن يتقبل أمر زواج منى بدون أن يترك آثارا الله وحده يعلــم مداها ، فهو رغم كل مزاياه .. والحقيقة .. أنها لم تمسك عليه ممسكا واحدا يشينه ، إلا أن حزنـــه من النوع القاتل ، فهو يقتل نفسه من الحزن في صمت ، ولذلك .. كم كانت سعادتها بوجــــود سعاد معهم ، فدراستها ومؤهلاتها يسمحان لها أن تجاريه الحديث بعقلانية ، وهو يحبها ويحترمــها ، وهذا ما لن يتاح لبناتها .. على الأقل في الوقت الراهن ، وجاء حسام ليدخل بعض البهجة علــــى قلبه ، فقد أصبح يرتاح إليه ، ولا يرفض له طلبا ، وإلا لما رحب به في هذه الساعة المبكرة مــــن الصباح ، ولما سمح له بإحضار شئ مهما كانت الظروف . وعلت همسات التذمر .. ولم يجد الحاج بدا من استكمال الحديث ، بدأ ذلك بالسؤال :

• "أين توقفنا أمس ؟"

ووجد بنتاه ، والدكتورة سعاد يصحن ، وفى صوت واحد :

• " لما جدي سافر لدراسة الدكتوراه في الأزهر .."

وبدأ الرجل كلامه ، وهو في ذهول من ذاكرتهن التي تحفظ القصص ، ليتها تستوعب الـــدروس بنفس القدرة ، وبعد أن ذكرهم بذكر الله والصلاة على نبيه ، وكأنما لينبه القمورة الجديـــدة إلى تقاليد عائلة الصقر ، بدأ استرساله :

• " والدي ركب الوابور ، اللي هو القطر بلغة اليومين دول ، وبدأ يفكر ، يروح فين ، عنـــد مين ، إلى أن هداه تفكيره إلى أحد زملاء الماضي الذين لم تنقطع المراسيل بينالهم ، وهو عارف بيته ، نزل من الوابور عليه دوغرى ، ولحسن حظه وجده بالمنزل ، وبعد السلامات والـــذي منه ، قص قصته ، وهون الرجل عليه شارحا له أن الرزق على الله سبحانه وتعالى ، وعلينـــا إحنا السعي دون التواكل ، ومع شروط جدي ، كان من الصعب أن يجد وسيلة رزق بسهولة فيما عدا معلم لغة عربية في إحدى المدارس ، وكان زمان حتى في مدارس الحكومة ، المـــدرس يقدم الطلب إلى الناظر ، وهو الذي يبت في أمر تعيينه ، كان فيه تسهيل في كل شئ ، يمكـــن لان عدد المتعلمين في ذلك الزمان كان قليلا .."

وقص الحاج محمد كيف أن الشيخ القادم من القرية ، استطاع الالتحاق مدرسا في إحدى المدارس القريبة من الهرم ، وذلك بمساعدة جميع زملائه الشيوخ الذين استقروا في القاهرة ، وكيف قـــدم طلبا للالتحاق بالأزهر ليدرس العالمية ، وكيف أنه خصص له عمودا بالأزهر ليثبـــت كفاءتـــه ، وكيف استطاع أن يتدبر أموره بالجنيهات القليلة التي كان يتقاضاها من التدريس ، فجهز شقة من غرفتين ومنافعهم ، وكان يرسل لوالده جزءا مناسبا من راتبه ، ورغم أن والده لم يكن في حاجة إلى ملاليمه ، لكنها كانت غالية جدا عنده ، ذلك أنه كان يعتبرها ثمرة من ثمرات كفاحه ، نضجـــت وأينعت وآتت أكلها . وعاد إليهم بعد انتهاء العام الدراسي ، كانت نتيجته مشرفة في دراســـته بالأزهر ، ونتيجة تلاميذه كذلك ، فقد كانت مضرب الأمثال سواء في الوزارة أو مســـؤوليه في المدرسة ، أو أولياء الأمور ، وكيف وفقه الله في الجمع بين كل هذه الأعباء دون تعب أو كلل .

• " عاد إلينا محملا بالهدايا والضروريات ، وكانت سعادة الجميع به لا توصف . وفاتح والده في أن يأخذنا معه ، وبعد أن تأكد جدي من مقدرته على الإنفاق علينا ، ونظـــرا لأن والـــدتي أخذت تلح في ضرورة أخذنا معه لكي ندخل المدارس ، ونتعلم ، لأنه من غير المعقول إنه يعلم أولاد الناس واولاده في القرية محرومين من العلم ، خاصة أنه بعد أن تركها لم يصلهم إمام بعده ، ولم تكن هناك دروس ولا علام ولا حفظ قرآن ، بالرغم من المساعي المضنية التي بذلها والدي في القاهرة مع المسؤولين لتزويد القرية بإمام للمسجد ، وذهبنا إلى الشقة التي جهزها والدي ، وبعد أن استقر بنا المقام ، وألفنا المنطقة ، وبدأت لنا صداقات مع أهلها ، فاجأنا والدي بأنـــه اشترى كام قيراط أرض طين ، وإذا بوالدتي تصر على الانتقال فورا إلى هذه الأرض ، والسكن بها ، وترك هذا الحق ، فمن ألف الحياة في متسع ، لا تعجبه شقق هذه الأيام مهما كان اتساعها ، وقالت " إن أرضنا أولى بنا ، والبيت حتى لو كان عشه في أرضنا ، يبقى أفضل من قصـــر مش ملكنا " ، ونص فدان زمان كان مساحة كبيرة قوي ، يعني يمكن لأسرة بالكامل أن تعيش على خيره ، وكان سهل الواحد يشتريه بالتقسيط المريح ، والعجيـــب أن الوالـــدة أبـــدت استعدادها لتحمل كل المشاق ، وتهيئة كل الظروف له ولنا ، وعليه أن يجد كل شئ من غـــير أي نقصان . واشترى الوالد خيمة ، ونصبها على رأس الأرض ، وشد العزم علـــى البنـــاء ، ومـــا أن علم زملاؤه بنيته هذه ، حتى بادروا بالمشاركة ، الوالد يبني يساعده أكثر من زميل ، ونحن والباقون نساعده ، حتى أكمل بناء من غرفتين ومطبخ وحمام ، وأعلنت الوالدة بأنها كافية لإقامتنا ، على أن نستكمل الباقي واحدة واحدة ، واحنا في بيتنا ، وألحقنا أنا واخـــوتي الأولاد بالمدرسة التي يعمل بها ، وكذلك ألحق البنات بالمدرسة المجاورة ، وكان رأى والدتي ، أننا ونحن في الأرض نستطيع أن نرعاها ، فالأرض لا تعطي خيرها إلا لصاحبها ، وكلما اهتم صاحبها بها ، اهتمت هي به ، وطلبت أهم عناصر الإنتاج الزراعي ، الحيوانات والدواجن ، فالأرض بدون حيوانات ، كالبيت بدون سقف ، فالحيوانات تأخذ من الأرض بقاياها ، وتعطـــي لـــلأرض سمادها ، أما عنا نحن أصحاب الأرض ، فحدث ولا حرج ، بدأنا نشرب الحليب طازجا ، ومن الجاموسة مباشرة في بعض الأحيان ، والعجيب أنها لم تكن تبخل علينا بحليبها ، بل كنا نشـــعر بسعادتها معنا ، فنحن نلاعبها وننظفها ونحادثها ، كنا أصدقاء لها ، وهي سعيدة بهذه الصداقة ، أما عن الدواجن فقد كانت كثيرة ومتعددة ، دجاج وبط ورومي وأوز ، ونحن والدجـــاج في لعبة القط والفار ، الدجاج يخبئ البيض ليفقس كناكيت ، ونحن نبحث عنه لنـــأكل حاجتنـــا

منــه ونبيع ما يزيد ، صحيح إن البيضتين وربما الثلاثة كانوا بصاغ حسب الحجم ، لكنه كان رزق ربنا سبحانه جعل فيه البركة ، كل يوم فيه فلوس ، إما من البيض ، وإما من الحليــب ، وإما من إنتاج الأرض نفسها ، فكنا نزرعها خضراوات ، والمنطقة من حولنا معظمها بيــوت ، وناس ساكنين ، وأرخص لهم الشراء من عندنا ، وبالقطع أفضل من السوق لأنه طازج مائــة بالمائة . وكلنا يتعاون ، وإيجار الشقة رغم أنه لم يكن يتجاوز الجنيه ، إلا أن توفيره ساعد كثيرا في تكاليف البناء ، نشترى به طوب أحمر ورمل وأسمنت ، وبعد العودة من الدراســة وأيــام الجمع والإجازات نتعاون جميعا في استكمال البناء ، بوى وأماي يبنوا ، واحنا نناول ، وأنــا أعمل المونة ، وكل واحد منا على كيفه ، أنا طلبت لنفسي غرفة مستقلة بحمام خاص بهــا ، ويكون إفرنجي ، وكانت والدتي رحمها الله دائما ما تمازحني وتقول :" العيــش ذرة والكــلام رومي " كناية عن أنني فلاح ولكن تطلعاتي أجنبية ، أما باقي اخوتي وأخواتي ، فلم تكن لهــم طلبات خاصة ، فكان البيت أربع غرف وصالة كبيرة ، غرفة للوالد والوالدة بحمام مســتقل ، وثانية لي ، وأيضا بحمام مستقل ، والثالثة للبنات وحمام مستقل ، ورابعة لــلأولاد ، وحمــام مستقل ، والصالة بها حمام آخر للضيوف ، والوالد رحمه الله ، راح عامل خزانات للمراحيــض مستقلة عن خزانات مياه الاستحمام والمطبخ ، ذلــك أن خزانــات المراحيــض مــع روث الجاموستين ، ما إحنا اشترينا جاموسة ثانية بسم الله ما شاء الله ، يبقوا لتسميد الأرض ، أمــا باقي المياه ، فكانت تستخدم في أعمال رش الطريق من الشارع العمومي إلى البيــت ، أو رش السطوح علشان يهدى حرارة الشمس في الصيف . لم نكن في حاجة إلى توصيلات مياه مــن الحكومة أو خلافه ، دقينا طلمبة حتى نضمن أن المياه غير ملوثــة بــالأمراض ، بلهاريســيا وانكلستوما وخلافه ، أما عن الكهرباء ، فما حاجتنا بها ، لمبات الجاز موجودة ، وفيها البركة ، ولا تنقطع إلا إذا انقطع الجاز ، وساعتها يبقى الشمع أو حتى نور ربنا ، والكانون اللي هــو عبارة عن موقد يتم إعداده بحيث توضع فيه النيران ، والطعام أو المياه توضع أعــلاه بنســبة بطريقة تعرفها والدتي رحمها الله ، والنيران تكون من بقايا الحقل ، أما عن الخبز ، فقد تعاونــا تحت إشراف أمي ببناء فرن في الساحة الخارجية للمنزل ، صحيح الهد وانبنى أكثر من مــرة ، لكنه في الآخر كان تمام ، ذلك أن الفرن يبنى بطريقة هندسية لا يعرفها إلا أهلها ، وأمي مـهما كان برضك ليست لها خبرة في هذا المجال اللهم إلا مستعملة لا بانية ، فكان أكلنا كله طازج ، الخضار من الحقل مباشرة ، والخبز طازج من الفرن مباشرة ، واللحوم إما من حيواناتنــــا

(الأرانب أو المعيز والخرفان) أو يشتريها والدي من الجزار وهو عائد من المدرسة ، وبرضـك طازجة ، يعني مش مثلجة ولا مبردة ولا حاجة من دي خالص ، وكنت واخـــوتي نذهـــب في بعض الأحيان لصيد السمك ، أنا الحقيقة لم يكن عندي صبر لانتظار السمكة حـــتى تنخـــدع وتلقم الطعم ، لكن أخواي كانا يسعدان بذلك ، فكنت أعطي مبلغا من المال لأحد الصيـادين ، فيرمي الشبكة في النيل لحسابي ، وربنا سبحانه كان يبعت لي رزق كبير ، يكفينا ويفيـــض ، وكنت أقول لأخواي أن لا يذكـــرا قصة الصياد ، فتذهب الظنون بأبي وأمي وأخواتي البنـات أنني أنا الذي قمت بالصيد مع أخواي.. دون أن يكون هناك كذب في حديث أي منا ..."

وأنهى الرجل حديثه بأن طلب من الدكتورة سعاد والبنتين الاستعداد للذهاب إلى الجامعة ، بينما مالت نشوى تهمس في أذن منال ، فأخذتها منال إلى الداخل ، والفتاة تخفي وجهها خجلا ، ولم يبق سوى حسام والحاج محمد وزوجته ، وأخذ حسام يمتدح العائلة ، ويشكر الظروف التي عرفته بهـم ، بالرغم من كل شئ ، ونظر إلى صورة معلقة في الصالون ، وتساءل عن ما إذا كانت للشيخ عبد المؤمن والد الحاج محمد ، لكن زوجة الحاج محمد علقت بأنها صورة والدها ، وأشارت إلى صـورة شيخ في جبة وقفطان وعمامة ، وقالت :

- " هذه هي صورة الحاج الدكتور عبد المؤمن .. رحمه الله.."

وهم حسام بأن يسألها بعض الأسئلة عنهما ، لكن نشوى كانت قد عادت من الداخل ، وهمست في أذن حسام ببضع كلمات ، أعلن حسام على أثرها عزمهما على الرحيل ، ثم استدرك :

- "يا ترى الإفطار باكر إن شاء الله حيكون إيه..؟ "

وسارعت الحاجة جميلة وقد ملأت البشاشة وجهها :

- " اللي انتو عايزينه يا ابني.."

فنظر إلى الحاج محمد كمن يطلب موافقته ، فأعلنها الرجل صريحة :

- "القيادة أمرت .. يعنى إحنا ما علينا إلا التنفيذ ، هو فيه بعد كلام الحاجة جميلة كلام .."

فعلق حسام وهو يؤكد على أن الأمر لم يكن مخططا :

- " اليوم شغلى حيكون في الطريق الزراعي ، وسأمر على قويسنا.."

فقفزت نشوى بطفولة :

• "فطير مشلتت يا أبيه.."

فقال حسام بهدوء :

• " بعد إذن عمى وطنط .. ده يبقى يا إما غداء أو عشاء .. لا لا لا .. ده يبقى إزعاج منا .."

فقال الرجل برحابة صدر ، وشاركته زوجته :

• " إزعاج إيه .. أنتو جايين وخيركم سابقكم.."

فشد حسام على يد الرجل مودعا ، بينما علقت نشوى :

• "دى صفية حتتبسط قوي .."

وظهرت علامات التساؤل على وجه الرجل وزوجته ، ونظر حسام إلى نشوى مندهشا ، فعلقت نشوى :

• " أصلهم لما يعرفوا في البيت .. يمكن ماما وبابا كمان ييجوا .."

وازداد عجب الرجل وزوجته ، لكن حسام أظهر التردد وهو يقول :

" لا ده يبقى إزعاج ما بعده إزعاج .. إحنا كده يبقى تقلناها قوي .."

فعلق الحاج محمد سريعا :

• "لا يا ابني .. أهلا بيكم وبيهم في أي وقت .. أهو اليوم آخر الأسبوع والسهرة تحلى .."

وعلقت الزوجة سريعا :

• " بس بقى بلاش حكاية الفطير دى ، وأنا حأعمل لكم أكلة صعيدي من الأكلات اللي حتبوها قوى.."

وبعد أخذ ورد ، تمت الموافقة ، وحدد حسام موعدا على أمل أن لا يكون هناك إزعاج لهـــم ، فطلبت نشوى من حسام أن تذهب الجامعة مع الدكتورة سعاد ومنى ومنال حتى لا تعطله عـــن عمله ، وكانت منى ومنال والدكتورة سعاد قد أنهوا استعداداتهم ، وإذا بحسام لم يملك نفسه مـــن

إظهار إعجابه ، فقد تفننت الدكتورة سعاد في تزيينهما على الطريقة الأمريكية ، بالملابس المحتشمة والحجاب ، فكانتا كدرتين في بهاء وجلال ، وعلقت نشوى تعليقا جميلا ، بينما أقبل الرجل على ابنتيه يقبلهما ويدعو لهما أن يحفظهما الله ، وكذلك فعلت الزوجة وهى تدعو وتبسمل وترقى وتقرأ المعوذتين ، حتى أن حسام تعجب ، وتساءل إن كانت تخشى عليهما من أن يحسدهما ، مشيدا بالجمال الرباني الذي لا دخل لصناعة الإنسان فيه ، فعلقت الحاجة جميلة قائلة :

• " يا ابني .. ما يحسد المال إلا أصحابه .. مش كده والا إيه .."

فعلق حسام ونشوى في وقت واحد :

• " إيـــــه .."

فقهقه الجميع ، بينما اصطحبت سعاد البنات إلى المصعد ، وسارع حسام إلى السلالم ، وهو يعلق على أن الرياضة شئ جميل ، وأنه لو استمرت عملية الإفطار هكذا دون رياضة ، فربما زاد وزنه إلى الضعف .

وتساءلت الحاجة جميلة بينها وبين نفسها بصوت تعمدت أن يكون مسموعا ، عل الحاج يسمعه :

• "لابد وأن في الأمر شئ ، هو وأختيه ووالدته ووالده ، أنا متهيئ لي الهم جايين يخطبوا منـــال ، وإذا كان الأمر كذلك ، يبقى لازم نكون مستعدين ، والا إيه رأيك يا حاج..؟"

ومط الحاج شفتيه معبرا عن احتمال حدوث ذلك الأمر ، متذكرا تعليق سعاد ، وسارعت الحاجة جميلة تدبر أمر العشاء ، وتجهز قائمة الطلبات ، وهي تشرك الحاج معها ، حتى ترى مدى استعداده للموافقة ، لكنها سرعان ما انعطفت بمجموعة من الأسئلة حول هؤلاء الناس ، وان كان الحـــاج يعرفهم :

• "الجماعة دول زي ما يكونوا يعرفونا ونعرفهم ، حسام شكله قريب قوي من أخي عفـــت ، ونشوى فيها شبه كبير قوي من والدتي رحمها الله ، وبعدين تعليقه على صورة والدي ، كأنـــه كان ينوي أن يقول حاجه ، انت مش ملاحظ كده برضك يا حاج ؟"

والحاج على صمته ، انهمك في قراءة الجريدة ، واكتفى بالتعبير عن رأيه بالأصوات المعتـــادة دون الجهر صراحة بالكلمات ، والحاجة مصممة على أن تشركه في الأمر.

لم تصدق الحاجة جميلة عينيها عندما رأت صفية ، فقد كانت كأنما هي نسخة مكررة منها باعتبار فارق السن ، احتضنتها بعفوية مطلقة وهى تبسمل وتحوقل ، وأشادت بها وبجمالها ، بينما تعجبت منال والدكتورة سعاد من هذا التشابه ، أما الحاج محمد فإنه لم يعلق ، فهو لا ينظر إلى السيدات ، وكانت الاثنتان ، صفية ووالدتها في حجابهما كأنهما لؤلؤتان جميلتان ، وبعد الترحاب وتقديم واجبات المجاملة قالت الوالدة :

- "الحقيقة إن البيه كان عايز ييجي ، بس فيه ظروف منعته .."

وعلق الحاج محمد بعفوية مطلقة :

- " عله خير إن شاء الله .. فيكم البركة .."

ولا تدري السيدة كيف انزلق لسانها بمجرد أن رأت منال ، فقالت وهى تسلم علي عليها وتتفحصها بعين خبيرة :

- "بسم الله ما شاء الله ، ذوقك حلو قوى يا حسام .. بسم الله ما شاء الله .."

كانت منال والدكتورة سعاد قد أدركتا أن زيارة الوالدة هذه وراءها ما وراءها ، فخرجت منال في زينة وأبهة لم يعهدهما والدها من قبل ، خاصة وأن إشراقة السعادة التي كست وجهها ، أضاءته بهالة من نور رباني ، زادها جمالا على جمال ، وما أحضرته الدكتورة سعاد للبنات من أمريكا ، كان أكثر مما يتصورانه ، وفاجأتهم والدة حسام ، وحتى قبل الجلوس :

- "اسمع يا حاج محمد .. حسام ابني من ساعة ما عرفكم ، ما بيعرفش ينام ، ولا يخلينا إحنا كمان ننام ، ما فيش على لسانه إلا منال وجمالها وتدينها وعائلتها ، وأنا الحقيقة كنت عايزة أحضر معاهم إفطار النهارده ، لكن حدثت ظروف منعتني .. وبصراحة بقى إحنا طالبين القرب .."

وتهلل وجه حسام ، بينما هرولت منال إلى الداخل ، وحضرت منى ببشاشة وقد ملأت السعادة وجهها ، وخلفها إحدى السيدات التي أحضرتها الحاجة جميلة لمساعدتهم في هذه المناسبة ، والتي ما أن سمعت كلمات الخطوبة ، حتى أطلقت مجموعة من الزغاريد ، لقد أفضت منال لوالدتها بالأسئلة التي وجهتها نشوى إليها عن ارتباطها من عدمه ، وسؤالها بصراحة عن رأيها في أخيها حسام ، وهذا ما أكد ما كان لدى الأم من هواجس عن رغبة حسام في الزواج من منال ، وزاد

من التأكيد اختلاء نشوى بمنال في الجامعة ، وعبرت لها عن رغبة أخيها في التقدم لخطبتها ، وقـــد ترجمت الحاجة جميلة حضور والدة حسام ، بأن هناك احتمالات لإعلان الخطوبـــة ، ولم تقصـــر الست أم مسعود احتفالا منها بهذا الخبر السعيد بإطلاق زغاريدها .

علقت والدة حسام بهدوء على هرولة منال إلى الداخل :

• "إحنا فينا من كسوف .."

ودخل البواب بما حمل من هدايا ، تقبلتها الأسرة بترديد عبارات المجاملة التي تقال في مثل هـــذه الحالات ، وجلس الجميع ، ثم استأذن الحاج محمد ، ودخل لســـؤال منـــال رأيـــها ، فلحقتـــه الدكتـــورة سعاد ، لتساعد منال في إبداء رأيها بصراحة ، دون خوف أو انزعاج ، أو انبـــهار ، ولخجلها لم تستطع إلا أن تهز رأسها تعبيرا عن الموافقة ، وعاد الرجل يرحب مع باقي أفراد الأسرة بالعريـــــس وعائلته ، بينما أسرعت نشوى إلى الداخل دون استئذان ، فقد اعتبرت نفســـها من العائلة ، خاصة بعد إعلان الخطوبة ، والموافقة الضمنية التي أعلنتـــها زغـــاريد أم مســـعود ، والموافقة المسبقة التي حصلت عليها نشوى من منال في الجامعة ، واصطحبت منال معها في العودة ، فأصرت والدة حسام أن تجلس منال بينها وبين حسام ، وامتدت السهرة إلى ما بعـــد العاشـــرة مساء ، حيث أصرت الحاجة جميلة أن يكمل الحاج محمد حكاياته ، وتعجب الحاج ، فالوقت غـــير مناسب بالمرة ، لكن تدخل البنات ، ولأنه لا يرفض لزوجته طلبا مهما كان ، خاصة وأن حســـام ونشوى انضما إلى المجموعة فأصبح الطلب جماعيا .

وحاول حسام الاستئثار بمنال في حديث يبثها فيه حبه الذي كـــان مـــن أول نظـــرة ، ورغـــم اعتراضها على هذا التعبير ، إلا أنه أثبت لها حقيقته ، وفلسف الأمر حتى بات مقبولا لها ، أســـتند في ذلك إلى آية الله تعالى في خلقه من أنفسنا أزواجا لنا ، وهذا لا يفسره إلا ما حدث لهما ، فمنذ أن رآها استحوذت على اهتمامه ، ثم وجد نفسه منجذبا إليها منذ أول إفطار له معـــهم ، ومـــع الأحاديث الممتعة التي أمتعه بها والدها ، والجو الأسرى الجميل ، والتربية الدينية الرائعة ، كل ذلك كان له أكبر الأثر في أن يعرف أمرين ، الأول أن تكون غير مرتبطة ، والثاني هل تمانع لو تقـــدم لخطبتها ؟ وقد قامت نشوى بمعرفة الإجابة ، ولم يكن أمامه سوى إحضار والدته أولا ، ثم يحضـــر الوالد ، والحمد لله أن الوالدة لم تكد تراها ، حتى كانت التعابير التلقائية ، التي لم تستطع أن تخفيها ، رغم ما تتمتع به والدته من كياسة تجعلها تتحكم في تصرفاتها وكلماتها وأفعالها ، وبالرغم مـــن

شوقه إلى المزيد من الحديث مع حبيبة القلب زوجة المستقبل ، ورغبته الجامحة في أن يكون الحديث عن مواعيد الخطوبة الرسمية وإتمام الزواج ، إلا أن حكايات الحاج محمد كانت مشوقة لدرجة تجعل الجميع ينصت ، خاصة وأنه كان يعتبرها مهمة جدا لاستكمال بحثه . وما أن بدأ الرجل حديثه ، حتى أحضرت منى هذه المرة عدة القهوة ، وأنصت الجميع :

• "أثناء عودتي من المدرسة ، تبعني كلب صغير ، لكنه جميل ولطيف ، واتضح بعد ذلك أنه ولف ، وقد كنا في حاجة ماسة لكلب رغم معارضة والدي ، وما أن علم أحد زملائي في المدرسة بموضوع الكلب هذا ، حتى أقنعني بإحضاره إلى والده الذي كان يعمل مدربا للكلاب بكلية البوليس ، وقام والد زميلي بتدريب الكلب على الأساليب البوليسية ، كما علمني الرجل كيف أدربه ، فما كنت أذهب إلى أي مكان ، إلا وهذا الكلب معي ، حيث بدأ يكبر بسرعة ، نتيجة الرعاية الكبيرة التي أولاها له الجميع حتى والدي ، فقد أنساه تعلقنا به المذاهب الثلاثة ، وتمسك بمذهب المالكية الذي لا يرى غضاضة في الكلاب المستأنسة ، خاصة وأن الله سبحانه وتعالى ذكره في القرآن في أكثر من آية ، فقط كان يتحاشى احتكاكه به ، وازداد حبه للكلب بعد أن استطاع قتل ثعبان كان يحاول دخول البيت . كان جدي دائما ما يرسل إلينا مددا أو زوادة ، إلا أن والدي كان يقبلها على مضض ، وكثيرا ما ألح في الكف عن ذلك ، بل ويصر على إرسال ما تعود على إرساله إليه من نقود ، حتى يثبت له أن الله وفقه ، وأصبح يستطيع الاعتماد على نفسه ."

واسترسل الرجل في قصته عن هذا الكلب ، حيث استطاع أن يلحق بأحد اللصوص ، واستعاد حقيبة بها مبلغ كبير من المال ، خطفها اللص من أحد الأثرياء أثناء ذهابه إلى البنك لإيداع المبلغ ، فقام الرجل باقتطاع مبلغ المكافأة من المال قبل إيداعه البنك ، وكانت المكافأة مبلغا يسيل له لعاب شاب يافع يتبين من ملابسه وهيئته أنه وعائلته ليسوا في بحبوحة من العيش ، إلا أن الرفض كان مفاجأة للرجل ، الذي كانت نوازع الخير فيه أقوى من رفض هذا الشاب للمكافأة ، فصمم الرجل على توصيل الشاب إلى منزله ، وكان إصرار الرجل على إعطائه المكافأة أقوى من تعابير الشكر التي كان الشاب الصغير يسوقها ، لا رفضا لتوصيله ، ولكن تجنبا للعناء الذي سيسببه للرجل ، ولما يئس الرجل من قبوله للمكافأة ، وتبين أنهم اقتربوا من المنزل ، أخذ الرجل يمتدح الكلب ، ويبين مدى أهميته له ، وأنه لابد أنه أحسن تدريبه ، وتمنى لو استطاع الاحتفاظ به ، ثم

عرض على الشاب أن يشتريه منه ، وسارع الشاب بتلقائية موافقا ولكن بدون مقـــابل ، ورأى الرجل كيف أن شابا بهذه الظروف عنده من عزة النفس والكبرياء ما يجعله يرفض مكافأة ســخية على عمل كبير قام به ، كما رفض أخذ أية مبالغ مقابل الكلب ، واحتار ماذا يفعل ، ومع إصراره على إعطائه المكافأة ، فقد سارع باسقاطها بين يدي الشاب فور وقوف السيارة أمـــام المـنزل ، وخروج الشاب منها ، ثم أغلق نافذة السيارة وهو يأمر السائق بالابتعـــاد بســرعة ، وخرجـــت والـــدة الشاب وقد أقلقتها جلبة السيارة تستطلع الأمر ، ورأت المال الذي سقط علـــى الأرض فقامت بالتقاطه ، وسألت ابنها عن مصدره ، وقررت عدم الاقتراب منه حتى يحضر والده ويفـــتي فيه بقراره . وحضر والده فأخبراه بما حدث ، ومع كثرة أسئلته ، وتعرفه على مصدر المال ، شكر الله سبحانه وتعالى على هذا الرزق ، وقال لأولاده جميعا ، أن هذا المبلغ ملك أخيهم محمـــد ، وأن أي عمل سيستخدم فيه ، سيسجل باسم محمد ، ويجب أن يعرفوا ذلك جيدا ، وعندما استفســـر محمد عن سبب إصرار الرجل على دفع هذا المال ، قال الشيخ العالم ، بأنه مكافأته على استرداد ما سرق منه ، وأنه قانونا يستحق نسبة من المال الذي استرده ، وربما كانت هذه هي النسبة . كانت هذه المكافأة فاتحة خير ، فقد ساهمت في استكمال البيت ، حتى أصبح كما فيلات الأثريـــاء ، تم ذلك بإرشادات ابنه محمد ، فقد كان لقاءه بالرجل الثرى بداية مرحلة جديدة في حياته ، وقد تأثر به أيما تأثير ، أدخله القصر الخاص به ، وانبهر بهندسة بنائه ، وجمال ديكوراته ، ثم أنه دخل قصورا أخرى على شاكلته وربما أفخم ، ومن تعرفه على مكونات هذه الفيلات استطاع أن يرشد البناءين وغيرهم إلى تغيير الشكل العام للبيت ، حتى أصبح قريب الشبه بهذه القصور ، وصمم الحديقة التي تحيط به ، وانتقى لها أجمل الزهور وأحسن النباتات .

وتساءل حسام :

- "وكيف تعرفت على تنظيم هذه الفيلات من الداخل يا عمي ؟"

وأجاب الرجل بهدوء :

- "في الصباح الباكر من اليوم التالي ، فوجئت بالكلب مسعد ، وهذا كان اسمه ، ينبح أمـــــام البيت ، وكم كانت سعادتي بعودته ، فاستقبلته ببالغ الشوق ، فقد كان عزيزا على ، لكن أبي صمم على ضرورة إعادته للرجل الذي دفع ثمنا لشرائه ، ولما لم أكن أعرف منزله ، فقد أمرني أن أبحث عنه ، وأعيد الكلب إليه ، فأخذت مسعد وخرجت أبحث عن بيت الرجل ، وأنـــا

لا أعرف كيف سأهتدي إليه ، إنني حتى لا أعرف اسم الرجل ، لكنني فوجئت بمسعد يرشدني للبيت ، ولما وصلنا ، رأيت السيارة التي كان الرجل يركبها تقف خارج الفيلا الفارهة كما القصر ، وكانت لدى هواية حفظ الأرقام ، وهذا أكد لي أنه يسكن هنا . لقد كانت فراسة أبي في محلها ، فما كان الرجل ليشعر بغياب الكلب ، ولعل مسعد تأثر بذلك ، فآثر العودة إلى من يحبونه ولو كانوا في عشه ، على أن يبقي مع من لا يشعرون به ولو كانوا في قصر ، واستقبلني الرجل استقبالا حافلا ، رحب بي أيما ترحيب ، وأمر بطعام وحلوى ، فتعففت ، لكن الرجل أصر ، وحضرت أبنته ، كانت صغيرة وجميلة ، جميلة لدرجة أنني لم أستطع أن أحول نظري عنها واستطاعت الفتاة الصغيرة أن تقنعني بما لم يستطعه أبوها ، أو لعلي أقدمت على الطعام والحلوى لكي أمتع نظري بأحلى عينين ، وأجمل شعر ، وأروع وجه رأيته في حياتي ، واستكان مسعد للجميلة ، التي قدمت له الطعام بيدها ، وبدأت تلاعبه ويلاعبها ، ثم اصطحبته إلى الخارج ، وعندما حاول أبوها أن يمنعها ، أشارت إلى مسعد باعتباره حارسها الأمين ، فنظر الرجل إليّ ، ولم أجد بدا من مصاحبتهما ، فتبين لي أن الأطفال الذين في سنها ، والذين هم حتى أكبر منها يحاولون مداعبتها لفرط جمالها بطريقة تصل في بعض الأحيان إلى التسبب في مضايقتها ، ولكن مسعد كان يهدد كل من يتجرأ على الاقتراب منها ، فتنزهت ما شاء لها التنزه ، وعادت رافعة رأسها أن الجميع أصبحوا يخشونها ، وعللت ذلك بأنه لولا وجودي ، ووجود مسعد لما تمتعت بهذه النزهة الجميلة ، فطلب مني الرجل بأسلوب غاية في الرقة ، أن أدرب مسعد على حمايتها ، وحراسة الفيلا ، وآمره بالبقاء معهم ، وتم ترتيب الأمر على ذلك وحدد لي راتبا مناسبا ، ما كان لي أن أقبله ، الرجل لا يعرف أنني كنت على استعداد لأن أقف ليل نهار أمام القصر كي أنعم برؤية تلك الجميلة التي أصبح مرآها عندي هو كل أملي ، كنت في فترة المراهقة ، ونظرة لجميلة كجميلتي ، ما كانت لتجعل النوم يقترب من جفوني ، ثم أن رقتها وعذوبة صوتها وحنانها الذي لم أره إلا من أمي ، وحنوها على مسعد ، ونظراتها الساهمة التي كانت تنظر بها إليّ ، كل ذلك جعل قلبي معلقا بها ، حتى لكأن الزمن كله وقف عند هذه اللحظات الجميلة التي ما زلت أعيشها . لكن الرجل الكريم أصر على الراتب ، ولم يمانع أبي طالما أنه مقابل عمل ، ولكني لم أكتف بتدريب الكلب فقط ، فقد كنت أسعى للاقتراب من جميلتي كلما سنحت الظروف ، ولا أفضل من تدريسي لها ظروفا تجعلني دائما بالقرب منها ، ولم يمانع الرجل ، فقد اكتشف أن مساعدتي لها أثمرت نجاحا

وتفوقا أثلجا صدره ،كما أن الراتب الذي حدده الرجل لي كان له تأثيره الكبير في إعفـــاء والدي من مصروفي الخاص أنا واخوتي وأخواتي ، والباقي كانت والدتي تدخره لي ، وأغـــدق الرجل علي ببعض من ملابس ابنه الذي كان يكبرني قليلا ، ولما كنت متفوقا في الدراســـة ، وكانت الجميلة تشعرني بسعادتها لمساعدتي لها في استذكار دروسها ، فقد أصبح التفوق هـــي المرتبة الوحيدة التي لا ترضى عنها بديلا ، وكان ذلك سببا فيما كان يغدقه الرجل علي مـــن عطف واهتمام وهدايا ، فالسينما التي لم أكن أفكر في مشاهدة أفلامها لأنني لم أكن أســـتطيع دفع ثمن تذكرتها ، أصبحت واجبا أسبوعيا ، يرسل لي الباشا سيارته مع السائق لإحضـــاري ، وأكون ضيف الشرف معهم ، ثم يعيدني السائق بالسيارة ليلا ، فأجلس لأقص الفيلم علـــى والدتي واخوتي وأخواتي ، وبعد وقت قليل ، سمح الوالد لنفسه أن يستمع لبعض هذه القصص ، ولما وجد أنها هادفة ، وتحث على مكارم الأخلاق ، وتبين النتائج السيئة للانحراف وســـوء التربية ، بدأ يحافظ على متابعتها مع باقي أفراد الأسرة ، ولما وجد من اخوتي وأخواتي الرغبـــة في الذهاب إلى السينما ، وافق بشرط موافقة الباشا بترحيب مناسب ، ولم يبد الباشا اعتراضا أو تململا ، كما أن الجميلة كانت تسعد بهم ، وتعمل على راحتهم وإشعارهم بـــأنهم محـــل حفاوتها واهتمامها ، لكن ذلك أثار حفيظة ابنه المدلل ، الذي كان دائم الرســـوب ، وكـــل همـــه الحفلات والرحلات و ..."

وقبل أن يسترسل في ذمه لابن الباشا ، وخزته زوجته حتى لا يزيد ، فتوقف الرجل عن الكلام ، ونظر إليها في حنان يستفسر ، فقالت بعض الكلمات التي هز الرجل رأسه على أثرهـــا ، لكـــن الجميع كان يستحثه أن يكمل :

- " أقام الباشا حفلا لابنته لنجاحها في الابتدائية بتفوق طبعا ، وكانت الابتدائية شهادة عامـــة ، ولها أهميتها ، حتى أن وكيل المدرسة الابتدائية التي كنت بها ، لم يكن يحمل سوى الابتدائيـــة ، ودعاني إلى ذلك الحفل بصفة خاصة ، وزيادة في تكريمي ، أمر المربية أن تصطحبني بسيارته إلى محلات الملابس الفاخرة لأختار ما أريد منها ، لكن الجميلة طلبت مصاحبتنا ، وقـــامت هـــي باختيار الملابس وأشرفت على تناسقها ومقاسها وتكاملها ، والحقيقة أن ذوقها كان جميلا حقا ، وليلة الحفل أرسل الباشا السيارة لإحضاري من منزلي ، فدخلت الحفل وأنا في قمة الخجـــل ، لكن الخجل عند رجال الصعيد ، خصوصا المثقفين منهم ، يبدو كأنه تعالي ، ولقد كنت في قمة

التأنق ، حتى ظنني الكثيرون من المدعوين ابن ناس أكابر ، ومع امتناعي عن التدخين ، ورفضي ما قدم لي من أنواع الخمور ، ورفضي مراقصة أي من الفتيات اللاتي حاولن التودد إلي ، زاد تأكدهم من أن تلك الأخلاق الرفيعة ، وتلك التربية العالية لا يتمتع بها إلا أبناء الطبقات الراقية ، بينما زاد ذلك من حفيظة ابن الباشا ضدي ، فقام بالهمس لمجموعة من أصدقائه ، وأطلعهم على حقيقة أمري ، وأنني لست إلا بتاع كلب أخته المدلل ، فعن لهم أن ينالوا مني استهزاءا ، فقدموا يحدثونني بالإنجليزية ، ظنا منهم أنني أجهلها ، وحديثهم كان بألفاظ منحطة ، وفوجئوا بي أبادلهم الحديث بإنجليزية أقوى ، وبلكنة لا يمكن أن يتصور سامعها أن الناطق بها من أصل عربي ، ذلك أن مدرسي اللغات زمان ، كانوا من الدول الأوروبية ، ومن حسن حظي ، أن مدرسي كانوا معجبين باجتهادي فلم يبخلوا علي بالاهتمام وزودوني بكتب أعلى من مستواي ، وخصوني بتعديل اللكنة بكثرة حديثهم معي ، وعندما أراد أحدهم أن يحاجيني بالفرنسية ، كان له ما كان لأقرانه ، فتطاول علي أحدهم بأبيات شعر باللغة العربية كلها سباب .."

وطلبت نشوى أن يسمعهم تلك الأبيات ، فأنشد الرجل :

- "يا ابن عنز وجهك فيه طول   ووجه الكلاب فيه طول
- "الكلب فيه وفاء ، وفيك غدر   وفيك عن قدره سفول"

- وهممت أن أرد عليه شعرا :

وإن بليت بشخص لا خلاق له   فكن كأنك لم تسمع ولم يقل

من جالس الوغد والحمقى جنى ندما لنفسه ورمي بالحادث الجلل

- "وقبل أن أكمل ، فوجئت بالباشا يحضر مهرولا ، ويوبخ ابنه وأصدقاءه ، معلنا أنني ضيف الشرف في هذا الحفل ، واصطحبني إلى مكان الصدارة ، وأعلن للجميع أنني صاحب فضل على هذه الأسرة ، فلولاي لضاعت منه ثروة كبيرة خطفها أحد اللصوص ، واستطعت إرجاعها له بمساعدة ذلك الكلب مسعد ، وأنه لولاي لما نجحت ابنته بتفوق ، فقد ساعدتها في استذكار دروسها ، وأنني قمت بتدريب مسعد على حراسة المنزل ، وأعلن الباشا نجاحي في التوجيهية بتفوق ، وأن هذا الحفل ليس لابنته فقط ، وإنما هو لي أيضا ، ولام ابنه الخايب على

فشله ، وأعلن تمنيه لو تبادلت أنا وابنه المراكز ، فزاد ذلك من حفيظة ابنه علي . وأصبحت مودة ، الكل يريدني أن أدرب له كلبه ، والكل يريدني مدرسا لأبنائه وبناته ، وقد شجعهم أدبي وأخلاقي في التغلب على تحفظ البعض منهم على دخول شاب في سني ، واختلائه ببناته ، وشجعني الباشا بكلمات رقيقة على قبول تلك العروض ، خاصة وأنها أثناء إجازة الصيف ، وبعد محاضرة الباشا العصماء ، التفت حولي مجموعة من الفتيات يسألنني ويتوددن إلي ، إلا أنني فوجئت بالجميلة تنزوي في ركن وحيدة . ولما اقتربت منها أسألها سبب عزلتها ، رأيت دموعا غزيرة تجيبني ، وهممت أن أمسح عنها دموعها ، لولا أن حضر أخوها مسرعا فحال بيني وبينها ، وأمرها بالدخول إلى حجرتها ، فوقفت كمن سقطت فوقه مياه العالم ، والإحراج يكاد يقتلني ، وهممت بالانصراف ، لولا أن الباشا قدم نحوي يربت على كتفي ، ويعطيني كروتا بها عناوين وأرقام تليفونات وأسماء من يرغبون في الاتفاق معي على تدريب كلابهم ، أو تعليم أولادهم أو بناتهم ، وهمس الرجل في أذني أن لا أقبل بأقل من كذا في الساعة لتدريب الكلب ، وكذا في الساعة للتدريس كل حسب مرحلته ، وأدخلني البوفيه ، وأخذ يضع لي في طبقي ما كان يختاره هو بنفسه .

- ياه ..كم كان رجلا عظيما ذلك الباشا ، لقد أحاطني بعطف وحب واهتمام ، ما كنت لأحظى بمثلهم ممن سواه ، وأخذت أمسح المكان بنظري باحثا عن الجميلة ، ولغيابها وقلقي عليها ، لم تهف نفسي للطعام الشهي الذي يسيل له لعاب من هم في مثل طبقتي ، فهي أصناف لم نألفها ، لا في الشكل ، ولا في طريقة التقديم ، لكن هيهات لقلب شارد أن يستطعم لذة الحياة ، وأوصلتني سيارة الباشا إلى منزلي ، وأنا كالتائه ، وما أن دلفت غرفتي حتى أغلقت بابها خلفي ، وألقيت بنفسي على السرير ، وشرعت أبكي وأنتحب كما الأطفال ، وبدأت أفقد شهيتي ، وشعرت بالحرارة تسري في أوصالي ، وانتابتني حمى أفقدتني نشاطي ، وكنت كمن يستمرئ المرض ، فلا رغبة لي في مقاومته ، ولم تنفع معي أدوية طبيب ، ولا دعاء أمي ، ولا رقى أبي ، وأصبح شفائي أمرا ميئوسا منه . وافتقدني الباشا ، فأرسل إلي السائق بالسيارة ، فلما أن جاء البشير ، نهضت كما الذي لم يمسه سوء أبدا ، وتهيأت ، وركبت سيارة الباشا التي أرسلها في طلبي ، وكأنما استشعر الرجل أن بي علة ، وما أن اطمأن على حالتي الصحية ، حتى أخبرني بقائمة الذين يريدون خدماتي ، لكن في زحمة انشغالي ، يرجو أن لا أنسي دروس ابنته ، وكم يتمنى أن تبدأ من باكر ، خاصة وأنهم في سبيلهم إلى قضاء

الصيف في عشتهم في رأس البر ، ورجاني الرجل أن أذهب معهم لعل جو البحر يعيـــد إلي صحتي ، وكانت مكافأة لم أستطع رفضها ، سأكون مع الجميلة طوال أشهر الصيف ، يالها من مفاجأة ، لعل الله استجاب لدعوات والدتي ورقي والدي ، إنها إنها ..."

وقدمت أم مسعود تستأذن السيدة جميلة ، أن تجهز العشاء ، فذهبت الجميلة معـــها ، وأعلـــن الرجل أنها جاءت في وقتها ، ودارت بعض الأسئلة عن تصريحه لها بمشاعره ، فرفض الرجل الإجابة إلا في حضورها ، فهي وحدها صاحبة التصريح له بالإجابة على ما يخصـــها في هـــذا الجـــانب ، وحضرت السيدة جميلة تدعوهم للعشاء ، ونهضت والدة حسام ، فأوعز لها ابنها أن تنظر خلفها ، ورأت الصورة ، وانطلقت منها كلماتها دون وعي :

• "صورة رفعت باشا الأناضولي !!"

فأجابت الجميلة بهدوء :

• "والدي .. يا ألفت هانم .."

وتعجبت السيدة وهي تجحدها بنظرة متفحصة :

• "حضرتك نور هان هانم الأناضولي !!"

ولم تتمالك السيدة نفسها وهي تتفحصها ، فهتفت :

• "يا ربي !! يا الله !!"

ثم أعادت السيدة النظر إليها بتمعن وهي تردد :

• "نورهان .. أجل .. أنت نورهان .. يالها من مفاجأة !"

واختطفتها في أحضانها وهي تردد كلمات الحب والوحشة ، وتبادلت الفتيات النظرات ، وهتفت نشوى وصفيه بتعجب ودهشة ، من المفاجأة التي لم تكن تخطر على بالهما ، هما قادمتان لخطوبة ابنة عمتهما لأخيهما ولا تدريان :

• "..عمتي ... عمتي ... عمتي نور هان .."

وأسرعتا لاحتضانها بعاطفة جياشة فاضت لها الأعين ، بينما رددت منى ومنال ومهجه :

• "الله يعني أنتم تبقوا أولاد خالنا .."

وتعانقن عناقا حارا .. ثم نظرت منال إلي حسام ، وقالت :

• " كنت تعرف .."

فقال لها بدهاء لا يخلو من الزهو :

• " منذ اللحظة الأولي التي دخلت فيها بيتكم ، كنت كل ما أشوفكم أشعر بإن فيـــه حاجـــة تشدني لكم ، لكن ما هي ؟ لم أكن أعلمها ، إلى أن رأيت صورة جدي عندكم ، وتعجبت مـــا الذي جاء بها إلي هنا ؟ وانتظرت حتى أتأكد من وجودها في منزلنا ، وكنت أسمع عن عمـــتي نورهان كثيرا ، وأرى صورها ، بس بقى كانت صغيرة ، ولم أشأ أن أفقد الجميـــع ســـعادة المفاجأة .."

لكن ابنة أبيها لم يفت عليها ذلك ، فأرادت أن تكيل له بنفس المكيال :

• " أو لنقل أنك أردت أن تتأكد بعيدا عن أي تأثير.."

ولم يستطع الإنكار :

• " الحقيقة .. الاثنين .."

فقالت مؤنبة :

• " وهذا هو سبب انحيازك إلى صفنا ."

وقال وكأنما هو الفارس المغوار :

• " بل كنت على استعداد للقتال دونكم .."

واستدركته :

• " على حساب الحق والواجب .."

ولكنه أكد لها تمسكه بالحق والواجب :

• "لا ، ولكن لأني كنت علي يقين أن الحق معكم .. أولاد وأحفاد رفعت باشا الأناضولي لا يقولون إلا الحق ، ولا يعملون إلا الصواب .."

فنظرت إليه كمن تذكره بتصرفات والده مع والدها ، وقبل أن تكيل له العبارات ، جاء دوره ليحتضن عمته ، والدة حبيبته ، وزوجته في المستقبل ، وتعانقت البنات ، وجذبت مهجه حسام لكي يحتضنها ويقبلها ، وهي تقول :

• " أنا كان عندي إحساس من زمان إنك قريبنا ، علشان كده كنت بقول لك أبيه ، مش كده يا أبيه .."

ووجد الحاج محمد نفسه في هذا الحشد المثير من المشاعر ، بعبرات رقراقة تحاول الانطلاق ، فكان لابد له من أن يضع نهاية طبيعية لهذه المشاهد المؤثرة ، فقال بصوت أجهشته العبرات :

• "الطعام يا إخواننا .. الطعام سيبرد .. تفضلوا .."

ونسيت الحاجة جميلة نفسها للحظات ، فقد أعادت لها ألفت مكانتها في المجتمع المخملي ، نورهان هانم بنت عصمت باشا الأناضولي ، زهرة بنات الحي الراقي كله ، ومحط أنظار زينة شبابه ، ومصدر حسد وغيرة أجمل بناته ، هاهي تعود من جديد ، مع تلك الرابطة التي هيأها ظروف زواج ابنتها من ابن أخيها ، وتذكرت أخاها ، ذلك الحبيب الأول في حياتها ، حتى لكأنها كانت تتمنى أن تتزوج من يشبهه شكلا وخلقا ، لكنه تغير تغيرا كبيرا ، فلا الأخلاق من ذلك النوع الذي تفضله ، ولا حتى الشكل ، أصبح بالنسبة لها شخص غريب عنها ، منذ متى يا ترى ؟ هل منذ أن داعب قلبها الهوى بحب محمد ، أم منذ ما قبل ذلك ، وقدحت زناد ذهنها ، وكانت مفاجأة لها أن تتذكر كل الوقائع وكأنها حدثت بالأمس فقط ، كانت تخشى أن يكون حبها لمحمد هو السبب ، ولكنها تبينت أن حبه لبنت الزيتوني هو الذي قلب الموازين عنده ، حتى لكأن والدته التي كان متعلقا بها كطفل لم يتم بعد فطامه ، ماتت بحسرتها على إهماله لها ، أين هو منها قبل حبه للست ألفت ، لم يكن يطيق تحمل ألمها ، فما يكاد يسمع نداء مرضها حتى يسارع إليها ملبيا ، مهما كانت انشغالاته ، كانت تصدر تأوهات مرضها ألما ، أو تلك الكحة اللعينة التي كانت تنتابها ، فتضع يديها حول عنقها محاولة منعها ، حتى لكأنها تتمنى أن تخنق نفسها من شدة ما يصيبها من الإعياء ، وبعد أن تحول قلبه إلى حبه الجديد ، نسي أنه ابن لأبويه ، وأخ لأخته ، وتباعدت المسافات بينها وبينه على وجه الخصوص ، وبخاصة عندما توفت الوالدة ، فقد شعرت

بأنه مسئول عن بعض ويلات المرض التي عانت منها والدها ، والجميع يهمس بأنه سمعـــها تئـــن وهـــي في النزع الأخير ، ولم يبادر لنجدها ، بل خرج وكأنه لا يسمع شيئا ، وماتت المســـكينة ، ولم يكن أحدا بجانبها سواها ، طفلة صغيرة برئيه لا تملك من أمر نفسها شيئا ، فكيف بها مـــع أم مريضة عليلة في النزع الأخير ، لم تملك إلا البكاء وإلقاء رأسها على صدرها تتحسسه المســـكينة ، ويزداد ألمها ، فمن لها بعد موتها ، سوى والدها وذلك الأخ القاسي قلبه .

وكادت أن تزلف منها بعض عبارات العتاب لاعنة ذلك الأخ القاسي ، مسهبة في سرد أخطائه ، لكن الحاج الذي سمع في نبرات صوتها شيئا من التعالي ، نظر إليها تلك النظرات التي لا ترحم ، مما جعلها تبتلع كلماتها ، وتعود إلى طبيعتها ، الحاجة جميلة التي رباها على حبه ، ونهل هو من عطفـها وحنانها ورقتها وجمال روحها قبل جمال شكلها ، كل ألوان الحب والسعادة .

انشغلت أم مسعود في المطبخ ، في إعداد أطباق الحلوى والفاكهة ، بينما همس الذكريات بين نورهان وألفت لم ينقطع منذ أن أعلنت الجميلة عن نفسها ، حتى بناهما لم يكن يعرفن سبب الاختلاف بين اسمها الذي يناديها به والدهن ، وبين الاسم المدون في شهادات الميلاد ، ولم تجرؤ إحداهن على السؤال ، فقط ظنوه اسم دلع يحب أبوهن أن يناديها به ، ولم يكن يدور بخلدهن أن أباهن تزوج أمهن بعد قصة حب عميقة وجميلة ، وفيها من المشاكل والصراعات ما في كل قصص الحب ، ولأول مرة تتأكد البنات أن أمهن بنت باشا ، باشا حقيقي من باشوات زمان ، وهذا في حد ذاته رفع من معنوياتهن كثيرا ، فإن كان ابن السلحدار بك ، وربما هو ليس بيكا ، يتفاخر بالفيلا التي أكل عليها الزمان وشرب منذ أن شيدها أبوه أو جده ، الله وحده يعلم ، فإن جدهم الباشا كان لديه قصرا ، وقصرا منيفا في منطقة كلها قصور ، أو على الأقل هذا ما كان في زمانهم ، الله أعلم ماذا آل إليه الحال الآن ، وإن كان علاء يتفاخر بثرائه ، فثراء العلم ليس بعده ثراء ، جد دكتوراه في العلوم الدينية ، والأزهر بالنسبة لمشايخ الإسلام في العالم الإسلامي كله ، وحتى العالم غير الإسلامي ، هو أقدم جامعة منظمة مازالت قائمة حتى الآن ، وابن عم هو الدكتور طه ، ليس حاصلا فقط على الدكتوراه من أمريكا ، ولكنه أستاذ في جامعاتها ، وأستاذ مشهود له بالكفاءة والعلم ، وابنة عمة ، دكتوراه في الطب ومن أمريكا أيضا .

كان الحديث شيقا ، ولكنه لم يتطرق على ما يخص أبيهن ، فهن لا يعرفن عنه شيئا حتى تلك اللحظة ، سوى أنه كان متفوقا في دراسته ، وأنه من عائلة من أكبر عائلات الهوارة في الصعيد ، لكن ماذا كان يعمل ، وما هي مؤهلاته العلمية ؟ وما هي ثروته ؟ التي مكنته من إرسال ابن أخيه وابنة أخته إلى أمريكا لدراسة الدكتوراه ، أو أن يبني جدها جامعا كبيرا في منطقة الهرم ، أو أنه يبني مستشفى لكي تعمل فيها ابنة عمتهم وابن عمهم عندما يحضر من أمريكا ، ثم هن بعد تخرجهن وسفرهن لدراسة الدكتوراه في أمريكا أو في أي مكان آخر من العالم ، لابد وأنه شئ كبير جدا ذلك الإنسان الذي يخطط لعشرات السنين ، وينفذ دون أن يكل .

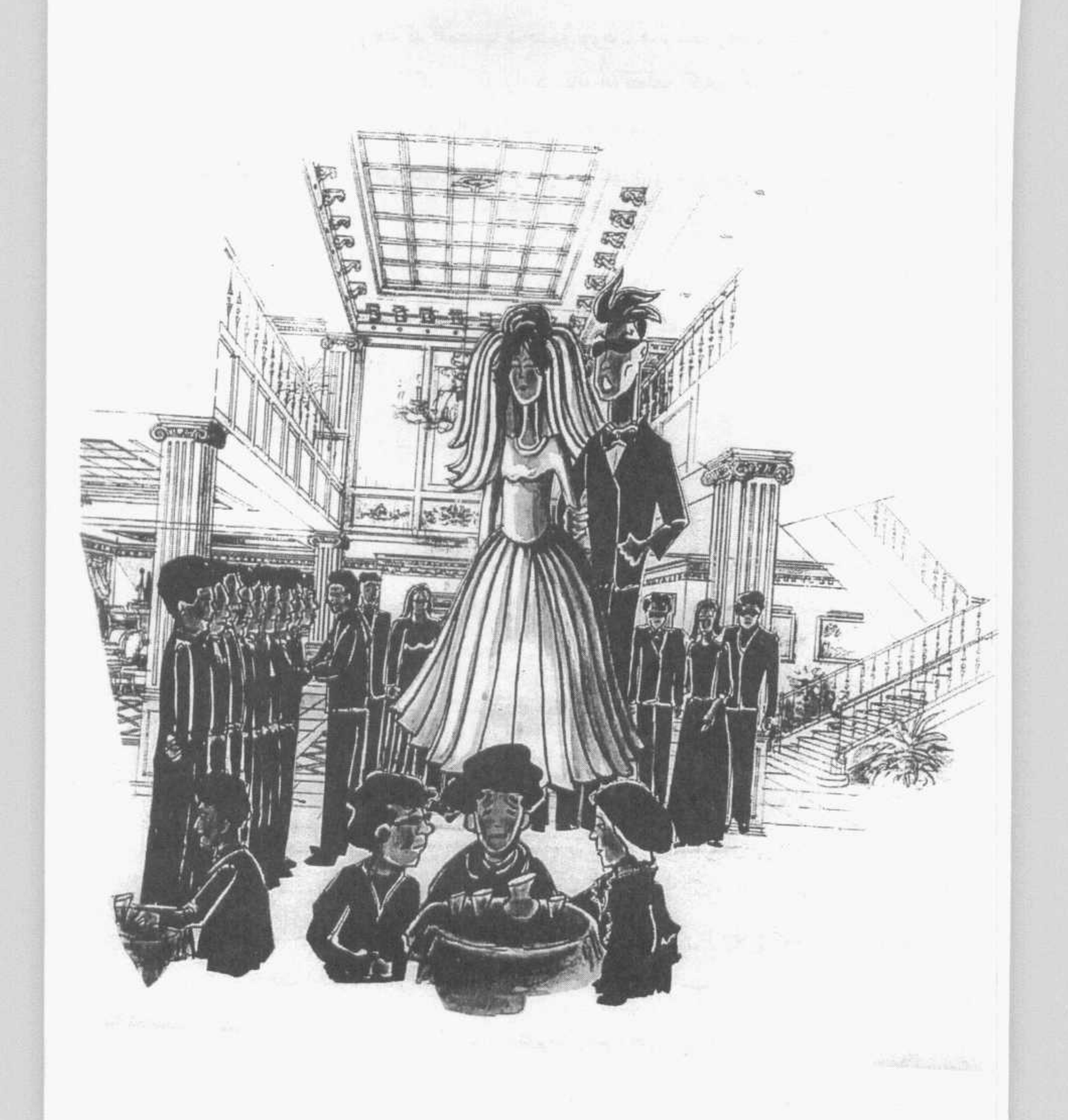
كانت نورهان وألفت جارتي سكن ، وزميلتي دراسة ، وكانت ألفت من بين تلميذات الحاج محمد ، لكن قلبها كان معلقا بحب مدحت الأناضولي ، أخو نور هان ووالد كل من حسام وصفية ونشوى ، وكانت ألفت دائما ما تقول لنورهان قبل زواجها من الحاج محمد ، لو لم تكن

قد أحبت مدحت ، لخطفت منها محمد ، فقد كان محمد صارم تقاطيع الوجه ، يكاد يتفجر رجولة ، قمحي البشرة بسمار يضرب إلى الحمرة من أثر أشعة الشمس لكثرة وقوفه تحتها نتيجة عملـه في بناء منزلهم ، أو في الأرض الزراعية التي تحيط به ، والتي اتسعت مساحتها بما سجله والده باسمه من أراض اشتراها له من المكافأة التي منحه إياها الباشا والد نورهان ، وكذلك من نـــاتج عملـــه في تدريب الكلاب ، وتعليم أولاد الذوات ، وهذا وحده كان عائدا مجزيا ، فضلا عـــن المكافـآت والهدايا والعطايا التي كان يغدق بها عليه أولياء الأمور نتيجة نجاح أبنائهم وبناهم بتفوق ، أو كلما أمسك أحد الكلاب التي دربها لصا أو متلصصا ، أو قتله أحد الزواحف أو الفـــئران ، كـــانت الرجولة تنطق من عينيه ، والشهامة تترجمها أعماله ومواقفه .

لذلك حاول الكثير من الفتيات استمالته ، بل إن منهن من كن يعرضن عليه أجسادهن بطريقـــة تثير فيه رغبات الشباب ، لكنه كان يستعصم ، وكانت منهن من تغلق الأبواب وتقول هيت لك ، لكنه كان يمتنع ، ولا يدخل تلك المنازل مرة أخرى ، حتى أتعابه لم يكن يفكر في الذهاب للمطالبة بها ، لذلك فقد كان موضع احترام الجميع وثقتهم ، وأيضا كان سبب ســـخط الفتيـــات عليـــه ونقمتهن ، إلا أنهن كن يتناقلن كل هذه الأمور في أحاديثهن التي غالبا ما كانت تصل نورهـــان ، والمسكينة كانت الغيرة تأكل قلبها ، فتزداد إصرارا على الاستئثار به لنفسها ، وتتمنى أن لا يدرس لأحد سواها ، ولا يدرب إلا كلبها ، ولا يشعر إلا بقلبها الذي يخفق بحبه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بزواجه منها ، ولكن كيف ؟ كان هذا هو السؤال كان يشغل بنت الرابعة عشر ربيعا ، فبدأت في إعمال فكرها لتحقيق الكيف هذه .

وكان الهمس بين الحاج محمد وحسام يعلو صوته أحيانا ، وعندما وصل إلى عبـــارة بـــالملابس السوداء ، حتى انتبه الجميع ، فاستغرقت جميلة في الضحك ، وكان هذا مثار تساؤل دهشة ألفت هانم والبنات ، فقالت الحاجة جميلة بكلمات يقاطعها استغراقها في الضحك :

- "هذا كان يوم زفافنا أنا ومحمد .. ألا تذكرينه يا ألفت هانم ، لقد حضرت البنات صديقـــاتي اللاتي أحببن حبيب قلبي محمد ، بالملابس السوداء حزنا على ضياعه منهن ، بينما اتفق الشباب أصدقاء أخي مدحت ممن كانوا يرغبون الزواج مني ، وبزعامة مدحت ، على الحضور بالملابس السوداء ، والكرافتات السوداء أيضا ، فقد كان مدحت يعتبر ذلك اليوم ، يوم حداد ، وليس حفل زفاف .."



وشعر الحاج محمد بأن زوجته قد تقمصتها شخصية نورهان هانم بنت رفعت باشا الأناضولي، فلم يشأ أن يضيع عليها بهجة الذكرى، بل وأراد لبناته أن يتعلمن كيف يكون الكلام مع من يعيشون ذكرى هذه الأيام، إذ لابد وأن يأتي اليوم الذي يجتمعن فيه مع إحداهن، فلا يفاجأن بالألقاب التي انقرضت، وحل محلها كلمات وعبارات كلها إسفاف وسوقية، فأضاف مكملا حديث زوجته :

- " أما الباشا رحمه الله ، فإنه لم يهتم برأي ابنه ؛ فقد كان يعتقد أنه اختار لابنته رجلا يستطيع أن يعتمد عليه في حمايتها والاهتمام بها ، فضلا عن مستقبله المضمون .."

وعلقت الحاجة جميلة :

- " كان محمد قد تخرج لتوه من كلية الهندسة "

قاطعتها ابنتاها .. وفي آن واحد :

- " بابا مهندس إذا .. لقد عرفنا في هذه الأيام معلومات هامة جدا ، ولكننا كنا في شوق للتعرف على مؤهلات الوالد .. وعمله .. ولماذا وصلنا إلى هذه الحالة رغم المساحات الشاسعة من الأراضي بالإضافة إلى الفيلات والأجنحة ؟.."

لكن الحاج محمد نظر إلى ابنتيه نظرة لائمة ، فما هكذا تكون الحوارات ، ولا هكذا تكون مقاطعة المتحدثين ، وأجفلت كل منهما معبرتين عن أسفهما بصمت ، فابتسم الرجل ابتسامة من يقرر منهجا من مناهج الأخلاق ، معبرا عن غفرانه لهما هذا التصرف ، وأومأ إلى نورهان لتكمل من حديثها ما انقطع . وقد كان لهذه الواقعة ما لها في نفس حسام ، الذي همس في أذن والدته ببعض عبارات ، لكن السيدة لم تشأ أن يكون ما قاله حسام سرا ، حتى لا يكون له أثرا سيئا في نفوس أصحاب البيت ، فقالت بعفوية ، وهي تقدم الاعتذارات حتى لا يعتبرها الحاج محمد ، مدرسها السابق ، قد تخطت الحدود الحمراء التي لم تبعد مسافة تحذيره ابنتيه منها :

- " لا يا حسام .. طب دول بنات مترببة .. عايز تقارنهم بأختيك ..!! "

وكانت صفية ونشوى على وشك الاعتراض ، بل لقد بدأت نشوى بإصدار صوت يعبر عن ذلك ، لولا أن حسام نظر إليها تلك النظرة التي صوبها الحاج لابنتيه ، فتذكرت ، واعتذرت ، واعتدلت . وبدأت الحاجة نورهان في استكمال حديثها :

• "وقبل ذلك كان الحاج وهو طالب في كلية الهندسة ، يتعاقد على مقاولات إنشاءات صغيرة ، يعني بيت واحد من الجيران يحتاج إلى تنكيس ، أو تبديل السقف من خشب إلى مسلح ، أو بناء بيت من كام غرفة وصالة ومنافعهم ، واستطاع تكوين ثروة مش بطالة ، أنشأ لنا منها جناحا خاصا لزواجنا ، في الأرض المحيطة بالفيلا بتاعتهم ، وتفنن في ديكوراته ، وقام والدي بتأثيثه كما يحلو لي ، وبذوقي الذي شهد محمد بجماله ، فكان عشا جميلا لبداية حياة سعيدة ، بين اثنين ربط الحب قبل الزواج بينهما ."

وتساءلت البنات :

• "وأين عش الحب هذا يا أبي ؟"

وتنهد الرجل طويلا قبل أن يجيب :

• " بعناه وتحول ثمنه إلى هذه العمارة .."

وانفجرت مهجة تتساءل بسعادة من تكتشف كنزا :

• "العمارة دي كلها بتاعتنا ..!"

وتنبهت منى ومنال والدكتورة سعاد على كلمات مهجة .. وخرجت منى عن صمتها لأول مرة :

• " نحن أغنياء إذا .. لماذا لا نشعر بذلك ؟"

آه .. ويلك يا حاج محمد ، لقد بدأت محاكمتك أمام بناتك .. ماذا تقول لهن ؟ وفي وجود ألفت وحسام وصفية ونشوى ، والأهم من كل هؤلاء .. سعاد ، وأراد أن يتهرب ، فهكذا تعلمنا الحكمة ، عندما لا تجد إجابة ، أو لا تريد أن تجيب ، عليك التهرب ، إما بتغيير الموضوع ، أو بأي شئ آخر ، وبحث الحاج محمد عن موضوع آخر يعرج عليه ، لكنه لم يجد ، فقد أطاح هذا السؤال بكل المواضيع من رأسه . لكن سعاد بكياسة تعليمها ، وبشعورها بأنها أحد أهم أسباب هذا الجدب الذي يعيشونه ، وحتى تلقي جانبا كبيرا من ثقل العبء الذي وضعت نفسها تحت تأثيره ، أو لنقل أن واقعة منى بكل ما فيها من أبعاد ، جعلتها تئن تحت ثقله :

• " بعد إذن خالي .. أنا اللي حأقول ما لن يقوله خالي .. بكرمه وخلقه وإيمانه وعفة نفسه وحرصه على شعور الآخرين .."

ولم تستطع أن تكمل .. فقد خنقتها العبرات .. وحاول الجميع أن يهدئوا مـــن روعـــها ، وأن يخففوا من حدة ما يعتلج في نفسها من مشاعر اختلط فيها الإحساس بالذنب والشعور بالمسؤولية ، بالألم الذي يعتصر كل جوانحها ، لكنها أبت إلا أن تكمل :

- " أنا واحدة من تلك الأسباب يا أحب الناس إلى قلبي .. بعد خالي وعمتي نورهان ، أنا .. وابن عمكم طه .. واخوتي وأخواتي واخوة طه وأخواته وغيرهم كثيرون في رقبة هذا الرجل العملاق .. طيب التعليم حتى الجامعة يمكن يكون واجبك يا خال.. لكن دكتوراه .. ومن أمريكا .. ده شئ كثير قوي يا خال .. كثير قوي يا خال .. ليه يا خال .. ليه يا خال.."

وانكفأت على أقدامه تقبلها وتبللها بدموعها ، وعبثا حاول حسام ووالدته وأختاه أن يوقفوا هذا السيل من المشاعر القاتمة التي فجرتها سعاد ، باعترافها بجميل خالها عليها وعلى باقي أقاربها ، الذي كان على حساب بنات هذا الرجل وعائلته كلها ، بينما الرجل لم يتمكن من التجاوز عن هـــذه المشاعر فانفجرت عيناه ينابيع دموع تلتهما عينا نورهان ، ولم تسلم الفتاتان من البكاء ، وتكومت العائلة جميعها فوق بعضهم يواسون ويتواسون ويبكون ، فلم يملك حسام وعائلته إلا البكاء تـــأثرا بمشاعر نبل ووفاء ، لرجل كان للإيثار عنده أفضال وأفضال .. تذكر حسام على أثرهـــا بعـــض أفعال والده ، ونظر إلى أمه التي لم تغفل عنها تلك المقارنة ، لكنها أومأت برأسها لحسام ، كمـــن تقول ، إنه قدرها ، وربنا هو الهادي .

وأفاق الرجل ، ما هكذا تكون الأمور أمام ألفت وبناها ، وخصوصا أمام حسام ، فربت علــــى ظهر ابنة أخته وأنهضها وهو يكفكف مدامعها ، وخرجت من فمه بعض عبارات ، ربما هو نفسه لم يكن يفهم معناها الحرفي ، ولكنها كانت مواساة لابنة أخته التي كالت وفاءها لخالها ، أطنانا مـــن المشاعر الجياشة ، لم يستطع هو أو زوجته أو ابنتيه ، أو حتى ضيوفه .. ابن أخ نورهـــان وبناتـــه وزوجته ، أن يقاوموا ما جادت به أعينهم من دموع مشاعر ومشاركة وجدانية :

- " كله من خير ربنا ، وخير جدكم يا سعاد ، انت نسيتي الأرض اللي انتو عايشـــين فيـــها ، والدتك واخوتك وباقي خالاتك وأولاد أعمامك و.. كلكم يعني ، ما هي دي الأرض اللي أنا اشتريتها بالفلوس اللي بعت بيها أملاك جدكم ، ولعلمك ، فإنها باسمكم كلكـــم ، وحســب الشرع .. يعني كله من خير الله وخير جدكم ، هوني على نفسك يا دكتورة .."

ونظرت إليه ابنة السادسة والعشرين ، وهي تتمتم :

• " أرض .. أرض إيه يا خال ، حضرتك نسيت إني فلاحة ، وعشت على هـــذه الأرض حـــتى سفري إلى أمريكا .. يعني كنت عاقلة ، وواعية لكل شئ ، والمصاريف اللي بـــالآلاف .. دي برضك من فلوس أرض جدي ، واللحوم والخضراوات اللي بالأطنان كل يوم ، دي من فلوس جدي ، انت عملت اللي عليك وزيادة ، زيادة قوي يا خال .."

وألقت بنفسها مرة أخرى عند قدميه ، فرفعها الرجل وقد هدأت نفسه ، وأراد أن يخفف عنها ، لكنه كان لا يعرف ماذا يقول لها أو حتى لابنتيه ، لكنه بكياسة تفهم أن كل هذا بسبب الســـؤال الذي سألته منى ، وكأنما منى أثارت هذا السؤال لتبين أن سبب مشكلتها هو ما هم فيه من فقـــر وبؤس ، فلو كانت تذهب إلى الجامعة بسيارة ، ربما ما قابلت علاء ، ولما حدث ما حدث ، لكنـها لا تدري أنه ربما كان من الممكن أن يحدث ما هو أسوأ من هذا ، فلو علمتم الغيب لاخترتم الواقع ، والحمد لله على كل شئ . لكن الرجل بالرغم من علمه ويقينه بأن لها كل الحق في سؤالها هـذا ، فهو صاحب أكبر عقار في المنطقة ، لكنه يعيش هو وبناته على الكفاف ، ولن يكون مقنعا مـــهما بالغ في تقديم مبررات ، لذلك تطوعت الحاجة جميلة سترها الله ، بالإجابة ، فنظرت إلى زوجـــــها ..حبيبها ، ونظرت إلى بناتها ، وقالت :

• "انتو طبعا لكم الحق في هذا السؤال ، ومفيش حرج فإحنا كلنا أهل ، وحسام خطب منال من غير ما يعرف إننا أغنياء ولا حاجة ، بس لازم تعرفوا إن أبوكم لم يقصر لا في تربيتكم ، ولا في طلباتكم ، لكن انتو عارفين العمارة الطويلة العريضة دي إيرادها كم في الشـــهر .. يدوبـــك يغطي مصروفكم الشخصي انتم الثلاثة ، يعني من غير مصروف البيت ولا مصروفاتنا إحنا غير اللبس وال .."

وزأر الرجل ، فقد أخذت الأسئلة منحى لا يحبذه :

• "كفاكم عاد .. انتو ناقص كم حاجة ..؟"

وقالت منال بشيء من التعقل :

• "طبعا يا بابا ناقصنا كثير ، عربية مثلا ، بس إيه شيفرليه أو كاديلاك موديـــــل الســـنة دي ، وشوفير يكون بيونيفرم أنيق وكاب .. يعني الحاجات المهمة دي لزوم الفشخرة الكذابة اللـــي بتخلي للناس قيمة اليومين دول ، يعني .."

وضحك الجميع .. حتى الحاج محمد ، فقد أدركت منال أن ما قالته سعاد كان اعترافا بفضل خالها عليها وعلى باقي أفراد عائلته ، وما قالته والدها كان للتسرية علي الرجل الذي أحبته .. لكن بقي السؤال بدون إجابة ، والبنات تريد الإجابة من والدهن ، ولن يقتنعن بأي إجابات أخرى ، حتى بكل ما قالته سعاد أو الوالدة ، فقال الرجل :

- " الحياة أسرار يا بنات ، لكن ، آن لكن أن تعرفن كل شئ ، وكويس إنكم بقى ليكم أخ ، وبنت عمة دكتورة ربنا يخليهم لكم ، وكمان ابن عمكم طه ، كلها كم يوم ويوصل إن شاء الله من أمريكا ، دكتوراه في الطب برضك ، والواحد مش عارف الموت من الحياة ، ولما الثروة تبقى في البشر ، يكون أفضل كثيرا منها في أراضي قد تجدب ، أو عمارات قد لا تأتي بإيراد مناسب ، أو أموال مستثمرة في شركات لا يتولى إدارتها سوى مجموعة من النهاشين ، ربما يكون اللصوص أفضل منهم مائة مرة ، علشان كده ، أنا فضلت الاستثمار البشري ، إن شاء الله منى طبيبة ومنال صيدلانية ، وأختكم إن شاء الله تحصلكم ، وحسام ضابط شرطة بسم الله ما شاء الله ، وبنت عمتكم أستاذة في كلية الطب ، وابن عمكم إن شاء الله لما يوصل كذلك ، ويدير المستشفى اللي في انتظاره .. عايزين إيه أكثر من هذا .."

وفرت من عينيه دمعة حزينة ، كان لها أكبر الأثر في الجميع ، وهمت جميلة أن تؤنب البنات على ما فعلنه بأبيهن ، لكن الحاج محمد أشار إليها أن لا تفعل ، وبدأ يستعيد ذكرياته :

- "جدكم الأناضولي باشا رحمه الله ، لم يكن يملك سوى المبلغ الذي ذهب لإيداعه في البنك ، إذ أنه بمجرد صدور قوانين الإصلاح الزراعي ، والأقاويل التي بدأت تتردد عن سحب السجادة من تحت أرجل الأغنياء ، باع كل ما عنده ، وذهب لإيداعه في شهادات استثمار ، ربما لأنهم أحاطوها بضمانات كثيرة تحميها من الحجز والمصادرة والأمور الأخرى التي كانت تحجم الجميع عن التعامل في المشروعات التي تعتبر الدعامة الأساسية في التنمية الاقتصادية ، هذا بالإضافة إلى أن عائدها كان يعتبر أعلى عائد في ذلك الوقت ، وطبعا السؤال اللي كان محيرني ، الباشا القصر بتاعه في العباسية ، إيه اللي جابه ميدان الجيزة ، لكنه أفهمني فيما بعد ، أن مدير البنك هناك كان صديقا له ، وكان يريد أن يأتمنه على سره ، فلا يعرفه أحد ، الأرباح تودع في حسابه بالبنك بالعباسية أولا بأول ، ولا أحد يعرف من أين تأتي أمواله ، ولما الحرامي خطف الشنطة ، والسائق على ما نزل يجري وراءه ، كان الحرامي فص ملح وذاب ، لكن

بقى مسعد الله يرحمه ، لم يتركه يهنأ بالمخبأ الذي لجأ إليه ، ولم يتركه يهرب منه حتى تم استخلاص الحقيبة من يديه ، وتسلمته الشرطة بعد ذلك ، ولذلك فقد كان الباشا يعتبرني منقذا لعائلته ، ذلك أنه لو كان اللص نجح في سرقة المبلغ ، لكانت الأحوال أصبحت غير الأحوال ، لكن بقى خالكم الله يسامحه .."

ونظر إلى حسام كمن يعتذر مقدما عما سيقوله :

- " معلهش يا حسام يا ابني ، وسامحيني يا ألفت هانم انت والقمورتين بناتك ، لكن ده تاريخ ، وأنا لا أسرد إلا التاريخ ، فإن كان يضايقكم .. بلاش "

وتوقف عن الكلام برهة من الزمن ، وكأنما يطلب من حسام وأختيه ووالدته الإذن بالكلام ، وأنه لن يكمل ما لم يحصل على هذا التصريح ، فأطلق حسام بعض الكلمات التي تفيد الموافقة ، فمعرفة أخبار ما لم يكونوا حاضرينه من أحداث ، شئ له أهميته عند الجميع ، فبدأ الرجل استرساله ، بعد أن قدم الكثير من الاعتذارات عن ما قد يعتبر خوضا في خصوصيات البعض ، ولم يعلق بأكثر من هذا ، فالخصوصيات قد لا تمس مدحت فقط ، ولكنها قد تمس آخرين ، أراد الرجل أن يضع بعض المعاذير لما قد يحدث في ما إذا رفض مدحت خال البنات ووالد حسام ، خطوبة ابنه لمنال :

- "كان والدكم دائما ينظر إلي على أني الواد الصعيدي الجلنف اللي خطف قلب أبيه أولا ، ثم ثنى بقلب أخته ، وتزوجها رغما عن إرادته ، والبداية كانت موضوع حفلة العرس التي حضرها بالملابس السوداء ، هو وجميع أصدقائه ، وأقسم أن لا يدخل لأخته بيتا ، ولذلك هو لم يدخل بيتنا ، ولو كان دخله ، لعلم أنه قصر صغير به كل ما نحتاجه وزيادة ، يوم مولدك يا ست منى كانت فرحة صمم جدك عبد المؤمن رحمه الله ، أن يذبح عجلا ، والسهرة صباحي في ذكر الله ، وكذلك ليلة السبوع ، وكمان أختك منال وكذلك مهجة ، كان جدكم رحمه الله عايش ، وكان جدي أنا كمان عايش ، لكن لما انقتل جدي ، لقيت بوي امصمم ياخد بتاره ، رجل الدين الذي حصل علي عالمية الأزهر ، اللي هي الدكتوراه بعد أن أصبح الأزهر جامعة ، يأكل التار أحشاءه ، نسي أنه عارض والده عندما أمره أن يأخذ بتار أخيه ، لكن الجرح كلما كان عميقا ، كلما نسي الإنسان أشياء كثيرة . وسافرنا البلد ومعي كلب جديد أسميته مسرور قمت بتدريبه على أحسن ما يكون التدريب ، وقبل أن يدخل والدي

الدوار ، قمت بتلقيم الكلب رائحة القاتل ، وخرجت خلفه إلي أن تم ضبطه ، فكتفت يديه واقتدته بمساعدة الكلب ، وأحضرته إلي والدي ، وتحت نظرات والدي التي كانت تقدح نارا ، ومحاصرة مسرور للقاتل محذرا باستعداده الهجوم عليه عند أية بادرة ، اعترف لأبي بكل شئ ، أحضرت البوليس ، واقتدت المجرم إلى من كلفه بقتل جدي للاعتراف أمامه في حضور الشرطة ، وتم القبض عليهم ، وحوكموا ، لكن والدي رحمه الله لم يجد بدا من بيع الأرض والدار وقطع كل صلة لنا بالبلد ، وأحضر معه أخواته وأرامل اخوته وأولادهن وبناتهن ، فقد اكتشف أنه الرجل الوحيد في العائلة ، أما الاخوة وأزواج الأخوات ، فقد انقتلوا إما في الحرب ، أو في التار ، واشتري بثمن الدار والأرض بتاعة جدي أرض كبيرة في منطقة من مناطق الإصلاح الجديدة ، كتب المساحة كلها باسمهم حسب نصيب كل منهم بالشرع ، واكتفى بما قسمه الله له من كده ، وكد ابنه الأكبر اللي هو أنا ، بنى في الأرض بيت كبير لأخواته وزوجات اخوته وأولادهم وبناتهم ، وبدأت أنا وهو الإشراف عليهم وعلى الأرض ، حتى أكرمنا الله وأصبحت تعطي عائدا مجزيا يكفي ويفيض ، والخير عم علي الجميع ، مدارس وجامعات ، وسيارة وكماليات .. كل شئ ، والحقيقة من يوم والدتكم ما دخلت الدار ، والخير والبركة دخلوه معاها ، وكانت موضع حب واحترام وتكريم الجميع ، جدتي وأمي قبل الكل ، الشورى مشورتها ، والرأي رأيها ، وكل حاجة كانت في يدها ، ربنا سبحانه حط البركة في هذه اليد . الجماعة اللي انقبض عليهم في جريمة قتل جدي ، منهم اللي أعدم ، ومنهم اللي خد كام سنة سجن وخرج ، وانداروا علينا ، تسللوا إلي مخدع بوي ، وقتلوه غدرا ، وقبليها قتلوا مسرور بالسم علشان صوته ما يفضحهمش ، كنت أنا خارج الدار ، سمعت طلق النار ، وصوات اماي وجدتي ، وشفت الجناة وهم بيجروا ، اختفيت وراء كومة تراب ، وهجمت عليهم وهم بيجروا من أمامي ، أمسكت برجل أحدهم فأخذ يعافر حتى انقلعت جزمته ، لكن سلاحه وقع منه ، وأنا أخذته ونشنت على رجليه وأصبته ، وفي قسم البوليس اعترف بكل شئ ، ومين اللي كانوا معه ، ومين اللي كراهم لطخ بوى ، وحجزته الشرطة ، وبدأت تاخد إجراءاتها . لكني سبقت الشرطة ، وفي الليل ، فوجئ القاتل الحقيقي بي فوق رأسه ، والبندقية في يدي ، ورحت مخرجه من الدار بملابسه الداخلية ، ودي عيبه جوي في الصعيد ، وصوبت نحوه بعد أن أطلقت كام عيار في الهواء ، صحي الخلق كلاتهم ، وقلت الحكاية ، وأظهرت مدى الحقارة والنذالة التي ارتكبها هؤلاء القتلة ، وفي الصعيد لا

يجوز لأحد أن يقتل رجلا عجوزا ، ومنتهى النذالة أن يقتله وهو نايم ، وأنا لازم أقتله ، وهو صاحي قدامي يرجف كما الفار ، لكن قبل أن أقتله حاديله الفرصة التي لم يعطيها لأبي ، فهو الآن صاحي ، وواقف أمامي ومعاه سلاح ، وتبقي فرصته انه هو كمان يقدر يقتلني ، ونشوف مين اللي يقتل الثاني الأول ، حاجة كده زي الكاوبوي ، ما هي السينما يا أولاد بتعلم برضه . وجت الشرطة ، لقت حرب ، جيش أمام جيش ، جماعتنا وكل واحد سلاحه بيده ، وجماعة القاتل وكل واحد سلاحه بيده ، واحد من جماعتنا عطا للقاتل سلاحه ، وقاله اقتله لو كنت راجل ، مع بعض السباب التي تحط من كرامته وكبريائه أمام أهل القرية كلياتهم ، رجالتها وحريمها ، والراجل عندنا ينقتل ولا يتشتمش قدام حريم ، وأمسك القاتل بالسلاح ، ورأى سلاحي مشهرا عليه ، يعني لو رفع سلاحه بس ، حيلاقي أطنان من النيران صبت عليه ، فرمي السلاح ، وصفق أهلياتي ، وزغردت حريمنا ، ذلك أنه أعلن جبنه وعدم قدرته على المواجهة المباشرة ، وانما الطعن في الخلف ، والشطارة على كلب يسمه ، أو راجل عجوز نايم في سريره يقتله . واعترف أمام الشرطة ، وتم إعدامه في وسط البلد ، والباقيين كلهم أخذوا أشغال شاقة مؤبدة ، وقامت الشرطة بمصادرة السلاح الموجود ، لكن أهلياتي نصحوني بضرورة الانتقال إلى بيت جديد ، وما خليش حد يعرف مكانه ، فقمت ببيع الفيلا الكبيرة ، والجناح بتاعنا ، والأرض كلياتها ، واشتريت أرض ثانية في مناطق الإصلاح ، مجاورة لأرض أولاد وبنات أعمامي وعماتي ، ونزلنا أنا والجميلة وبناتي في الفيلا بتاعة الباشا ، لحين الانتهاء من إعداد مكان جديد نسكن فيه بعيد عن المشاكل ، واتفقت أنا والباشا إني أبني برج كبير ، وأخصص آخر طابق فيه لينا ، وأقفل السلالم علينا ، واللفت لا يصعد إلينا إلا بمفتاح خاص ، والبواب من أهلياتي ، يعني عارف كل الأعداء ، ومعاه مفتاح للضيوف ، يطلع معاهم لو مكنش منهم خوف ، والكلاب محاوطة الدار من كل مكان ، يعني حصن ، عرفتوا بقي قصة العمارة دي ".

كانت الساعة قد بلغت الثانية صباحا ، والحاج قد بلغ به الإرهاق ، فاستأذن حسام ووالدته وأختاه في الانصراف رغم تمسك عمته بهم ليقضوا ما بقي من سواد ليل ، ووداع رقيق يحمل عبير الحب ونسيمه بين الأحبة ، وأحلام سعيدة للجميع .

جن جنون عبد المنعم ، ومهندس الديكور يقدم له فاتورة بمبلغ خمسين ألف جنيه ، ثم وبعده بقليل ، يحضر تاجر الأثاث ليقدم فاتورة بمائة ألف جنيه ، وبالسؤال أفادوه بأنها تكاليف إعداد الفيـــلا الجديدة بكفر السلحدار ، لذلك ، فإنه بمجرد أن اطمأن على ابنه ، سافر إلى العزبة لمحاسبة عبـــد الجليل على الإسراف الضخم في ديكورات بيت بنته وجهازها ، والرجل يقسم بعظيم الأيمانات أنه لم يستغل كرم عبد المنعم بك ، وأن المهندس عندما حضر قال بأن السلحدار بك هو الذي أرسله ، والمهندس هو الذي قام بتنفيذ كل شئ ، وجميع التعديلات التي قام بها كان دائما يؤكد أنها بنـــاء على تعليمات السلحدار بك ، وسأله عبد الجليل بسذاجة :

• " هل هناك سلحدار بك غيرك ؟ "

فنظر إليه عبد المنعم شذرا حتى لا ينسى نفسه ، فتنحنح عبد الجليل وأصلح من عبارته :

• " قصدي ..غير سعادتك يعني .."

أما عن الأثاث ، فأنى لعبد الجليل أن يعرف هذه النوعيات التي أخذ عبد المنعم يعددها وكأنـــه خبير أثاث ، أسماء لم يسمع بها عبد الجليل ولا كل من في الكفر ، وما هي إلا لحظـــات ، حـــتى حضرت ميشو هانم ، ومعها ذلك الألعبان لبيب المحامي ، الذي وجه إلى عبد الجليـــل عشـــرات الأسئلة ، والرجل يجيب مئات الأجوبة مرات ومرات ، ويؤكدها بجميع أنواع الأيمانات المعظمـــة والمغلظة ، كان هدف المتر لبيب أن يصل بعبد الجليل إلى درجة الإعياء ، فيضطر لقول الحقيقة ، أو على الأقل قول ما يرضي عبد المنعم ، لكنه فشل تماما كما سبق وأن فشل عبد المنعم ، وأصبـــح الأمر محيرا ، من هو السلحدار بك الذي يلقي بالأوامر والتعليمات لمهندسين يعملـــون وأثـــاث ينقـــل دون علم عبد المنعم ؟ وأخذ عبد المنعم وزوجته يفكران بعصبية ، هل يكون هذا السلحدار هو علاء ؟ لكنه في المستشفى ، هل من الممكن وهو في المستشفى أن يصدر أوامـــر وتعليمـــات ، ويأتيه مهندسون وتجار أثاث ، هل هذا معقول ؟ وعندما أصبحا عاجزين تماما عن التفكير في حـــل مناسب ، ظهر المتر لبيب ، اللبيب دائما ، أو لعل هناك من الأسماء التي تطلق ربما جزافا ، ولكـــن قد يصدف أن تتطابق التصرفات معها ، فمثلا نجد من اسمه زكي ، زكي فعلا ، أو العكس ، والمتر لبيب اللبيب دائما ، عنده الحل عندما تغلق جميع الأبواب ، لكنه لا يقدم هذه الحلول مجانا ، لقـــد درس في كلية الحقوق بعد سنوات طويلة من الدراسة الابتدائية ثم الثقافة ثم التوجيهية ، وذلـــك

كله أثناء عمله ، وليس الأمر بهذه السهولة ، فأبناء الأغنياء ، ينهون هذه الدراسة في ثلاث عشرة سنة إن لم يكن أكثر ، وهم في راحة بال ، فلا المستقبل يخيفهم ، ولا هناك متاعب في الحياة ، أسِرَّة ريش نعام ، وخدم وحشم يلبون مجرد الهمسة التي تصدر من أي منهم ، لكنه كان في عجلة مـــن أمره ، رغبته في أن يصبح محاميا مرموقا قبل أن يفوته القطار جعلته يصارع الزمن ، ويصارع الحياة ، بدأها في العشرين من عمره ، وربما أكبر قليلا ، بدراسة الابتدائية ، وضبطه الباشا وهو يذاكر ، فارتعش وغاص قلبه إلى أخمص قدميه ، لكن الباشا لم يؤنبه ، ولم يقسو عليه ، بل شجعه ، ووجــد أنه يدرس للسنة الأولى ، فنبهه إلى أنه يستطيع الحصول على الابتدائية هذه السنة ، نظام أربـــــع سنوات في سنة ، لكن هذا يحتاج إلى كد وجهد ومثابرة بشرط أن لا ينسى عمله ، فالباشـــا لـــن يتهاون معه إذا أخل بعمله ، ويوم أن حصل على الابتدائية ، رفع الباشا درجته في الكفر ، فأصبح الكاتب الخصوصي له ، وزاد راتبه بضع جنيهات ، وشجعه لدراسة الثقافة ، وأيضا نظام أربـــــع سنوات في سنة واحدة ، وتأكد له أنه واصل حتما إلى كلية الحقوق ، وسوف يصبح محاميا كبيرا ، وتنهال عليه الجنيهات بالمئات ، مثلما هو محامي الباشا الذي يحصل على أتعاب بالمئات ، فـــازداد حماسه ، حتى لكأنه كان يلتهم الكتب التهاما ، لو سألته سؤالا ، لوجدته يتلو عليك الإجابة كمـــا هي مسجلة في الكتاب ، ويذكر لك رقم الصفحة ، وهكذا المسكين ، لم يكل ولم يتعب ، أنهـــى دراسة الثقافة ، ثم التوجيهية ، ولم يتجاوز عمره الرابعة والعشرون ، والتحق بكليـــة الحقـــوق ، وأنهاها في أربع سنوات ، وبتفوق كان من الممكن أن يؤهله لسلك النيابة ، لولا ظروفه العائليـــة ، فقد كان من غير المسموح دخول هذا السلك إلا لمن ينتمي إلى عائلة من العائلات المشهود لهـــا بالاستقامة وحسن الخلق والسمعة الطيبة ، وهذه الأمور سابقا كانت تقاس بأشياء كثـــيرة أهمـــها الثراء ، وبالرغم من أن الباشا لم يقصر في التوصية له وتزكيته ، لكن القواعد كـــانت صارمـــة ، ربمـــا لأن الثقة فيمن هم من عائلات دون المستوى لم تكن تزكيهم للانخراط في سلك القضاء ، ثم تمرين لمدة خمس سنوات في مكتب أحد كبار المحامين ، ذاق خلالها كل أنواع المذلة ، فقـــد كـــان قادما من الريف ، لا سكن ، ولا مأوى ، وقد أواه هذا المحامي الكبير في مكتبه ، أعطاه غرفة ، هي سكنه وفي نفس الوقت مكتبه ، وفي المقابل ، نظافة المكتب كله ، والشاي والقـــهوة ، والخدمـــة الخاصة لسعادة البك المحامي الكبير ، حقيقة أنه هو السبب ، فقد تطوع لعمل كل هذه الأشياء من تلقاء نفسه ، ومادام الأمر كذلك وبدون أتعاب ، فلماذا لا ، لكن المحامي الكبير كان دائما مـــا يتعطف عليه بمبلغ شهري يكفيه الطعام والضروريات والملبس ، ويبقى منه ما يرســـله لأهلـــه في

الريف ، يعني كانت هناك منفعة ، وفي النهاية تلك الشهادة التي تثبت تدريبه لديه ، هو يعرف تماما أن هناك الكثيرين الذين على استعداد لعمل أضعاف ما كان يعمل مقابل هذه الشهادة ، ولولاها لما أصبح الآن المتر لبيب الشهير ، وكل هذا لابد أن يكون له مقابل ، فلا شئ مجانا في هذه الأيـــام ، وهو لا يجهد فكره ، ولا يستغل خبراته ودراساته مجانا ، لأن هذه الدراسات وتلـــك الخـــبرات كلفته كثيرا من عمره ومن جهده ومن ماله ، حقيقة أنه كان قليلا ، إذا قورن بما ينفقه الأثريـــاء على أولادهم ، لكن مال الفقير مهما قل ، فهو أغلى كثيرا من مال الغني ولو كثر . شمـــر عـــن ساعديه وهمس في أذن عبد المنعم بك ، الذي ثار معترضا :

- " النص يا حرامي ..!"

فهمس المتر لبيب ببعض العبارات واستكن ، لكن ميشو ما كان هذا ليمر عليها دون ما تعليق ، فاستفسرت ، ونظرا لأن عبد المنعم بك يظن أنه لكي يأخذ حقه من لص ، يوسط شيخ منصـــر ، همس في أذنها بأن المحامي يطلب نص ثمن الديكور والأثاث ليقول الحل ، ولما كانت ميشو هـــانم لا تدفع شيئا من جيبها ، فقد وافقت ، لكن إذا لم يكن الحل مقبولا ، فليتحمل المحامي كل التكاليف ، وتردد المحامي كثيرا قبل أن يقول الحل :

- " أنا شايف إن دى تبقى استراحة المحروس علاء بك وزوجته ، ونبني بيت ثاني لبنـــت عبـــد الجليل وجوزها ، يكون جنب بيت عبد الجليل ، وكده نحل المشكلة ، ونبقى متشكرين لعبـــد الجليل زوق مهندس الديكور بتاعه .."

وكاد عبد المنعم أن ينفجر في وجه زوجته وكذلك لبيب ، وحاولت ميشو هانم أن تؤكد علـــى عبقرية لبيب ، إلا أن منعم رفض كلية أن يستمع إلى أي منهما ، حتى عبد الجليل عندما حـــاول التدخل ، زجره عبد المنعم بكل ما يملك من قدرة رجل في عمره على الزجر ، فـــانزوى الرجـــل خارج الدار ، وقد بدت عليه تعابير الخزى ، فقد شعر بالمذلة والمهانة من تصرفات عبد المنعم بـــك معه ، وترك الثلاثي يدبرون ، ويفكرون فيما يعملون ، بينما سرح فكره في زمان وأيام زمـــان ، عندما كان يحضر مع والده ووالدته إلى هذه الدار ، أيام شوق هانم زوجة الباشا الصبية الصغـــيرة الجميلة جدا ، كانت هي صاحبة هذه الدار ، وقد تعجب والده رحمه الله قبل أن يمـــوت ، مـــن طردها منها ، فقد كانت ملكا لأبيها وليست للباشا ، فلماذا تطرد منها ، لقد غضب كثيرا عندما مرت المسكينة أمام بيتهم تجر ابنها إسماعيل الذي لم يكن قد تعدى السنوات الثلاث ، وقد جمعـــوا

ملابسها وملابس ابنها في ملاية سرير ، وألقوها خلفها ، فحملتهم مسعده والدة عبد الجليل التي كانت تخدم الست شوق ، وعندما رأى جلنار هانم والدة عبد المنعم بك ، وابنها عبد المنعم الذي كان في حوالي الخامسة عشر في ذلك الوقت ، وعشرات من الفتوات التي أحضرتهم معها ، وهم يطاردون السيدة شوق ولا يريدون لها البقاء في الكفر أو في أي مكان قريب من دارها ، شعر ببعض الحنق عليهم ، وتمنى لو أنه كان كبيرا ليقتص منهم على فعلتهم هذه ، والآن هو كبير ، وقد طردوا ابنته من شباها وعفتها ، وأدخلوها عالم السيدات بدون أزواج ، وضحكوا عليه بكم فدان ليقفل فمه ، ثم تعهدوا بزواجها وتجهيزها ، وها هم يساومونه ، ويطردونه ، يالها من مهانة ومذلة ، وأي إهانة وأي مذلة ، ليته يجد من يخلصه منهم ، ليته يجد من يستطيع أن يقف أمامهم ، فهو وكل أهل الكفر لا يستطيعون تحمل تهمة من التهم التي تلصق جزافا بأبرياء ، لمجرد أنهم رفعوا رؤوسهم أمام جبابرة هذه الأيام ، وعبد المنعم له أحد هؤلاء الجبابرة ، زوج أخته كريم بك والا باشا والا اللي يكونه ، المهم أنه يعمل في مكان مهم بالدولة ، وبمكالمة تليفونية ، تفبرك التهم ، وينزل العقاب بخلق الله الذين يفكرون مجرد تفكير في رفض أوامر عبد المنعم ، أو أحد أفراد أسرته ، حتى ولو كان علاء منذ أن كان طفلا صغيرا . ولم يجد الرجل إلا أن يلجأ إلى الله ، فأخذ يدعو الله أن يراهم في خزي ومذلة بأم عينيه ، حتى يشفي غليله ويرضى عن نفسه ، ويشعر بأن الله قد اقتص له منهم ، فالدعاء وسيلة الرجل المؤمن ، لكن الدعاء على الناس هو وسيلة المغلوب على أمره ، وكأنما استجاب الله لدعائه ، فإذا به يرى سيارة ضخمة تقف أمامه ، وينزل منها بك له مهابة ، فوجئ عبد الجليل به يناديه باسم غفل عنه الزمان ، ما كان يسمعه إلا ممن كان يلاعبهم ويلاعبونه أيام الطفولة المبكرة ، من هذا ؟ وما الذي جاء به ؟ وزاد الأمر غرابة أنه فوجئ به يذهب نحوه ، وهو يكرر الاسم كأنما ليثبته في أذني عبد الجليل ، واقترب منه سريعا ، واحتضنه بقوة :

• " ازيك يا جلجل .. والله زمان يا رجل .. فين أيامك ..؟"

وتلعثم عبد الجليل ، وصمت كأنما فقد النطق ، والبك الذي لا يدانيه عبد المنعم بك في شيء ، فهو طول بعرض ، بدلة تكاد تكون شئ فريد من نوعه في بر مصر كله ، وسيارة لا يراها إلا في أفلام الخواجات ، وبايب ، لم يرى بايب منذ أن مات الباشا الكبير والد عبد المنعم ، وأخذ عبد الجليل يعصر زناد ذهنه ، محاولا أن يتذكر هذا الشكل ، إنه ليس بعيدا عنه ، ولكن أنى له أن يتذكر ، فمع الأيام ، والتعاسة التي يعيشها الفلاح في مصر ، وما استجد من ظروف جعلته لا

يسير إلا وهو ينظر حوله ، وحوله أهوال ما بعدها أهوال ، أطماع من كل جانب ، في إنتاج أرضه وزرعه وماشيته ، وحتى في أهل بيته ، إما أجراء بمقابل لا يكاد يكفي الرمق ، أو بدون أجر وهذا أفضل ، وإما الجيش ، وما أدراك ما الجيش ، لابد وأن يكون في بلد بعيدة عن بلده ، لماذا لا يدري ، ويتكلف المسكين أضعاف ما يتقاضاه من الجيش لكي يسافر إلى أهله ، أو يتكلفون هم الوقت والمال والمشقة ، كي يستطيعون الظفر برؤيته ، لماذا كل هذا ؟ هو لا يدري ، وغير هذا كثير في خزانة معلوماته الضيقة الحجم ، من تراه هذا الذي يناديه باسم لا يدري به أحد سواه ..؟ وجاءه هاتف من زمان بعيد يهتف في رأسه ، ألا يكون هو ، إذا لا يوجد غيره ، تراه هو ..؟ أيناه كان طوال هذا الزمان ؟ ونظر إليه بتركيز كبير ، وهو يهرش رأسه وكل جسمه محاولا أن يتذكره ، إسماعيل ابن شوق هانم ، ليته يكون ، وفي هذه الحالة ، فلو كان رجلا ابن رجل بصحيح ، فليطرد هذا المتعنطز وزوجته من دار جده لوالدته ، هكذا كان يقول والد عبد الجليل دائما ، الدار ليست دار الباشا ، ولكنها دار الحاج درويش زيدان ، جد إسماعيل ووالد شوق هانم ، وحتى لو لم يكن ، فما المانع من أن يجرب ، فإن طلع هو ، يبقى خير وبركة . فنطق الاسم همسا ، ثم أعاد النظر مرة أخرى ، وكأنما ليتأكد من ردة فعله ، ثم اقترب من وجهه حتى لكأن رائحة البصل وصلت إسماعيل بك ، فزجره بنفس طريقته أيام الصبا :

- " انت مش حتبطل أكل البصل ده ، طول عمري أقول لك ما تأكلش بصل ، لكن بقى زى ما يكون انكتب عليَّ ريحته وانت صغير وكمان لما كبرت .."

وهجم عبد الجليل عليه يقبله ويردد :

- " إسماعيل .. معقولة .. إسماعيل .. يا خبر .. زمان والله يا إسماعيل .. لكن لا .. إسماعيل إيه بقى .. ده انت إسماعيل بك ونص ، إسماعيل بك السلحدار ، أيوه .. إسماعيل بك السلحدار ونص ، واللي ينفلق ينفلق .."

وخرج الثلاثي على صوت السيارة ، وكان عبد الجليل يحتضن إسماعيل السلحدار ، لكن عبد المنعم لا يعرفه ، ولا يريد أن يعرفه ، فاستشاط غضبا من عبد الجليل الذي تركه داخل الدار وخرج ليهرج مع المهرجين أمثاله ، لكنه استدرك بعد أن نظر إلى السيارة التي كانت في حجم يعادل سيارته مرتين أو ثلاث ، وعدل من كلامه بعض الشيء ، وتوجه إلى البك الذي يحتضن عبد الجليل وقد ظنه أحد أقارب عبد الجليل الذين سافروا إلى دول الخليج ، وعادوا بالعنطزة قبل

الأموال ، وأول هذه العنطزة ، سيارة كبيرة حتى يسد بها عين الحسد التي تنظر إلى كل ما أحضره معه ، وتتمنى إما أن تستحوذ عليها ، أو أن يفقدها القادم مع حياته وصحته إن أمكن ، وأخذ يعيد التفكير مرات ومرات ، أنى لبيك كبير مثله أن يحتضن عبد الجليل ؟ ومن عبد الجليل هذا الـــذي يحتضنه بك مثل هذا البك الذي يمتلك سيارة أكبر من سيارته بهذا الفارق الكبير ؟ وعبد الجليـــل على وجه الخصوص ، لا أحد يقبل على تقبيله ، فإن له رائحة ، تطرد كل أنواع الحشرات الـــتي على بعد خطوات منه ، فما باله يحتضنه ويقترب منه بهذا القدر ، قد يكون قريبا لـــه ، أو أحـــد المعارف الذين لهم مصالح عنده ، أو لعله تاجر مخدرات ، ويكون عبد الجليل هذا ممن يتعـاملون في هذه الأصناف ، ويتخذ من العزبة مرتعا خصبا لإخفاء هذه المحظورات ، ويروح عبد المنعم في ستين داهية إذا ضبطت .

• " إنت مين يا حضرة .. إنت مش ملاحظ إنك بتعتدي على أراضي الغير ، عايز عبد الجليـــل روح له بيته ، لكن هنا .. لا "

وفوجئ بالبك يخاطبه بدون ألقاب :

• " طب يا عبد المنعم مش تسلم الأول ، وتعرف انت بتكلم مين ، وبعدين تتكلم عــــن الأرض وإن كانت بتاعتك ، وإلا لا .."

ثم أزاحه قليلا لكي يفتح باب السيارة لسيدة جليلة ، لها بياض لا يقارن ببياض بنات الكفر ، ولا حتى ببياض أهل مصر ، إذاً هي ليست مصرية ، من تراها تكون ؟ وخرجت السيدة الجليلة ، وهي في زى إسلامي كامل ، واتجهت إلى الدار ، وأمرت السائق والخادمة بلغة أجنبية .. ربمـــا كـــانت فرنسية .. بأن يأتيا بالحقائب . وأسقط في يد عبد المنعم ، السيدة تنوي دخول الـــدار لكنـــه لا يعرفهم فمن يكون هذا ؟ ومن تكون السيدة التي معه ؟ أهي ألعوبة جديدة من ألاعيب عبد الجليل ، لعله قام بتأجير البيت لهم دون علمه ، وماذا يفعل غير هذا ؟ لعله يبيع إنتاج العزبة لحســـابه ، ويحاسبه كيف ما يريد ، لقد حذره الكثيرون من الاعتماد على هؤلاء الفلاحين ، انهم يســـتطيعون أن يبيعونه هو ذات نفسه ، ودون أن يدري ، لكن لا .. إن زوج أخته المهندس كريم في مركــــز كبير بمحافظة القاهرة ، ولديه القدرة على إيقاف كل ما يقوم به هؤلاء الأوباش من أعمال ، دخل سريعا ، وأمر السائق والخادمة بأن يخرجا ومعهما الحقائب ، ووجه بعض العبارات الـــتي تحمـــل الكثير من السباب ، للبك والسيدة التي معه ، لكن البك بمنتهى الأدب قال :

• " إيه يا عبد المنعم .. دي مقابلة تقابل بها أخوك وزوجة أبيك .. التي هي في مقام المرحومة والدتك ..؟"

الصدمة كانت أكبر بكثير من أن يقابلها عبد المنعم بهدوء يماثل هدوء ذلك الأفاق :

• " أخو مين ومرات أبو مين يا نصابين يا حرامية .. امشوا أطلعوا بره لأبهدلكم في أقسام البوليس ، يا أرباب السوابق .."

وأقبل عبد الجليل مسرعا يقبل يد الهانم زوجة المرحوم الباشا الكبير والد عبد المنعم وإسماعيل ، ونظرت إليه السيدة الجليلة ، وسألته عن أبيه ووالدته ، فأخبرها بوفاة أبيه .. أما والدته ، فإنها مازالت على قيد الحياة ، وسوف تفرح بمشاهدة الهانم ، وأخذ عبد الجليل يترحم على أيام زمان ، ويذكر السيدة بعطفها عليه صغيرا يحبو في ساحة هذه الدار ، وهي لا تفتأ تملأ فمه بالحلويات ، وتعطيه أكلا ولحوما ودجاجا ، لكن عبد المنعم بك ، إحساسا منه بأن عبد الجليل يشعره بمدى بخله وغلظته على أولاده وبناته ، الذين لم ينظر إليهم إلا من زاوية خدم يعبث بهن ابنه ، أو عمال بأجر لا يكاد يسد الرمق في أرضه ، بتراب الفلوس ، وإذا كان عاجبه ، نهره بشدة وهو يكذب إمكانية استمرار تذكره لأشياء حدثت عندما كان يحبو ، وحاجه عبد الجليل في ذلك ، بأن هذا العطف استمر حتى قمتم بطردها هي ووليدها من دارها بعد أن مات الباشا رحمه الله ، وكان عمره ساعتها من عمر عبد المنعم نفسه . كيف لهذا الأفاق أن يتذكر كل هذا ؟ لقد نسيها عبد المنعم تماما ، أو لعله لا يريد أن يتذكرها ، لكن عبد الجليل يذكره بها الآن ، وخرجت ميشو هانم والمتر لبيب ، واستوضحت ميشو هانم الموقف ، إلا أن إسماعيل نظر إليها مليا ثم قال :

• " مراتك يا عبد المنعم حلوة قوي .. الحقيقة زوقك طول عمره راقي ، أمال ليه ... والا بلاش أحسن المدام تزعل .."

ثم تناول يد المدام باحترام شديد ، وطبع عليها قبلة ، وهو يتمنى لها الحياة والسعادة ، وتباسط معها في الحديث ، حتى يوجد جوا من الألفة معها ، ثم سألها عن ابنها علاء ، وعن الزهور التي يرسلها إليه ، وعبد المنعم في حيرة من أمره ، هل يقبل بهذا الوضع ، أم يرفضه ويتناساه ، وإذا قبل به ، ماذا سيحدث ، وإذا رفضه ، ماذا سيحدث ، وفي وسط هذه الدوامة ، تذكر المتر لبيب ، فناداه سريعا ، وترك له أمر هذا النصاب ومن يدعى أنها والدته ، وخرج المتر لبيب سريعا ، ونظر إلى السيدة مليا ، إنه لم يرها منذ ما يزيد على أربعين عاما ، لكنه يعلم من هي ، ويعلم أن والدها

فرنسية ووالدها صعيدى ، وأن عبد المنعم ووالدته قاما بطردها هي وصغيرها مــن العزبــة ، ولا يعرف عنهما شيئا منذ ذلك الحين ، هل ذلك القادم هو أخوه ، وهذه السيدة ، زوجة أبيــه ؟ إذا لقد وقع على كتر ، لابد لعبد المنعم وزوجته وابنه أن يعملوا له ألف حساب ، فهناك الكثير مــن المخالفات التي ارتكبتها والدة عبد المنعم في حق هذا الصغير ووالدته ، ولا أحد يستطيع أن يــدل هذا الصغير على حقوقه كاملة سوى المتر لبيب ، أما عبد المنعم ، فإنه بدون المتر لبيــب ســوف يكون في موقف حرج للغاية ، فرصة وجاءت للمتر لبيب على الطبطاب ، كيف يمكنه أن يستغلها ، هرش ذاكرته سريعا ، ليتذكر اسم هذا الصغير ، فأسعفه عبد الجليل بأن عزم علــى إسمــاعيل بالدخول إلى الدار ليرتاح هو والسيدة الجليلة والدته ، وسارع المتر لبيب يقدم فــروض الطاعــة لإسماعيل بك ، وعبد المنعم يتعجب من تصرفات من كان يعتبرهم في خدمته ، إذا هم يتحولــون عنه هكذا وبكل هذه السرعة ، ماذا حدث في الدنيا ؟ وماذا حدث للناس ؟ لم يجد سوى صوتــه الذي يعتمد عليه كثيرا في مثل هذه الحالات ، فصرخ في الاثنين أن يلزما حدودهما ، فــلا همــا أصحاب بيت ، ولا هما أهلا أصلا للتحدث نيابة عنه ، ولكن المتر لبيب ، وبهدوء أعصاب مــن يريد أن يكيل لعبد المنعم بمعيار هو نفسه استنه منذ لحظات ، قال تكريما لإسماعيل بك ووالدتــه ، ونكاية في عبد المنعم بك وزوجته :

- " اتفضل يا إسماعيل بك .. الدار دارك .. والأرض أرضــك ، وإن مــا شــالتكش الأرض ، نشيلك فوق رؤوسنا .."

وأسقط في يد عبد المنعم ، فمادام المحامي قد انضم إلى الخصم بهذه السرعة ، فلا حق له في شئ ، ثم توالت عليه الويلات ، فإذا بإسماعيل يوجه إليه توبيخا ما كان يظنه قادرا عليه :

- "انت ما دفعتش أتعاب مهندس الديكور وفواتير الأثاث ليه يا عبد المنعم ..؟ هو انت حتدفعها من جيبك ، كله من خير الباشا ، وخير جدي درويش زيدان رحمهما الله ، والا انت يعني كنت فاكر إني مت مثلا ، والا مش حرجع أطالبك بحقوقي وحقوق والدتي ! "

وتملك عبد المنعم نوع من فقدان القدرة على التفكير أو التصرف ، لم يدي ماذا يقول أو يفعل ، بينما عبد الجليل يهمس بصوت مسموع :

- " انت على كل قوي يا رب .."

ونظر عبد المنعم إلى المحامي ، فوجده انحاز سريعا إلى إسماعيل ، لقد كان هو المنقذ دائما في مثل هذه المواقف الحرجة ، ماذا يفعل الآن ؟ لم يفكر إلا في زوجته لتنقذه من هذا الموقف ، وما أن وجه نظره إليها ، حتى وجدها في حوار باسم مع زوجة أبيه ، يعني هو وحيد بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، فنادى على زوجته علها تنظر إليه ، لكن الحديث كان شيقا لدرجة أنها لم تلحظه وهو يحاول شد انتباهها إليه ، وعندما لاحظ إسماعيل حيرته ، قال :

- " إحنا طبعا رجالة ، وبالغين وعاقلين وغير ناقصي الأهلية ، يعني يا متر حائزين على كل الشروط التي لا تبطل عقدا ، ولا تلغي اتفاقا ، وعلى هذا ، دعونا نناقش الموضوع بهدوء ، ودون شوشرة ، ولازم نضع في اعتبارنا ، أننا أهل ، والا لك رأى آخر يا عبد المنعم ..!!"

وصمت عبد المنعم ، بينما تولى المحامي الكلام :

- " عين العقل يا إسماعيل بك ، انتو برضك إخوان ، والظفر ما يطلعش من اللحم .."

واستمر إسماعيل كأنما لم يسمع للمحامي كلاما ، أو لعله اعتبر كلام المحامي موجها لعبد المنعم باعتباره هو الذي سلب الحقوق وأهدر دم الاخوة :

- " انت طبعا عارف إن الأرض دي ، ملك والدتي ، ومش من إرث الباشا رحمه الله ، الفاتحة على روحه الطاهرة .."

وصمت قليلا ريثما يتلو الفاتحة بصوت هامس لكنه مسموع ، بينما عبد المنعم قالها في سره ، أما المحامي ، فقد جهر بها تماما كما فعل عبد الجليل ، وتلتها السيدتان بهمس ، لكن الجميع تقريبا اشتركوا في ختامها ، فاستكمل إسماعيل :

- " لن نعيد الماضي ، ولن نذكر من أخطأ في حق من ، لكن هناك حقوق والدتي التي لا دخل للباشا والدنا فيها ، وهناك حقوق لها ولي ، في ميراث الباشا رحمه الله ، إذا رغبت في الحل الودي .. أهلا وسهلا ، لم يعجبك ، يبقى ما فيش غير المحاكم ، وطبعا زى ما انت عارف ، محاكم يعني قضاء ، وإذا ثبت غش أو تلاعب : يبقى يا سجن ، يا خراب بيوت ، وأنا شخصيا داريت عليك وعلى ابنك كثيرا علشان أخلي اسم العائلة بعيدا عن أن تلوكه الألسن ، لكن إذا استمرت نزواتك ، وتصورك إن عبد الكريم أخو ميشو ، والا أخوك السفير حيقدروا يعملوا لك حاجة .. تبقى غلطان ، لان بصراحة ، الوالدة في المرة السابقة ، لم ترغب في الرد

بما هو أقوى من أفعالكم ، ذلك طبعا لأنكم تعلمون أن والدها كانت رحمـــها الله فرنســـية ، وطبعا السفارة الفرنسية كان من الممكن أن تتدخل في أي لحظة بس بناء على طلب والـــدتي ، وساعتها ستكون المشكلة دولية لأنه حق رعايا فرنسيين ، هذا غير عائلتها لأبيها ، عائلة زيدان وما أدراكم من عائلة !! ماذا قلت يا أخي العزيز ؟ ومع كل الاعتذار لك ، يا زوجة أخي .."

زوجة أخيه العزيزة ، كانت مشتبكة مع والدته في حديث أغلبه باللغة الفرنسية ، ميشو هانم كانت في مدارس فرنسية ، وتركت اللغة منذ فترة طويلة ، وما أن وجدت الســـيدة شـــوق تتحـــدث الفرنسية ، حتى تولدت لديها رغبة في محاولة تذكر ما نسيته من اللغة ، بل لقد زادت ، فـــأخذت وعدا من مدام شوق أن تساعدها في تذكر تلك اللغة التي كانت تعشقها ودائما من المتفوقات فيها ، وحتى تظهر أمام السيدة الأجنبية كم هي محبة للحق حتى ولو تسبب ذلك في ضياع ممتلكاتهـــا ، لذلك كان من السهل على مدام ميشو أن توافق على أي شئ يطلبه ابنها إسماعيل أخو زوجـــها . لكن زوجها همس في أذنها ، بأن كل ما يخصهما من إرث كتبه باسمها بيعا وشراء ، وهذا سيضعها في موقف حرج للغاية ، فمن غير المعقول بأن تصبح بلا أملاك ، لكنها قالت بشجاعة :

- " يعني أنت بتعترف بأن لهما حقوق عندك ، وهذه الحقوق سجلت كلها باسمي ، إذا كان مـــا يزعجك هو تحويلها لاسمهما ، فإنه لا يزعجني ، أنا عندي أكون من غير أملاك ولا أغتصـــب مال يتيم .. أو أزعل أخوين من بعضهما .."

كانت إجابة غير عادية بالنسبة للسيدة ميشو التي كانت تهمها ممتلكاتها أكثر من اهتمامها بزوجها نفسه ، لكنها أردفت :

- " من يدري .. لعل ما فعلناه من أخطاء وأكلناه من حقوق الناس ، هم السبب فيما يحدث لنا ، بعدين افتكر ابنك اللي في المستشفى بين يدي الرحمن ، لعل تكفيرنا عن ذنوبنا ، يعجل مـــن شفائه ، ولا تنسى أن الأطباء حذرونا من أن حالته قد لا تكون كما كانت ، وربمـــا تحـــدث مضاعفات قد يكون لها أثر دائم ، فلا يمكنه الإنجاب ، زى ما يكون ربنا سبحانه بيعاقبه مـــن جنس العمل ..! وبعدين لو ربنا سبحانه كان حدث ما لا يحمد عقباه مع ابننا ، كنا حنسـيب الممتلكات دي لمين ، استغفر الله يا منعم ، وادي كل واحد حقه ، يمكن ربنا يرضى علينا .."

وأخفت وجهها وهي تمسك منديلا وتقربه من عينيها ، لعلها كانت تبكي ، وبالرغم من ذلـــك فإن عبد المنعم لم يصدق أذنيه .. ليست هذه ميشو التي تتحدث ، لكنها ربما تكون قد تأثرت بمـــا

قالته السيدة شوق عن ما فعلته والدة عبد المنعم التركية ، وطردها لها ووليدها بمجرد وفاة زوجها ، من بيتها الذي ورثته عن والدها ، والمعاناة التي تعرضت لها بعد ذلك ،كلها كانت أهوال ، تحملتها كقطة مجروحة تعرضت لهدم عشها ، وليس لها سوى أظافرها تنحت بها الصخر ، وأنيابها تلدغ بها كل من تسول له نفسه التعرض لها سواء في وليدها ، أو في عرضها ، أما المال .. فقد كان العملة النادرة جدا التي لا تمتلكها إلا بالقدر اليسير ، فهي لم تعمل حسابا لذلك اليوم ، بل واستبعدت حدوثه ، ولم تعمل بما اقترحته عليها والدة عبد الجليل من أن تضع كل مجوهراتها في مكان آخر أكثر أمنا بعيدا عن دارها ، خوفا مما قد تفعله السيدة التركية الزوجة الأولى للباشا ، فهي تعلم أنها ليست سهلة ، وهي إن كانت مستكينة هذه الأيام لوجود الباشا ، فهذا لأن الباشا يضربها وبعنف كلما حاولت أن تتطاول عليه ، ولعلها الفترة الوحيدة التي يشعر فيها الباشا بالراحة والاطمئنان ، هي فترة وجوده مع السيدة شوق منذ أن تزوجها ، لكن تلك السيدة التركية كانت تحتمي في أقاربها من رجال الملك ، ولن تغفر لشوق سلبها زوجها منها ، وسوف تنتقم منها بعد رحيله ، ويجب أن تكون أكثر حرصا وأكثر حيطة من أمرها ، فلتحاول الحصول من الباشا على كل ما تستطيع من أموال أو ذهب أو مجوهرات أو أي أشياء ثمينة أخرى ، وتضعها في مكان أمين ، لا يخطر على بال جلنار أنها خبأتها فيه ، واقترحت بيتها ، حيث يمكن دفنها تحت الأرض ، في مكان تعرفه شوق وهي فقط ، ولن يخطر على بال أحد أن تكون شوق قد خبأت أموالها ومجوهراتها عند والدة أحد عبيد زوجها ، فقد كان الأتراك ينظرون إلى المصريين نظرة استعلاء ، وكأنما هم عبيد لهم ، ولن يعرف أحد بهذا الأمر ما بقيت والدة عبد الجليل حية ، كانت والدة عبد الجليل قد خدمت في بيت الباشا بالقاهرة ، وتعرضت للمذلة والمهانة من تلك السيدة ، وتعلمت من باقي الخدم هناك المثل الذي كانوا يتخذونه شعارا لهم ، ألا وهو " ستي مكيرة وأنا أمكر منها ، تعد اللحمة وأنا أقطع منها " وبالرغم من أن شوق لم تكن تعرف أحدا في الكفر سوى والدة عبد الجليل وعائلتها ، ولم يكن إسماعيل ابنها يلعب إلا مع عبد الجليل ، ولا تخرج من دارها إلا إلى دار والدة عبد الجليل كلما سافر الباشا إلى القاهرة ، باعتبار أنها تتمشى ، وأن ابنها إسماعيل يرتاح للعب مع عبد الجليل الذي كان يكبره بعدة سنوات وقد مرنته والدته على الطاعة العمياء لإسماعيل منذ الصغر ، وأمرته ألا يقسو عليه أو يضربه ، وانما يلاعبه ويلاطفه ، وكانت تشجعه على ذلك بما تعطيه السيدة شوق له من حلوى ولعب ، وكان عبد الجليل يسعد بوجود إسماعيل والسيدة شوق ، لأنها كانت دائما تحضر لهم طعاما جيدا ولذيذا ، وكانت تحضر لعبد الجليل ألعابا

مسلية لا يتمتع بها غيره من أهل القرية ، لذلك كان دائما له كلمة عند باقي أولاد القرية ليسمح لهم باللعب معه ، ولا يسمح لأي منهم أن يعامل إسماعيل معاملة خشنة ، أو أن يقسو عليه أثناء اللعب . وما أن توفى الباشا ، حتى سارعت السيدة جلنار وولدها عبد المنعم ، مع مجموعة من الفتوات الموالين لها ، بالهجوم على بيت السيدة شوق ، فلم يبقوا ولم يذروا ، وقاموا بطردها ووليدها من البيت بلا شئ سوى ما عليهما من ملابس ، ثم بعد أن عن لهم البحث كيف ما شاءوا ، وأخذوا كل ما وجدوا له قيمة ، جمعوا ملابسها وملابس ولدها في ملاية سرير ، وألقوها إليها ، ثم أخذوا في تحريكهما بعيدا عن الدار ، كأنما هما قذارة لا يجوز تواجدهما بجانب الدار ، ثم أغلقت الدار بإحكام ، وعينت حارسين لها ، وأقسمت على عبد المنعم أن لا يدخلاها ، وأن تظل الحراسة عليها ليمنعاها ووليدها من دخولها ، والعجيب أن عبد المنعم أوفى بهذا العهد حتى تلك اللحظة ، فالحارسان اللذان عينتهما والدته ، مازالا في حراستهما للدار منذ تلك اللحظة ، رغم ما بلغاه من السن ، لكنهما نظرا لتميزهما ، فهما يتمتعان بمرتب يعادل مرتب اثنين من الفلاحين ، ويتزايد مع زيادة الغلاء ، لأنهما كانا يحرسان القصر الكبير كذلك .

كانت قصة السيدة شوق عبرة وموعظة ، فأين ما قاسته هذه السيدة مع وليدها ، بالمقارنة بهما هي وزوجها عبد المنعم ، اللذان لا يتركان شيئا دون الحصول عليه ، ويساعدهما في ذلك المستر لبيب ، وبدأت تتذكر كليمات ابنهما عن انتقام الله ، وأن ما وصل إليه إسماعيل بفضل الله ورعاية والدته له ومن مال حلال ، وما بقي عبد المنعم فيه ، ومحاولات يائسة للإبقاء على ما ورثه عن أبيه ووالدته ، تجد أن تصاريف الأيام وحكمته سبحانه وتعالى أكبر بكثير من أية أموال أو أية سلطات .

أنصتت مدام ميشو لإسماعيل باهتمام ، والرجل لم يطلب إلا حقه وحق والدته ، ما ورثته عن والدها ، وما ورثاه عن والده ، وأيدت مدام ميشو كل طلباته رغم اعتراضات زوجها ، أما المستر لبيب ، فقد وجد أن الحياد مطلوب في مثل هذه المواقف ، ومن بين أهم الممتلكات في هذه التركة ، أربعون فدانا والدار موضع الخلاف ، فهذه تركة والدته من أبيها ، ثم أخرج إسماعيل بك مستندات الملكية ، وكشفا بتركة والده رحمه الله ، استخرج كل ما يخصها من مستندات ، حتى لكأن المتر لبيب تعجب من هذا ، فهو نفسه لم يستطع استخراج الكثير من هذه المستندات ، لكنه لا يلوم إلا نفسه ، فإن بخله وشحه ، لا يجعله يدفع ، ومن يدفع يكسب ، وإسماعيل بك دفع كثيرا حتى استطاع أن يجمع كل ما يريده من مستندات ، ومعه واحد من أكبر المحامين في مصر ، المستر

لبيب لا يمثل شيئا بجانبه ، لكن إسماعيل كان يريد أن يكسب المتر لبيب إلى جانبه ، أو حياده على الأقل ، إذ أنه كثيرا ما كان يلمح له بأنه سيكون المحامي الخاص به وبوالدته ، على الأقل في مسألة التركة .

وبعد مناقشات طويلة ومستفيضة ، اتفقا على تقسيم تركة الباشا ، وتسليم أرض ودار الحـــاج درويش والد السيدة شوق ، وبقيت بعض المسائل التي يصعب تقسيمها ما لم يتم بيعها أو تثمينها ، وهذه تركت مشاعا بين الثلاثة ، ومن بينها العمارة التي سجلها المتر لبيب باسم ميشـــو هـــانم ، وعندما هم المتر لبيب أن يتدخل ، وجد إسماعيل يقول :

• " أنا طبعا شايف إن إحنا لو طالبنا بإعادة الوضع لما كان عليه ، فيه نـــاس كتـــير حـــتروح السجـــن ، وأولهم المحامي بتاعكم ، المتر لبيب ، لأنه للأسف زور في توقيعي أنا ووالـــدتي ، لذلك ، فأنا شايف إن مدام ميشو تقوم ببيعها لنا نحن الأربعة مرة أخرى ، وبذلك نتلافى وضع المتر لبيب في مشاكل قانونية قد يترتب عليها شطب اسمه من سجل المحامين .."

كانت قرصة ودن للمحامي الذي كان يظن نفسه فوق كل الاعتبارات ، القانون ، وأهل نعمته ، وباقي خلق الله ما عدا من يعلمه كيف يكون الخوف ، وبدأ المتر لبيب يعمل حسابا لإسمـــاعيل ، فهو ليس مثل أخيه ، في سهولته ونفخته على الفاضي ، وجلس المتر لبيب بعد ذلـــك في صمـــت تـــام ، نسى معه القانون والفلسفة الكذابة التي كان يتمنظر بها على خلق الله ، ولأول مـــرة في حياته يتمنى أن يخرج من هذا المكان ، فكل كلمة كان يقولها إسماعيل ، كانت حجرا ثقيلا يلقى به على صدره ، لكنه كان يمني نفسه بأن يوكله إسماعيل في إنهاء الإجراءات ، لكنه فوجئ به يتفق مع أخيه على اللقاء عند الأستاذ سعد الله ، المحامي الذي وكله إسماعيل ووالدته عنهما ، وكانت ضربة وأي ضربه ، كما أن عبد المنعم بك لم يدعه للحضور ، فقد رأى أن وجوده قد يلهب المواقف بمـــا لا داعي له ، فهو من هواة تشبيك الأمور ، حتى تستعصي ، ثم يقدم هو الحل ، وما يلزمـــه مـــن إجراءات ، لكي يحصل على الأتعاب ، وأراد أن يستأذن ، لكن إسماعيل بك أمهله لما بعد الغداء ، وفوجئوا بعبد الجليل يتقدم وخلفه كل أفراد عائلته والسائق والخادمة الأجنبية التي أحضرتها شوق هانم ، وقاموا بوضع الطعام على الطاولة ، وقامت شوق هانم بدعوتهم إلى الغداء ، لكـــن ابنـــها أمهلها قليلا ، فهم في انتظار ضيف هام ، ربما يحل الكثير من الألغاز ، وبعد أن تصافى الأخـــوان ، بدأ إسماعيل بك يطلق مجموعة من النكات والقفشات ، التي جعلت للجلسة جمالهـــا وبهجتـــها ،

وضحكت ميشو هانم من قلبها ، واهتز جسدها الضخم حتى خشي عليها زوجها ، لكن المتر لبيب ما زالت تحيره عبارة نحن الأربعة التي قالها إسماعيل بك بالنسبة لعمارة الدقي ، وبوده لو يستطيع أن يسأله عمن هم الأربعة الذين يقصدهم ؟ لكن وسط هذا الجو المرح ، ما كان له أن يستطيع ولـــو حتى مجرد الكلام . وبعد لحظات قدمت سيارة أجرة ، نزل منها أفندي محترم ، استقبله إسماعيل أيما استقبال ، ثم قدمه للموجودين :

• " خلف المرازيقي .. ابن عم عبد الجليل ، وبطل فرقة مسرحية في القاهرة ، هي مش مشـهورة قوي ، لكن إن شاء الله ستصبح كذلك ، كما أنه يدرس في كلية الحقوق ، إن شاء الله يخلـص الليسانس هذا العام ، هو طول فيها حبتين .. الحقيقة كثير ، لكن نأمل إن ربنا يوفقه السنة دي ويحصل على الليسانس ، وهو يعمل عند الأستاذ سعد الله المحامي بتاعنا ."

ونظر إليه عبد الجليل بتفحص ، خلف المرازيقي ابن عمه ولا يعرفه ، إنه لم يسمع عنه قبل الآن ، لكن الشبه قريب جدا من شخص يعرفه أو قابله في الأيام الأخيرة ، تراه من يكون .. ثم اقـــترب منه واحتضنه لعله يستطيع أن يعرف عنه المزيد من الأخبار ، لكن إسماعيل ، ولمـــا لاحظـــه مـــن تصرفات عبد الجليل التي قد تفقده المفاجأة التي أعدها ، أعلن عن الطعام ، ووصف لهم مكــــان دورة المياه ليغسلوا أيديهم ، وجلس الجميع بينما ترك مكان الباشا رحمه الله في الصدارة شاغرا ، لم يشغله أحد ، ولا حتى إسماعيل ، وبعد البسملة ودعاء الطعام ، نزلت دمعة ساخنة مـــن عيـــون السيدة شوق ، تعبيرا عن حزنها الشديد على فراق زوجها ، وكذلك والدها ، فقد تجمعت كـــل ذكرياتها في هذه الدار ، لذلك ، كانت حريصة على أن تبعد عنها كل من تسول لـــه نفســـه أن يهدمها ، وحمدت الله أنها ظلت بدون هدم أو بيع ، حتى تخطت هي وابنها كل المشاق الصعبـــة ، ومن الله على إسماعيل ابنها برزق وفير وضعه في مصاف الصفوة من أهل المجتمع المصري .

قدم إسماعيل إلى بمانه ابنة عبد الجليل خلفا ، وقال لها :

• " ألا تعرفينه .. إنه خطيبك .. لحقتي تنسيه ..!"

وتقدمت الفتاة على استحياء ، ومسحت يديها عشرات المرات في ملابسها ، حتى تكون مـــن النظافة بالقدر الذي يتناسب مع سلامها على خلف بك ، وما أن تلامست يدها بيده ، حتى جذبها إليه ، وهو يقول :

• " يا بت دأنا ابن عم أبوك لزم .. يعني أبويا وأبوكي ..كانوا بيناموا في زريبة واحدة مع بقيـــة العائلة .. يعني ما تخافيش .."

قالها بنفس الطريقة التي كان يتكلم بها الشاب الأهطل .. وهنا تعالت صرخات عبد الجليل وابنته وزوجته والجميع .. لكنهم لم يعرفوا ماذا يقولون ، فما كانوا يعرفون للشاب الأهطل اسما ، لكنــه وفر عليهم الكلام :

• " الحقيقة إسماعيل بك طلب مني طلب ، وطلبات إسماعيل والست الفاضلة والدته ، بالنسبة لي هي ليست أوامر وفقط ، بل لو كانت روحي نفسها لأعطيتها لهما ، آوياني ووالدتي عندمـــا تخلى عنا الجميع ، وأطعمانا بالرغم من ظروفهما التي كانت أكثر من صعبة ، وعلموني حـــتى هذه اللحظة ، وتكفلوا بي صغيرا وكبيرا ، فهل أستطيع أن أرفض لأي منهما طلبا ، كان لازم أنفذه ، ولما وجدت انه من الصعب تنفيذه بالطرق العادية ، لجأت للهواية ، التمثيل يعـــني ، وفعلا ، جت حكاية مرض بهانة فرصة ، ولما وجدت عبد المنعم بك يبالغ في كرم عبد الجليل ، طمعت أن أدخل دار شوق هانم .. آسف ماما شوق ، وحصل اللي حصل .."

لكن المحامي لبيب عاجله بسؤال عن سبب إصراره على دخول دار شوق هـــانم ، فنظـــر إلى إسماعيل بك الذي صرح له بالإجابة ، وكانت إجابته صدمة للجميع :

• " كل مستندات ملكية شوق هانم كانت في مكان ما بالدار ، وكان لا بد من إحضارهـــا إلى إسماعيل بك لكي يتخذ إجراءاته ، فبدونها ، ما كان يستطيع أن يجلس هذه الجلسة الأخويـــة مع عبد المنعم بك وزوجته .. وطبعا المتر لبيب .."

وكان لابد من تفسير لذلك ، وهنا بدأت السيدة شوق الحديث بالمصرية العامية العادية جدا :

" أنتم لا تعرفونني جيدا ، والدي هو الحاج درويش زيدان ، وطبعا عائلة زيدان لا تخفى على أحد ، فهي من أكبر عائلات الصعيد ومصر عموما ، وكان والدي شابا يافعا ، فيـــه مـــن الرجولـــة والشهامة والوسامة ، ما يجعل قلوب عذارى جبال الألب تهفو إليه ، وحدثت واقعة أثبتت كم هو أكثر من شهم ، فقد تعطلت سيارة والدتي ، وتحولق حولها بعض الشباب الذين حاولوا التحرش بها ، وكان والدي مارا بسيارة الفاكهة الكبيرة ، لوري يعني ، وما أن لاحظ الموقف من بعيد ، حـــتى ركن اللوري ، وتسلل إلى الشباب وهم في غفلة منه ، لأن انتباههم كان مركزا على صيد فتـــاة

الألب الجميلة ، وعلى فكرة ماما كانت أحلى مني بكثير ، واشتبك معهم ، وتغلــب عليــهم ، ولاذوا بالفرار ، فأخذ والدتي معه في كابينة اللوري ، وربط العمال سيارة الوالــدة بــاللوري ، وقطروها حتى قصر جدي ، ، وطبعا شكره جدي ، وشكرته والدتي كثيرا ، فأمر أحد عماله بقيادة اللوري وتوصيل الفاكهة للسوق ، بينما صمم على إصلاح السيارة ، وأفلح بمهارة فائقة لفتت لها انتباه بنت جبال الألب ، ومرة أخرى شكره جدي وشكرته والدتي ، وبدأت صداقة ، تحولت إلى حب ، ثم زواج . وكان لهذا الزواج أثره في علاقات والدي بعائلته ، فالتقاليد عندهم أن لا يتزوج رجالهم من خارج العائلة ، والوالد مصمم على الزواج من الفرنسية ، والكل ضده ، فما كان منه إلا أن ترك البلد بكل ما فيها ، وتزوج حبيبة قلبه ، واشترى الأربعين فدان دول ، وأقام فيها هذه الدار ، وعاشا سويا في تبات ونبات ، وخلفوني فقط ، وبعدها بدأت الخلافات ، هي تصمم علــى تربيتي في فرنسا ، وهو صمم على تربيتي في مصر ، في الريف ، بين أهله وأحبابه ، فهذا هو مكاني ، وهذه أرضي ، وهذا هو وطني ، وتطور الأمر إلى مشاكل ، ثم قضايا ، وحكم بينهما بالطــلاق ، وبقيت مع أبي هنا ، أنا وهو فقط ، ولا يوجد سوى الفلاحين ، والماشية ، والخضــرة ، والأرض الطيبة . كان السلحدار باشا دائما مضرب الأمثال في القرية ، الكل يهابــه ، ويحترمــه ، كــان عــادلا ، عطوفا ، لم يدخل إليه شاك إلا وخرج سعيدا ، لم ينصر ظالما ، ولم يخذل مظلوما ، وكان والدي دائما ما يشيد به وبعدله وبنشاطه ، ففي الصباح الباكر يمتطي صهوة فرسه ، ويطوف بــه كل أرضه ، بسرعة فارس مغوار ، فإذا ما لاحظ ما يستوجب التوقف ، توقف ليســأل ويعــرف ويحل المشكلة ، أو يعطي الأوامر التي تحلها ، وفي إحدى دورياته ، هكذا كان يسميها ، رآني أثناء رياضتي اليومية ، حيث كنت أهرول حول الأرض التي نملكها ، أضع بدلة التدريب الريــاضي ، وأجري حول الأربعين فدانا ، في الصباح الباكر ، مع نسماته الجميلة ، ونثرات من رزاز النــدى تقابل الوجه فتنعشه وتولد شعورا بالحيوية والسعادة ، تزيده لسعة نسمات الصباح ابتساما وإشراقا ، كانت أسعد لحظات أتمتع بها يوميا ، ثم أعود لأفطر أنا والوالد ، ويوصلني إلى مدرســتي أثنــاء ذهابه إلى عمله ، وعمله هو تجارة الفاكهة أيضا ، وفي بعض الأحيان كان يأخذني معه إلى السوق ، وإلى بعض مزارع الفاكهة التي يشتريها ، وعلمني كيف أشتري ، وكيف أتفاوض ، وكيف أبيــع ، كنت معه كولد وليس كفتاة . استوقف الباشا منظر فتاة متفرنجة تجري بين حقوله ، فاســتوقفني ببعض الغلظة ، تبين لي فيما بعد أنها طريقته دائما ، فهو يكشر في أول الأمر فإن كان الذي أمامــه مذنبا ، ظهر عليه ذلك ، فيبدأ في معاملته وكأنما هو مجرم ، لكنني لم أهتم لأوامره ، هو يشــخط

وينظر في فلاحيه وخدمه ، لكن أنا ..لا.. وألف لا ، فأسرع إلى جواري بفرسه ، وكان يحاورني ، فأحاوره ، وأسرعت حتى أصبح عدوي في مستوى عدو فرسه ، فأطلق لفرسه العنان ، وكأنما يريد أن يقول لي لن تسبقيني ، فتوقفت .. ونظرت إليه شذرا ، وعاتبته عتابا لم يسمع مثله في حياته ، وتحديته أنه لولا فرسه لما استطاع أن يسبقني ، وإذا به يقبل التحدي ، وينزل عن فرسه ويستعد للسباق ، لقد استهواه اللهو الصبياني ، فقد حرم من لهوه مع ابن أو ابنه ، وأنا أخذتني به الشفقة ، فهو رجل كبير في السن ، هل يستطيع أن يجري ، وإذا كان ، ما تأثير ذلك على صحته ؟ فتركته وأسرعت مبتعدة عنه ، لكنه لحقني جريا ، وهو يقول لي ، هل تراجعتي عن التحدي ؟ أنا رجل عسكري ، والعسكري أهم شئ لديه هو شرفه العسكري ، وشرفي العسكري يحول دون أن أتخاذل أمام فتاة صغيرة مثلك ، وكبرت في رأسي كلمة صغيرة هذه ، حقيقة أن عمري آنذاك كان لا يتجاوز السادسة عشرة ، لكنني كنت بما يزيد عن ذلك كثيرا سواء في الجسم أو العقل ، واتفقت معه على الهرولة ، فإن الجري ليس في صالحه ، وعندما حاول الاعتراض ، أقنعته بعدم المعارضة ، وأثناء الهرولة ، حاول أن يفهمني أنني أجري في أرضه ، لكنني أثبت له أنها أرضنا وليست أرضه ، وإذا كان قد تعود على الرمح فيها بفرسه ، فهذا مخالف لحقوق الجيرة ، وإذا كان أبي يتجاوز عن حقوقه ، فأنا لا أتجاوز ، وأفهمته أيضا من أكون ، ومن هي عائلة زيدان هذه ، إنها تستطيع أن تقفل القاهرة بأكملها لو شاءت ، وأنا واحدة من هذه العائلة ، وتصنعت أمامه الفتونة ، والكام كلمة اللي بيقولوها في السينما ، ومط شفتيه تعجبا ، ثم انصرف ، وأعتقد أنه أخذ يفكر في هذه الفتاة التي تتحدث حديث الرجال ، وتحاور محاورة الشرفاء ، وتحارب حرب الأشقياء ، لكنني لاحظت أن أول شئ فعله في صباح اليوم التالي ، أنه أحضر مساحين وقاموا بتثبيت علامات الملكية بين أرضه وأرضنا ، ولما تبين له أنني كنت على حق ، قابلني في اليوم التالي واعتذر لي ، وصارت صداقة بيني وبينه ، عرف فيها كل شئ عنا ، وعرفت عنه وعن عائلته كل شئ ، ثم تعارف هو والوالد ، وكانت سهراته دائما معنا ، إما هو عندنا ، أو نحن عنده في قصره ، وكان يبالغ في إكرامنا ، فقد كانت المرة الأولى التي يعقد فيها صداقة مع فلاحين ، وبين أنه يقصد بكلمة فلاح يعني مصري ، فهذا معناها في اللغة التركية ، وهو تركي ، لكنه كان يتمتع حقيقة بهذه الصداقة ، حتى أنه أهمل تماما سفره إلى القاهرة ، وطبعا لم يرض هذا زوجته التركية ، حيث أقاربها في البلاط الملكي ، فأقامت الدنيا ولم تقعدها ، وعرف آل زيدان بالموضوع ، فحاولوا في البداية أن ينهوا هذه المسألة ، ويأخذونا معهم إلى الصعيد ، لكنني رفضت في البداية ، وأيدني

أبي ، لكنه كان يشعر بدنو أجله ، فآلام الكلى لا تبارحه ، ولم يكن الطب قد تقدم كثيرا ليكتشف أنه يعاني من فشل كلوي ، ووجدها فرصة لإعادة العلاقات بيننا وبين العائلة ، وتم الاتفاق على ترك الأرض فترة من الزمن حتى تهدأ الأمور ثم نعود ، وأثناء ذلك أتعرف على باقي عائلتي ، ويتعرفون عليّ ، وهكذا تم فك الاشتباك .

سافرنا دون أن يعلم الباشا حيث كان بالقاهرة ، وارتاحت جلنار هانم والدة عبد المنعم ، وهدأت الأمور ، وعاد الباشا ليكتشف الفراغ الكبير الذي سببه سفرنا ، وبدأ يتساءل ، هل هو بعدنا عنه ..أم بعدي أنا ..؟ وتبين له أنه يشتاق إليّ كأنه شاب في العشرين يحب لأول مرة ، ربما بدأت المسألة معه أنه يشتاق لشقاوتي وشبابي ، الذي حول كهولته إلى شباب ، فقد كنت أجري وهو يجري معي ، إلى جواري ، أسبقه ويسابقني ، وكنا نشتبك في مباريات كلامية ، أحاجيه ويحاجيني ، تعلمت منه الكثير ، وتعلم مني الكثير ، وطالت غيبتنا ، ولم يعلم سببها إلا عندما عدت بدون والدي ، والملابس السوداء تعلن الحداد ، فقدم يواسيني ، ومع المواساة ، لم يجد سوى نفسه يقدمها إليّ ، والدا وزوجا وأخا وعبدا من عبيدي أشير له فيطيع ، وأخذ يبثني شوقه وحبه ، لم أسمع كلاما أجمل مما قال ، بل إن كل ما قرأته لعباقرة الأدب الفرنسي والإنجليزي ، لم يصلوا إلى صدق هذه المشاعر المتدفقة ، ولا هذا الحب الكبير الذي يشتعل بين جوانب رجل قارب الأربعين ، حاولت أن أشرح له الفارق الاجتماعي ، فهو من عائلة تركية ، وله جذوره ، ولن ترضى له بالزواج من فلاحة ، لكنه أعلن صراحة أن من أراد أن يحيا على أرض ، فليكن على استعداد للتأقلم مع أصحابها ، يزاوجهم ويزاوجونه ، يعايشهم ويعايشونه ، هل نحن محتلون ، أم أننا مسلمون في أرض إسلامية واحدة ، إما هذا وإما ذلك ، وشرح لي أن بقائي وحيدة هنا أمر غير مقبول ، لكن بزواجه مني ، يضمن لي العز والجاه ، والمنعة ، لكنني أبيت إلا الإقامة في هذه الدار ، وتم الزواج ، وأقمنا في هذه الدار . عبد المنعم في هذه الأثناء لم يكن قد تجاوز العاشرة ، لكنه كان دائما مستكينا في حضن أمه ، حاول الباشا أن يخرجه من هذا المهد لكنه لم يستطع ، وهذا ما زاد من إعجابه بي ، حيث السن الصغيرة ، والمعلومات الكثيرة ، والحركة الدؤوبة ، وبالرغم من ذلك ، فقد رفضت الإقامة مع أهل والدي ، بعد أن وجدت أنهم يريدون تزويجي من أحد أولاد أعمامي ، وأولاد أعمامي كثيرون ، لكنني لم أشعر بميل لأي منهم ، ووجدت أن هناك حنينا لهذه الأرض ، ولهذه الدار ، حاولت أمي أن تسترضيني وتأخذني إلى فرنسا ، لكنني رفضت ، وتعجبت من رغبتي في الإقامة في هذا الكفر وحيدة ، فقدمت من فرنسا سريعا لتبقى إلى جانبي ، حتى لكأنني تعجبت ،

كيف ترفض البقاء في الأرض مع زوجها ، لدرجة الطلاق ، وتقبلها مع ابنتها ..معـــي ، لكنـــني اكتشفت أن بقائها معي ليس لحمايتي فقط ، لكنها قامت من فورها باتخاذ إجـــراءات تســجيل الأرض باسمي ، والحقيقة أن عائلة زيدان لم يقتربوا من أي من ممتلكات والدي ، فإن ما لديهم كثير ، وهم ليسوا في حاجة إلى هذه الفدينات القليلة ، فقامت والدتي بوضع مســتندات الملكيــة في صندوق صغير ، وأخذت تؤكد مئات المرات أن لا يقترب أحد من هذا الصندوق ، ولا أفرط فيه مهما كانت الأسباب ، وأقامت معي فترة من الزمن كان من الممكن أن تطول ، لولا لدغ الناموس ، وكذلك عض البراغيث ، وهذا ما كان سببا في رفضها الإقامة في الكفر سابقا ، عارضت زواجي من الباشا ، لكن ومع تصميمي ، رضخت ، وسافرت بعد أن طمأنها الباشا بأنني سأكون العين التي يرى بها ، والقلب الذي يحيا به ، والأمل الذي يعيش من أجله ، وأن طلباتي بالنسبة له أوامر ، وأنه لو حدث ما يعكر صفو حياتي وهو على قيد الحياة ، فلتعلم أن الدنيا بأكملها لن تكفيه انتقاما لي . وبدأت المشاكل بين الباشا وزوجته تزداد ، وكلما حاول الهروب إلى أرضه وقفت أمامه بالمرصاد ، فهددها بالطلاق ، وأخيرا اتفقا على اعتبارها مطلقة ، فهي لن تقبل به بعد أن نزل بمستواه إلى هذا الصنف من الناس ، لكنه رد عليها بما جعلها تنفجر فيه انفجارا ، جعل العودة بينهما مســتحيلة ، فما أن ذكر لها أن هؤلاء الفلاحين تزوجوا من فرنسيات ، ولم يقل الفرنسة عنهم ما تقولينه يا ابنة .. ونعتها بصفات عائلتها التركية التي من المؤكد أنها كانت لا تسر ، حيث شرح لي أنه لم يــترك تركيا إلى مصر ، إلا العسكريون ، وهؤلاء بحكم حاجة المستعمر لقوات تؤكد وتحمي تواجــده في أراضي الغير بغض النظر عن استخدام أية حجج لذلك ، كالدين أو الحماية .. إلخ ، أما النـــوع الثاني فهم الصعاليك ، الذين ضاقت عليهم الأرزاق في تركيا ، فحضروا مصر ربما يتغير حظـــهم العاثر ، وأبو جلنار كان من النوع الثاني ، وهكذا أخذ حاجياته ، وخرج من قصره بالقـــاهرة إلى عزبته في كفر السلحدار ، وأقسم على عدم العودة إلى قصره طالما هي فيه ، وهي أقسمت أنهـــا لـــن تريحه ، ولن يرى خيرا طالما هي على قيد الحياة ، فتمنى لها الموت ، وردت بما هـــو أكـــثر ، وحضر إلى الكفر ، ولم يتركه المسكين إلا بعد المكيدة التي أودت بحياته ."

انساق الجميع مع هذا السرد الجميل ، والكل ينظر إلى الكل ، ثم ينظرون إليها ، وهي تقـــص الحكاية بلغة عاشقة ولهانة ، لم تفارق البسمة وجهها ، رغم الدموع الحزينة التي كانت تتساقط من عينيها ، دمعة وراء دمعة ، في تذكر لأيام هي تعتبرها من أجمل أيام عمرها ، لكن عبد المنعم فاجأها بسؤال :

• "لكنك لم تطالبي بحقك وحق إسماعيل في ميراثكما من الباشا ..؟"

وردت عليه بهدوء :

" وهل أنا تزوجت الباشا من أجل أملاكه ..؟ لقد رفضت الإقامة في قصره ، حتى لا يتصور أحد أن هدفي هو المال ، أما من كان هدفهم المال ، فهم اللذين تكالبوا عليه ، وقد كانت والدتك تظن أن هذه الأرض ملك أبيك ، لذلك قامت بطردي منها أنا وابني ، ولم أعترض ، أتعرف لماذا ؟ لكي لا أوجد شقاقا بينكما ، فمهما طال الزمن ، الكل إلى زوال ، ولن يبقى سواكما ، فهل أتسبب في قطع أواصر الدم التي تربطكما ؟ لذلك ، صممت بيني وبين نفسي ، أن لا تلتقي بأخيك ، إلا وهو في مقام وثراء ، إن لم يكن أكثر منك ، فإنه على الأقل مثلك ، وعندما أوفيت ، فقط عندما أوفيت ، قلت له مَن أبوه ، ومَن أخوه ، وأين أرضي وأين أرضكم ؟ فبدأ يخطط للوصول إلى حقه ، وهذا أمر مشروع ، لأنني اشترطت عليه أن لا يكسب الأرض ، ويفقد أخاه .. وهو يلتزم بهذا الشرط حتى الآن "

كان الكلام مقنعا ، فما كانت هناك تعليقات ، لكن عندما همست بهانه في أذن والدها بما يفيد أن هذا البك هو الذي أوصلها إلى الكفر عندما خرجت ليلا من شقة الدقي ، قام عبد الجليل بالهمس في أذن عبد المنعم الذي حاول إبعاده عنه لرائحته ، وبقي أن يتأكدا أن خلفا لا يعرف شيئا عن علاقة علاء ببهانه ، وبهانه ترقب الحديث ، فقد كان يهمهما جدا أن تتأكد من جهل خلف بهذا الأمر ، فمسائل الشرف عند الفلاحين أغلى من كل غالي ، فنظر عبد الجليل وعبد المنعم سريعا إلى إسماعيل ، حيث السؤال الصامت ، هل يعرف خلف قصة بهانه مع علاء ؟ فأومأ إسماعيل بما أراح بال كل منهما ، ولاحظت بهانه ذلك ، فاطمأن بالها هي أيضا ، بينما استغل المحامي لبيب الفرصة ، وسأل إسماعيل عمن هو رابعهم في عمارة الدقي ، فتعجب إسماعيل من ذاكرته التي أصبحت تنسى ، وسأله :

• " هل نسيت الآنسة منى محمد عبد المؤمن ..؟"

ولما كان موضوع عقد الشقة قد تم بمعرفة الضابط حسام ، ولم يخبره عبد المنعم عنه ، فإن لبيبا لا يعرف عنه شيئا ، وآه لو علم ، وأن أتعابه عن هذا العقد ذهبت أدراج الرياح ، فهو يظن أن من حقه الحصول على أتعابه عن أي تعاقد قد يتم في هذه العائلة ، وعلى هذا فإن أي عقد يعقد ، لابد له من الحصول على أتعابه حتى ولو لم يشارك في تسجيله ، وهذا العقد الضابط حسام هو

الذي تولى أمره ، ولا هو تقاضى عنه أتعابا ، ولا ترك غيره يتقاضى أتعابا عنه ، يعني لا منه استفاد ، ولا ترك غيره يستفيد ، شباب إيه شباب هذه الأيام ، إنهم لا يقدرون للنقود أهميتها ، لعنة الله على مجانية التعليم التي جعلت الجميع يفهمون في كل شئ ، وليفلس أصحاب الاختصاص ، ومط شفتيه ، واستمر في التهام الطعام ، لكن بقي الموضوع عالقا في ذاكرته ، ما لها الآنسة منى محمد عبد المؤمن ؟ وما دخلها بعمارة الدقي ، حتى تكون شريكة في العقد ؟ لقد تزوجت علاء وانتهى الأمر ، أم أن هناك جديدٌ ؟ ، وحتى هذه الزيجة ، خرج منها صفر اليدين ، فقد كان لهجوم أبيها عليه ما جعله يخجل من نفسه ، فما استطاع أن يطالب بأية أتعاب ، خاصة وأن اتهام أبيها له كان بمفهوم أنه المحرض الأساسي لتصرفات علاء ، يعني هو المتهم الأساسي وليس علاء ، وحاول أن يسأل عبد المنعم عن موضوع منى ، وعلاقتها بالعمارة ، لكن الكلام كان ينتهي من موضوع إلى آخر بسرعة لم تترك له فرصة ، لكن مدام ميشو يمكنها أن تقول له ، فما أن التقت عيناهما حتى هم بأن يهمس لها متسائلا عن الموضوع ، لكنها انشغلت في حديث باسم مع شوق :

- " وهل سافر إسماعيل بك فرنسا وحده ، أم أنك كنت معه ؟ "

وردت شوق هانم بهدوء :

- " إسماعيل ابني رجل ، ويعرف مصلحته جيدا ، ثم أنه سافر عند والدتي ، جدته ، واخوتها وأخواتها ، خالاتي وأخوالي ، يعني أنه لم يكن غريبا في فرنسا ، وهو سافر للدراسة ، وعاد بحمد الله ومعه الدكتوراه ، ومعه كام عقد توريد بطاطس إلى فرنسا ، عملنا فيها وما زلنا نعمل ، وكونا منها ثروة كبيرة جدا ، ولولاها ، لما كانت هذه السيارة الكبيرة ، كما أن قرارات رفع الحراسة ، أعادت إلينا فيلا جدي والد والدتي ، وعادت أمورنا إلى الأحوال العادية وزيادة والحمد لله .. "

وانتهزها المتر لبيب فرصة ، وسأل إسماعيل عن موضوع منى :

- " تقول يا دكتور إسماعيل ، أن العمارة بها أربعة شركاء ، وقلت منى عبد المؤمن ، فما دخلها ، لقد تزوجت علاء ، وانتهى الأمر .. أليس كذلك ، أم أن هناك أمورا أخرى لا أعرفها ..؟"

وتبسم إسماعيل ، وغمز لأخيه عبد المنعم أن يتولى الرد ، لكن عبد المنعم أراد أن يكيد له إنتقامـــا لانحيازه إلى إسماعيل لأنه رفض أن يعطيه نصف ثمن الأثاث حتى يقول له الحل ، لم يشأ أن يخـــبره بشيء ، فقال له مغاضبا :

• " هذا موضوع لا شأن لك به .."

وسكت ، وهو يرى علامات الهوان على وجه المتر لبيب . فأسعده ذلك ، وامتدت السهرة حتى ساعات الصباح الأولى ، حيث صمم عبد المنعم أن يرتاح في الفيلا الخاصة بهم ، وترك إسمـــاعيل ووالدته ، أما عبد الجليل وبهانه ، فقد أخذا خلفاً معهم ، وعادوا إلى بيتهم مع باقي عائلته ، فخلف ابن عم عبد الجليل ، ولا بد له أن يتعرف على باقي أفراد عائلة عبد الجليل ، وصممت شوق هانم على عبد الجليل أن تحضر والدته في الصباح تريدها معها ، فهي في شوق إليها ، لكن عبد الجليـــل أوضح لها أنها قعيدة المرض ، فكانت تعليماتها إلى إسماعيل أن يحضر كونسلتو أطباء من القـــاهرة للكشف عليها ، ولم ينتظر إسماعيل ، فاستخدم التليفون المحمول ، واتصل بمجموعة من الأخصائيين الكبار الذين يتعامل معهم ، وحدد لهم حوالي العاشرة من صباح اليوم التالي .

كانت شوق هانم لا تثق في أحد من أهل الكفر إلا والدة عبد الجليل ، لذلـــك كـــانت كاتمـــة أسرارها ، وكانت السيدة بكبر سنها عن مدام شوق ، وحبها لها ، تحرص على كل ما يخصها ، فما أن عادت شوق إلى الكفر ، حتى سارعت تطمئن عليها ، وحرصت أن تكون عندها مع خيـــوط الصباح الأولى ، وظلت إلى جوارها ، ومجموعة الأطباء تقوم بالفحص ومناقشة التشـــخيص ، ثم كتبوا أدويتهم ، وهموا أن يذهبوا على أن يعودوا بعد أسبوع ، لكن إسماعيل طلب منهم أن يوقعوا الكشف الطبي على أهل عبد الجليل كلهم ، ثم على أهل الكفر جميعهم ، والأدوية كلـــها علـــى حسابه ، وكم كان لهذا التصرف وقعه في نفوس الفلاحين ، فأصبحت خدمة إسماعيل بك من أهـــم ما يتوق لها أهل الكفر كلهم ، ولما كان عبد الجليل يعلم أن إسماعيل يعمل في تجارة البطـــاطس ، فقد طلب من الفلاحين تمهيد أرضه ، الأربعين فدان ، حتى يزرعها بطاطس ، فهذا موسمها الصيفي ، وأقسم عبد الجليل على إسماعيل بك ووالدته ، أن يتناولا الغداء معهم ، ولم يجدا غضاضـــة في ذلك ، فأمر السائق بإحضار الخادمة ، وما يوجد في الثلاجة من لحوم ، لكن عبد الجليل رفـــض ، وقام بذبح عجل صغير عنده ، وعزم أهل الكفر كلهم ، معلنا أنه أحلى من أي مناسبة ، ذلـــك اليوم الذي حضر فيه إسماعيل بك والسيدة شوق عندهم ، وانهالت التحيات والســـلامات مـــن

أهـل الكفر على إسماعيل بك ، وأقسموا أن يحملوه إلى بيته ، حيث مروا بأرضه ، فوجدها وقـد هيئت للزراعة ، فقال له كبيرهم :

• " مش ناقص إلا الدرنات يا إسماعيل بك ، وإن شاء الله بعد كام شهر ، حتلاقي الإنتاج أحسن من أي بطاطس اشتريتها من مصر كلها ، بس بقى إيه ، إحنا عايزين الدرنات اللي ينتج الفدان منها خمسين والا ستين طن ، علشان تعبنا ما يروحش بلاش ، وعلشان لمـــا ربنـــا يكرمــك ويرجـــع لك أرض والدك الباشا رحمه الله ، نبقى إحنا برضك رجالتك .."

وفهم إسماعيل ماذا يقصدون ، هم عليهم الزراعة ، وهو عليه الدرنات والأرض والسماد ، ولهــم نسبة ، فأعلنها حتى يكون كل شئ واضح ، ورضوا بالربع ، وهو ما يعـــادل جـــهدهم ، ثم أن إسماعيل طلب أحد المهندسين ، حيث شرح له أنه يريد أن يبني للفلاحين قرية جديدة عصريـــة ، بخدمات متكاملة ، جامع وعيادة طبية ملحق بها مجموعة مناسبة من الأســـرة ، ونـــادي صغـــير ، ومدرسة صغيرة ، للعدد الذي يتعاون معه ، وهم لا يزيدون عن عشرين عائلة ، وذلـــك علـــى مساحة من الأرض في إحدى المناطق الصخرية ، وأوصى أن تكون أساسات المنازل بحيث تتحمــل أكثر من طابق لحالات زواج الأولاد ، لم يترك شيئا بدون أن يخطط لـــــه ، وأفهمـــهم أن هـــذا الســـكن لمن يعمل معه ، فإذا أراد أن يعمل عند غيره ، فسيتركه لمن يحل محله ، وشرح لهـــم ، أن الحق حق ، هم طلبوا حقهم ، وهو يحافظ على حقه ، ثم أنقد كلا منهم مبلغا مناسبا حـــتى تمـــام حصد المحصول ، وطلب إنشاء حظيرة كبيرة على ما تبقى من الأراضي الصخرية ، وطلب منـــهم استعمالها لماشيتهم ، كما أنه ستكون له هو أيضا ماشيته ، وسيكون الأمر مناصفة بينه وبينـــهم ، على أن يتم تسميد الأرض من السماد الذي يتجمع من هذه الماشية ، بالإضافة إلى ما يتم شراءه .

وتعجب عبد المنعم عندما ذهب ليودع إسماعيل ، حيث أنه وجد أن أرضـــه قـــد تم تســـويتها وتجهيزها للزراعة ، ولولا أنه مضطر للسفر إلى القاهرة لزيارة ابنه بالمستشـــفى ، لاســـتمع مـــن إسماعيل عن السحر الذي ينهي به أعماله .

أمضت شوق طوال اليوم إلى جوار والدة عبد الجليل ، تطببها وتعطيها الأدوية في مواعيدهـــا ، وتعلم بهانه حتى ترعى جدتها بعد سفرها ، وقبل أن تغادر همست العجوز في أذنها طالبة منـــها أن تأمر بهانه بالخروج ، وبعد أن خرجت الفتاة الصغيرة ، طلبت منها أن تغلق الباب بالمفتـــاح ، ثم ألقت بنفسها من فوق السرير ، حتى أن الست شوق شعرت بالقلق عليـــها ، لكنـــها بعـــد أن

أخـــذت أنفاسها طمأنتها ، ثم دحرجت نفسها إلى أن وصلت أسفل السرير إلى الأرض السوداء ، فليس عندهم بلاط ، وأخذت تنبش الأرض بأظافرها ، وعبثا حاولت شـــوق أن تســـاعدها ، أو تعرف ماذا تفعل ، والسيدة ترفض ، وتحفر بإصرار وعزم ، ثم أخرجت لفتين ، فتحت إحداهمـــا ، فإذا ذهب ومجوهرات شوق ، فنظرت شوق إليها بدهشة ، لقد ظنت أن والدة عبد المنعم أخذها ، لكن مسعدة كانت قد سبقتها ، فقد راودها الشك في وفاة الباشا ، وأن هذه السيدة لابد وأنهـــا تدبر أمرا خطيرا ، فحرصت على جمع كل ما له أهمية وذا قيمة ، وأخفته تحت طيات ثيابها ، حـــتى لا تقع في أيدي مدام جلنار ، وشكرتها شوق كثيرا ، بينما السيدة تفض اللفة الثانيـــة وتســـلمها مجموعة الأوراق وظرف ، وطلبت منها أن تخفي كل شئ في حقيبتها ، حتى تقوم بقراءتها بهـــدوء وتعرف مالها وما عليها ، ثم سألتها :

• "هل أخذت الحقيبة التي دفنتها تحت الكانون في المطبخ ..؟"

وطمأنتها شوق ، بأن ذلك كان أول شئ فعلته حتى قبل أن تحضر إلى الكفر ، وإلا كيف كان لها أن تعيد الدار إلى ملكيتها من جديد ، ولقد ساعدها خلف ابن رتيبه ، حيث احتال حـــتى دخـــل الدار ، وأحضر منها الحقيبة ، وعاد بها إليها ، فبدأت بترتيب أوراقها ، وبدأت المداولات مع عبد المنعم وزوجته . وشعرت مسعدة بالراحة ، وجلست إلى جانب السيدة شوق ، كما لو لم يكـــن بهـــا مرض أو ألم ، وبدأت تقص على السيدة شوق حكاياتها مع جلنار ، والهمس الذي كان يدور في القصر ، فقد كانت دائما ما تدبر المكائد ، ودائما ما تزرع الشك في نفس الباشا في كل مـــن حوله ، حتى يخلو لها وجهه ، فهي من ناحية ترعب كل من يناصبها العداء أو يرفع صوته عليـــها ، ومن ناحية أخرى ، تجعل الباشا في موقف لا يحسد عليه باعتباره ظالم .

وسألتها شوق عن عبد المنعم ، لماذا لم يكن الباشا يصحبه معه في جولاته في الكفر ؟ وتـــرددت مسعده قبل أن تجيب :

• "أشك أن يكون عبد المنعم ابنا للباشا ، لا من جلنار ولا من غيرها ، فقد فوجئنا به وهـــو في سن كبيرة نسبيا ، وقد تم نسبه للباشا ، أما كيف ؟ فلا أحد يعلم ، ولكن الباشا كان عنـــده صبي يعامله معاملة طيبة ، ويشجعه على الدراسة حتى الجامعة ، اسمه .. اسمه .. لبيب ، لا بـــد وأنه يعرف السر . "

وتذكرت شوق هذا الاسم " لبيب " لقد تردد على مسمعها أكثر من مرة ، وحاولت أن تتذكر متى ؟ فللسن أحكام ، لكن لا .. لقد سمعت الاسم يتردد أكثر من مرة أثناء حوارهما مع عبـــد المنعم وزوجته ، إذا هو المتر لبيب محامي عبد المنعم وميشو ، هذا الألعبان ، كان يتودد إليها ، فهو يعرفها ، ولم يكشف لها عن شخصيته ، وهو بالتالي صاحب كل هذه البركات التي نزلت على عبد المنعم وأمه جلنار ، ولابد وأنه من أوصى بالبلطجية الذين طردوها وابنها من بيتها ، وربما يكـــون أحد مدبري التخلص من الباشا ، ولعله هو الذي أعطاه السم بيده ، لن يفلت من يدها إذا ثبـــت ذلك في حقه ، لكن لابد لها أن تعرف منه أسرار كل هذه الألاعيب ، وإذا ثبت أن له يد ، أو حتى علم بأى منها ، يبقى يا ويله ..

رفض مدحت الأناضولي الموافقة على زواج حسام من ابنة عمته منال ، فهو لن يضع يده في يد ذلك الأفاق الذي استولي علي مال والده ، وتركهم يعانون العوز ، ولولا وقف تركه والده ، لكانوا الآن في وضع لا يحمد عقباه ، وما هو أقسى من كل ذلك ، أنه أخذ والده عصمت باشا الأناضولي ليقيم عنده ما بقي له من عمر ، بحجة رعايته والاهتمام بصحته ، حتى توفي عنده بعد أن سلبه كل أمواله ، وكانت هذه مفاجأة لحسام وأختيه ، بل وللسيدة ألفت نفسها ، حيث كانت تعيش مع زوجها في قصر الباشا ، وعندما تساءلت عن السبب في عدم معرفتها بذلك الأمر في حينه ، تلجلج في الإجابة ، فعرفت أنه يكذب ، ولكنها لا تريد إحراجه أمام ابنه وابنتيه ، واكتشف هو ذلك فقال بدهاء وهو يتصنع البراءة :

• "طلع والا نزل .. ما هو برضه جوز أختي .."

وتساءل حسام مع نفسه ، هل حقا ذلك الرجل المتدين الذي يقطر طيبة وخلقا ، رغم تقاطيع وجهه الصارمة ، هل يمكن أن يفعل ذلك ؟ واستدرك ، لعل ما حدث لابنته ، وتلك الفضيحة التي لولا تدخل حسام بصفته ضابط بوليس ، لكانت وصمة في جبين عائلته لا يمكنه الفكاك منها ، ربما كان ذلك تكفيرا عما ارتكبه هذا الرجل في حق والده وعائلته ، لكن المؤمن مبتلى ، ولعل ابتلاء الله له كان في ابنته ، فقد أنعم الله عليه نعما كثيرة ، زوجة هي ابنة باشا ، وابنتين في كليات القمة ، وأولاد اخوة وأخوات بعضهم دكتوراه من أمريكا ، وعمارة تناطح السحاب ، هكذا دون ابتلاء واحد ، ربما كانت أمواله التي ضاعت في شركات توظيف الأموال واحدة من تلك الابتلاءات التي كان لطف الله معه فيها ، فجعلها تمر دون أن يحدث له ما حدث للكثيرين ممن حولت هذه الأزمة حياقم إلى جحيم ، حقيقة هم في وضع مالي متعسر ، ولكنهم ليسوا مساكين ، وتأتي مشكلة ابنته التي حلت في أقل من ساعة ، أمر لا يمكن أن يصدقه عقل ، إذا هذا الرجل بصلاته وتعبده رجل صالح ، وانطلاقا من أمور أخرى كثيرة ، من بينها تعلقه بابنة عمته التي أحبها من قبل أن يعلم من تكون ، ثم ازداد تعلقه بها بعد أن عرف من تكون ، وهي الآن خطيبته ، شاء والده أو لم يشأ ، لكن الحقائق شئ ومشاعره وحبه شئ آخر ، وهو يريد أن يعرف الحقيقة ، وشاركته نشوى في ذلك ، أما صفية فإنها لم تتعمق في علاقتها بهم ، ثم أنها لم تجد ما

يبرر أن يكذب أبوها بشأنه ، لذلك كانت من رأي أبيها ، وتساءلت بصوت عال حتى لا يغضب حسام :

- " وهل من المعقول أن يفتري أبي عليه ؟ قد يكرهه لاعتقاده بصعيديته أو دونيته ، لكن الزمن تغير تغيرا كبيرا وذلك كفيل بتغير الأفكار والتصرفات ، ولكن ما ذكره أبي عنه شئ خطير ، فإن كان صحيحا ، فإن الأمر يحتاج إلي إيضاح ، وربما إيضاحات ، أما حكاياته التي يريد أن يأكل بها عقولنا أنا وحسام ونشوي ، فلا تدخل علينا أنا وأمي ."

ولزمت الأم الصمت ، بينما أثارت كلمات صفيه حفيظة حسام ، فتملكته ثورة غضب عارمة ، لم يملك إلا أن يكتمها ويحاول جاهداً التحدث بهدوء :

- " أنا رجل قانون ، فلا عقوبة بدون قانون ، ولا اتهام بدون دليل ، وإذا لم يتبين الدليل ، يصبح هذا تشهيراً يقع تحت طائلة القانون ."

وأيدته نشوى متسرعة ، أما صفيه ، فقد ترددت بعض الشيء ، والوالدة التي تعرف كل شئ ، وارت وجهها خجلا من تصرفات زوجها ، لكن لم يكن أمامها إلا أن تضم صوتها إلى صوت نشوى ، وشاركتهما صفية ، فأعلن موافقتهن لما قاله حسام ، فنهض والده من فوره ، وتوجه إلي مكتبه وأخرج منه وريقة من تلك التي تحررها الأجهزة الحكومية ، اطلع عليها حسام ، ثم أعطاها لأختيه ووالدته ، وكم كانت صدمة للجميع ، ما عدا الوالدة طبعاً ، الفيلا التي يعيشون فيها مسجلة باسم نورهان وبناتها ، وبعد زوال أثر الصدمة ، فكر حسام جيدا ، ثم قال :

- " باسم عمتي وبناتها ، مش باسم الباش مهندس .."

وثار والده بدهشة يتبين منها مقدار عجبه من انحياز ابنه لعائلة حبيبته من الآن :

- "ما الفرق بين نورهان وبناتها ومحمد وبناته ، انهما وجهان لعملة واحدة ، فقد أحبته ، وكانت علي استعداد أن تتزوجه بالرغم من إرادة والدها ، وإرادتي أنا أيضا ، لقد كان حفل عرسهم حفل حداد لنا ، فقد اعتبرناها ماتت يوم زواجها منه ، هل تريد دليلا أكبر من هذا ، يا حضرة المحب الولهان ؟.."

ثم أخرج مظروفا يحتوي على صور حفل الزفاف ، وأشار إلى السواد الذي يملأ الصور ، العريس والعروس فقط هما اللذان في ملابس العرس ، أما جميع المعازيم ، فقد كانوا بالملابس السوداء حدادا على زواج نورهان منه .

ودقق حسام النظر ، إن الصور تعكس ما قاله الحاج محمد ، بقي أن يرى صور جده ، فقد قال الحاج محمد إنه كان سعيدا بهذه الزيجة ، ولم يهتم برأي ابنه ، ولعلها من مكائد والده ، فهو يعرف عنه ذلك ، وتجاربه معه في هذا المجال كثيرة ، يكفي أنه يدعي الفقر ولا تخلو خزانته من زجاجات الخمر ، والسجاير التي ينفثها عمال على بطال ، واهتمامه بنفسه وبشياكته ، دونما أي اعتبار لأولاده ، إن عدم زواج صفية حتى الآن هو نتيجة إعلانه عدم الاستعداد للمساهمة في نفقات العرس ، وجهاز العروس ، لقد أوصلهم ، لأعلى درجات الاكتئاب ، حتى أن حسام عندما فكر في منال ، كان ذلك من منطلق أنهم ربما يكونون في مثل حالتهم ، أو أقل ، حتى لا ترتفع الأنوف ، ويعاني ما يعاني منه زملاؤه ممن تزوجوا من بنات أثرياء ، أو حتى أنصاف أثرياء ، الكارثة أن منال تبين أن أباها من الأثرياء ، وبغض النظر عن أن العمارة لا تأتي بإيراد مناسب في الوقت الحالي ، فلا بد وأن يأتي اليوم الذي يحصل فيه كل ذي حق على حقه ، وتأتي هذه العمارة بالإيراد الذي يتناسب مع ما يجب أن تجنيه وفقا لما أصاب العالم من تضخم ، وتساءل حسام بذكاء :

• " أمال فين صور جدي ؟ هو اعتزل العرس تعبيرا عن احتجاجه .."

واشتم والده في كلامه بعض السخرية ، فالاحتجاج لا يكون بالملابس السوداء ، ولكن عدم الحضور ربما يكون أكبر دليل كما فعل جده ، ولكي يؤكد له أنه لم يكن أقل من جده ، فقد أخرج باقي الصور ، كان الرجل في الملابس السوداء ، ولكن ليس باعتبارها احتجاجا ، فهي ملابس سهرة أولا وقبل كل شئ ، أما الابتسامة العريضة التي رسمها الرجل على محياه ، والتي تعكس سعادة حقيقية ، والبافيون الأبيض ، وتقبيله العريس ، ذلك الصعيدي الجلف علي رأي والده ، لابد وأن تكون كل هذه الأمور تعبيرا عن سعادة حقيقية وليست احتجاجا ، وثار الرجل :

• "يعني أنا كاذب يا سي حسام بك ، صدقوا الراجل الحرامي ده وكذبوني ، كذبوا المستندات الرسمية ، إحنا في بيت عمتكم ، يعني في أي وقت في إمكانها تطردنا ونبقى في الشارع .."

وتساءل حسام بشيء من عدم التصديق :

• " لو كان ذلك صحيحا ، ففيم انتظارهم ؟ "

وكان جواب والده أعجب من اتهام حسام له :

• "جايز كانوا راسمين عليك من زمان .."

وحسم حسام الأمر :

• "خلاص .. يبقى نواجههم بذلك ، ويبقى هناك مبرر قوي لفسخ الخطوبة .."

وتردد الرجل ، وأخذ يفكر بسرعة في حيلة يخرج بها من هذا المأزق ، ثم ثار بشيء من الحنق :

• "أنا قلت لا يمكن أحط ايدي في ايد الراجل ده .. ولا حتى أشوف خلقته .."

فقال حسام بشيء من الكياسة ، والتصميم القوي :

• "بابا على حق .. أروح أفهمهم غلطهم ، وأفسخ الخطوبة ، ويا دار ما دخلك شر .."

وضمت نشوى رأيها إلى رأى أخيها .. وامتنعت صفية وألفت عن التعليق ، وهم الوالد أن يقول شيئا ، لكنه تراجع ، وعبر عن غضبه ببضع كليمات قالها بالتركية ، وترك المكان وانصرف إلى غرفته يعب من زجاجة الخمر الوحيدة المتبقية لديه .

اتصل حسام ببيت عمته ، ويا لسعادته ، لقد حدث ما كان يتمناه ، حبيبة القلب هي التي همست بصوتها العذب الرقيق ، وجد قلبه يخفق كأنما هو تلميذ يعرف الحب للمرة الأولى ، إذا هو الحب ، وليست القرابة ، ولا ألاعيب الكبار سواء كانت صدقا أم كذبا ، لكن ، من نصدق ؟، شارب الخمر المعاقر لها ، أم المتدين الذي لا يتحدث إلا بما قال الله وقال الرسول ، حقيقة أن ما يقوم به إرهابيون ، الله وحده يعلم من يحركهم ، ويصدرون بيانات ينسبون فيها أنفسهم إلى الإسلام ، وتملأ وسائل الإعلان أعين وسمع وفكر الناس بهذه النغمة البغيضة التي تصم الإسلام بالإرهاب ، جعل الكثيرون يتحفظون في تعاملهم مع من يغالي في التعامل باسم الإسلام خشية أن يكون أحدهم .

كان صوتها نغما ينساب عبر الأثير ، نسي نفسه ، فما عاد يشعر بمن حوله ، والهمس يزداد ، وبتلقائية لم يتعودها من قبل ، سحب التليفون إلى غرفة أغلق بابها خلفه ، وظل الاثنان يبث كل منهما الآخر ما يعتلج في قلبه من مشاعر مكبوتة ، وجدت الفرصة لانطلاقها ، قالت له :

• " لم أنم أمس .. فقد وافق والدي على أن يتم الزواج سريعا ، فهو ضد إطالة فترات الخطوبة ، ولقد أسعدني ذلك ، أرجو أن يسعدك أنت أيضا .."

أراد أن يلاعبها بالكلمات ، حتى يستشعر ما وراء الأحداث ، فكلمات والده بالرغم من عـــدم تصديقه لها ، ما زالت عالقة في ذهنه ، لا يستطيع أن يغفلها ، هل حقا ذلك الرجل القـــادم مـــن الصعيد كان يرسم لزواجه من ابنته ؟ وأيهما التي كان يرسم له عليها ، هل هي منى ، أم منال ، أم أن القدر شاء وحدد ، فكانت منى لعلاء ، ومادامت المتاحة الآن هي منال ، فلمـــاذا لا ؟ لكـــن حسام هو الذي اختار ، وحدد وخطط ورسم ، وأحضر أخته للتعرف على مشاعرها ، وهل توافق أم لا ؟ كل هذا والرجل بعيدٌ جداً عن الموضوع ، فكيف له أن يخطط لأمور لا دخل له فيها ، لابد وأن أباه يغالي في عدائه لهذا الرجل ، حتى إفطاره معهم ، لم يكن مخططا له ، وحضوره بعد ذلك ، كان بناء على رغبته هو وليس للرجل دخل فيه ، وحضور والدته وانبهارها بمنال منـــذ اللحظـــة الأولى ، لم يكن للرجل دخل به ، إذاً ليس للرجل دخل في أي من هذا كله ، من أين جاء والـــده بهذه الأفكار العجيبة ، لعلها شفافية سكران ، فالخمر في كثير من الأحيان تصور لشاربها أمـــوراً لا تخطر على بال العقلاء ، ولكن أمره إلى الله ، فطاعة الوالد فرض قرره الله ، ولن يفعل ما يغضـــب والده مهما كانت الظروف ، لقد كافح والده في تربيتهم ، ولو أنه لا يعرف كافح بماذا ؟ فـــهو لا يعمل ، ومع ذلك الأموال تأتيهم هكذا ، كأنما تأكيداً لقوله سبحانه وتعالى ، " ورزقكم في السماء وما توعدون " ، ولكن هل شارب الخمر ممن يوعدون ، أم أنه رزقه وأمه وأختيه وهـــو معـــهم ، امتثالا لقوله سبحانه " نحن نرزقهم وإياكم " والفيلا التي يسكنونها ، لقد اتضح اليوم أنها ليســـت ملكهم ، لكن والده كان كثيرا ما يباهي بأنها ملكه ، وكثيرا ما كان يحضر من يعاينـــها ، لعلـــه كـــان يريد أن يبيعها ، يبيع شيئا ليس ملكا له ، وماذا في ذلك ؟ ألم يباع الترام ، والعتبة الخضراء ؟ ، لكن هذا كان زمان ، فهل يستطيع أحد الآن أن يضحك على أي مصـــري ، مـــن الوجـــه القبلـــي أو البحري ، على كل لن يخسر شيئا ، فليستخدم بعضا من علوم البوليس في تحســـسه لمعرفة ما وراء الأحداث ، ولو وجد لكلماته معها ما يثير غضبها ، فليتجنب الأمر كله .

قال لها بسعادة :

• " إنه يقرأ أفكاري ، فما أسعدني بقراره هذا ، وليكن من باكر .. فيـــم الانتظـــار .. الفيـــلا موجودة .. والجميع هنا سيسعد بك معنا ، وأولهم خالك .."

وبعد فترة صمت .. تراءت لها العبارة غير تقليدية ، فدائما ما يرغب الأبناء في الاستقلال بحياتهم ، كيف تكون مشاعره هينة بهذا القدر ، أم لعله لا يملك شقة ، إنها تعرف أن رجـــال الشــرطة ورجال الجيش أيضا ، يسهلون لهم الحصول على شقق بأقساط ميسرة ، حتى أن الكثيرين منهم قد يحققون ثراء من هذه التسهيلات ، لابد وأنه يختبر ذكاءها ، أو لعله يختبر لهفتها على الزواج منه ، أو لعله جاد فيما يقول ، أو أنه يريد أن يعيد معها تجربة زواج والدها من عمته ، قالت :

• " هن لباس لكم ، لم يقل لعائلاتكم .."

فقال بشيء من الدهاء :

• "فهمت .. فليكن إذاجناح كالذي هيأه والدك لعمتي .. سأشرف بنفسي على إعداده .. وربما كان لخبرة عمي في هذا المجال ما يساعدنا على إتمامه كما يجب .."

إذا هو يلاعبها ، يريد أن يذكرها بما فعله والدها ، ويريد أن يفعل مثله ، لكنها انشغلت عنـــه ، فشعر ببعض القلق أن تكون النتيجة عكسية ، لكنه سمعها وهي تخاطب عمته ، حيث طلبت منه أن يحضر على الغداء ، وتمنت أن تحضر عائلة أخيها جميعهم ، لكنه اعتذر بلطف ، فتنـــاولت عمتـــه السماعة ، ووبخته برقة ، وطلبت منه الحضور هو وعائلة أخيها ، كانت السيدة تتحدث من منطلق عائلي ، فما كان أسعدها بهذه الزيجة التي ستعيد الروابط الأسرية إلى طبيعتـــها ، لكنـــه اعتـــذر بانشغالهم ، وسوف يأتي هو ونشوى ، فنشوى تود أن لا تفارق منال ، وهمست السيدة بدلال :

• "نشوى برضه !! على كل نحن في انتظاركما ."

وقبل أن تضع سماعة الهاتف ، اختطفتها منال واستحثته الحضور فورا ، فقالت لها والدها :

• "خلصي مذاكرتك بسرعة حتى لا يغضب والدك .."

وحضر حسام ونشوي ، ولما وجد أن عمه الحاج محمد غير موجود ، شعر بالحرج ، فهو لا يريد أن يغضبه ، لكن عمته أفهمته بأنه عند عمته ، ولا يوجد أي حرج في ذلك ، ولاحظت الســـيدة على وجهه بعض الكآبة ، بينما كانت نشوى في صمت مطلق ، حتى لكأنها لم تخاطب منـــال ، في الأمر شئ إذا ، ما هو يا ترى ؟ قالت عمته :

• " ما لك يا حسام ، بابا مش موافق .."

ولما أظهر بعض التململ ، قالت :

• "لا تكذب .. الحمد لله إن معظم صفاتك من جدك ، وليست من والدك ، ما الأمر ؟"

ولم يجد حسام بدا من مكاشفة عمته بالحقيقة منتهزا فرصة ذهاب منال لعمل الشاي ، ووجدها السيدة فرصة لتقول ما تحرج زوجها من قوله ، لقد كان على وشك أن يكشف الحقائق ، فقد تحمل من أبيه فوق ما يستطيع ، ويريده أن يثوب إلى رشده ، ويعود إلى الحق ولو كان على نفسه لمصلحته ومصلحة عائلته ، لكنه طالما الزجاجة في فمه ، فلن يفلح الظالمون . ودهش حسام ، إنهم يعرفون كل شئ عنهم ، هل هي شفافية ؟ أم أن ذلك الرجل القادم من الصعيد مخاوي الجن ، أم أنه هو نفسه جن ، فما يفعله لا يقوم به إلا الجن ، وجن جنون حسام ، فقالها لعمته بهدوء :

• "أنا شايف يا عمتي أنكم كما لو كنتم عايشين معانا .."

ووجدها عمته فرصة ، حتى لا يتزيد والده في ألاعيبه المكشوفة ، ويباعد بين الأبناء كما باعد بين الكبار ، فقالت بتريث شديد ، وكأنها مقدمة على مجهول ما كان يجب أن تخوض فيه ، خوفا من احتمال غضب زوجها ، فهو لم يصرح لها بذلك ، وكذلك خوفا على ابن أخيها وعائلته ، فهي تريد رأب الصدع ، لا زيادته :

• "شوف يا حسام ، أنا حقول الكلام اللي عمك محمد ما رضيش يقوله أمس ، وربنا يستر لو عرف ما يزعلش مني ، لأنه منبه على أن لا أذكر شيئا عن الماضي ، خاصة أمام بناتنا ، حتى لا يكون له تأثير عليهن ، فالوجوه تتقابل ، وربما لسبب أو لآخر ، حدث لقاء بين البنات وبنات خالهن ، وتعارفن بأسلوب أو آخر ، تبقى النفوس راضية ، أما مع ما سأذكره لك عن ماضي والدك معنا .. فأعتقد أنه لن يسرك ، وربما نشوى أيضا ، أما بناتي ، فلا أحب أن يسمعوه ، لأنهن لو سمعنه ، فلن يكون بينكم أي نوع من العلاقات ، لا زواج ، ولا حب ، ولا حتى تعارف ، وهذا ما لا يرضاه عمك الحاج ، ده إذا كنت مازلت تعتبره عمك . "

وأثار ذلك فضول حسام ونشوى ، فما كانا يتصوران أن الأمر بهذه الخطورة ، ونظر كل منهما للآخر وقد بدت عليهما علامات الدهشة والاستهجان ، وأكملت عمتهما :

• " جدك قبل وفاته رحمه الله ، أخذ عهد علي عمك محمد أن يرعاكم ، ذلك أن جدك لم يكـــن يثق في والدك ، ويعلم تماما أنه ليس رجل بيت ولا أب .. ولا أخ .. ولا حتى ابن .."

ثم نادت منى ، وأمرتها بإحضار ملف من مكتب الوالد حددت لها مكانه ، وبعـــد أن أحضرتـــه أمرتها بالخروج وإغلاق الباب خلفها ، وعدم حضورها أو أي من أختيها ، لأي ســـبب كـــان ، ونظرت إلي حسام كي يأمر نشوى بالخروج كذلك ، لكن حسام أومأ لعمته بضرورة وجودهـــا ، فالموضوع لا يخصه وحده . فجلست بين حسام ونشوى ، وفتحت الملف بهدوء وبدأت بإيصالات سداد مصاريف كلية الشرطة ، وقالت لهما :

• "كان أملك الالتحاق بكلية الشرطة ، ووالدك رفض علشان مصاريفها ، وورقك كان علـــى وشك أن يرفض ، وذهب عمك محمد وكتب كل الكفالات المطلوبة باعتباره زوج عمتـــك ، ولو رجعت للملفك في الشرطة حتلاقي إن السبب في قبولك حاجتين ، الأولى إن مدير الكليـــة كان معرفة عمك محمد ، والثانية ، إن كفالة عمك محمد بتوقيعه محفوظة في الملف .. أما عـــن هذه الإيصالات ، فواضح أن عمك محمد هو الذي كان يقوم بسداد مصاريف الكلية ، مـــش كده وبس .."

ونادت على منال ، وأمرتها أن يحضر عم محمدين البواب لأنها تريد إرساله إلى أحد الأماكن الهامة ، فحضر الرجل في ملابس التشريفة ، ما أن رآه حسام حتى أقبل عليه يقبله ، وتعجبت نشـــوى ، وسألته إن كان يعرفه ، فقال لها هامسا :

• "ده مستأجر الأرض بتاعتنا اللي كان بيجيب لي مصروفي في الكلية كل أول شهر ، انـــــتي ازاي ما تعرفهوش ، ده كان بيجي كل أول شهر ويعطي والدتي باقي الإيراد ."

فقالت نورهان هانم للبواب :

• "معلهش يا عم محمدين ، حنخلي المشوار بعدين ، تعبتك معايا .."

وطلبت منه أن يخلع ملابس التشريفة ، فخلع الرجل العباءة والعمامة ، وإذا هو البواب الـــذي يصعد مع حسام كل مرة ، فطأطأ حسام رأسه خجلا ، إذ كيف فات على فراسته ذلك ؟ وصعـــد الدم إلى رأس نشوى فوارت وجهها بين يديها ، في تعبير عن الأسف والندم ، فقد ثبت لهما أنـــه

حتى مصروف بيتهم كان الحاج محمد يرسله إليهم مع البواب ، فضلا عن مصاريف كلية الشرطة ، وكذلك مصروف حسام الشخصي ، وعقبت السيدة :

• "طبعا البواب ما يعرفش هو واخد إيه ولا لمين ، ولا بتوع إيه ، هو ما عليه إلا إنه يوصل الظرف وبس ، ده لان عمك محمد كان يودع المبلغ المناسب لمصاريفكم في حساب والدك بالبنك ، دون أن يعرف والدك ، ووالدك لم يفكر ولو للحظة ، كيف يتضخم حسابه بهذه المبالغ شهريا ، لكنه وجدها فرصة ما كان ليسأل عن مصدرها ، واكتشف عمك محمد إن والدك بياخد كل المبالغ اللي بيودعها في حسابه بالبنك شهريا لمصروفكم ومصروف البيت ، ويسهر بيها سهرة من سهراته إياها ، فطبق قول الله سبحانه وتعالى " ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي كتب الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم .." ومش كده وبس ، لو قلبت في الملف حتلاقي مصاريف مدارس أختيك ، ومصاريف الدروس الخصوصية ، ومصاريف الجامعة ، وفواتير المحلات اللي أختاك تشتري منها الملابس ، وإبعت الحساب إلى بابا ، ذلك أنه عندما وصلت أول فواتير لبابا ، حدثت عنها خناقة طويلة عريضة ، بعدها تولى عمك الحاج السداد ، وأعطى تعليمات للمحل أن يعطيكم في حدود مبالغ معينة ، علشان قدراتنا المالية ، وطبعا ولا واحدة من أختيك حاولت أن تسأل نفسها ، إذا كان بابا اتخانق معانا ، ازاي بيدفع لنا من غير ما توصل الفواتير البيت ، كل اللي عملوه إنهم قالوا السر لمامتهم ، فبدأت هي كمان تستفيد من الخدمة المجانية ، وده كله كان على حساب بيتي وبناتي ، لقسم أقسمه عمك الحاج لجدك .. ولأنه مش رايح بيت غريب ، ده بيت أخويا برضه .."

كانت السيدة تسرد هذه الوقائع ، ودموعها تنهمر لأنها ما كانت ترغب في كشف كل هذه الأمور ، خاصة وأن زوجها ما كان ليفعل كل هذا إلا من أجلها ، وبغض النظر عن قسمه لوالدها من عدمه ، فما كان لأي إنسان أن يتحمل عائلة أخو زوجته ، ولو بنصف أو ربع ما كان يتحمله زوجها ، وبالرغم من الظروف الصعبة التي يمرون بها ، خاصة بعد ما حدث لشركات توظيف الأموال ، إلا أنها فوجئت بنشوى تواجه عمتها بالورقة التي تثبت تنازل جدها عن الفيلا لها ولبناتها ، فقامت السيدة باحتضانها برقة وهي تقول :

• " أولا ده مش تنازل ، لو قرأتي الورقة جيدا ، ستجدين أنه بيع فعلي وبمقابل أكبر من ثمن الفيلا بكثير ، وكويس قوي إن أبوكم طلع الورقة دي ووراها لكم ، ابقوا اسألوه بقى طلعها

ليه ، والا أقول لكم علشان ما طولش عليكم المسافة ..كان أبوكم عايز يبيع الفيـــلا ، وده اللي جدك الله يرحمه كان عامل حسابه ، لم يفكر فيكم حتنامو فين ، شوفي يا بنتي ، الفيلا دي اشتراها عمك محمد من جدك الله يرحمه ، وصمم جدك أن يكتبها باسمه ، ويطردكم منـــها ، لكن عمك محمد رفض ، وصمم على كتابتها باسمي أنا والبنات ، علشان مايبقاش فيه إحـــراج لأبيكم ، حتى نصيبي ، رفض الحاج إلا أن يدفع ثمنه ، وده لسبب بسيط جدا ، لأن أمـــوال جدك كلها كانت قد ضاعت مع من ضاعت أموالهم في شركات توظيف الأموال ، وأبوكـــم أثقل على جدكم حتى ضاقت عليه حياته في الفيلا ، مش عايزه أقول طرده لأنها كلمة صعبـــة قوي ، وكبيرة قوي ، فتركها وجاء عندي ، يعني برضه أبوكم هو السبب في خروج جدكـــم من البيت وحضوره عندنا .."

وثار حسام :

- "وهو فيه برضه حد يضع أمواله في شركات هلامية زي دي ..؟"

وأجابت السيدة بهدوء :

- " جدك يا ابني لم يكن يملك سوي مائتين وخمسين ألف جنيه ، هي حصيلة بيع كل أملاكـــه ، مش عارفة يمكن كان حاسس باللي حيحصل بعد كده من تأميمات ومصـــادرة واســـتيلاء ، وحاجات كثيرة خربت بيوت ناس ، وأخلت بموازين كثيرة قوي ، وده طبعا بعد صدور قانون الإصلاح الزراعي ، فإن ما تبقي له بعد الإصلاح الزراعي خمسين فدان ، بإيجار سبع أمثـــال الضريبة ، والضريبة عشرة جنيه على الفدان ، يعنى سبعون جنيه إيجار يصفـــوا ســـتين بعـــد الضريبة ، يبقى الخمسين فدان بكام في السنة ، وهذه لا تكفي مصاريف تعليمنـــا ، والحيـــاة الراغدة التي كنا نحياها ، لمدة شهر ، فباع كل أملاكه ، وذهب لإيداعها ببنك في الجـــيزة ، مديره أحد أصدقاء جدك ، وأثناء توجهه للبنك بعد أن نزل من السيارة ، قام أحد اللصـــوص بخطف الحقيبة ، وأسرع بها ثم اختفى ، ولم يفلح السائق في معرفة مكانه ، لكن عمك محمـــد كان عنده الكلب مسعد مدرب على أعمال البوليس ، وقام باستردادها ، ولذلك كان عمـــك محمد عزيزا جدا عند جدك ، لأنه لولاه ، لمات جدك غما ، قبل أن نموت نحن من الجـــوع ، وكان إيراد مائتين وخمسين ألف جنيه من فوائد البنك مبلغ معقول في ذلك الوقت ، يكفينـــا

طول العام والحمد لله ، لكن مع زيادة الأسعار أصبح ذلك الإيراد لا يساوي شيئا ، ووالدك زي ما هو ، لم يتغير ، السهر يوميا ، ومصاحبة الغواني ..”

وقاطعتها نشوى :

• ”غواني ياطنط !!“

وردت السيدة عليها بامتعاض ، حيث أن الفتاة قالت كلمة غواني بطريقة فيها شئ من الاستنكار بتعالي واضح :

• " أيوه غواني يا حبيبة طنط ، وابقي اسألي الست والدتك علشان تؤكد لك الكلام ده ، لإنها لولا حبها له ، لانتهت حياتهم يمكن حتى قبل ما تتولد يا حسام ..“

وأمسكت السيدة عن الكلام ، فهو مهما كان أخوها ، وسؤال ابنته بهذه الغرابة ، وبالطريقة الاستفزازية التي نطقت بها العبارات ، كانت كمن تريد أن تشعرها بأن ما تقوله فيه بعض المبالغة ، وأن انتقامها من أخيها لا يكون بتشويه سمعته إلى هذا الحد ، ولكن السيدة ترى أن لكل شئ حدود ، فلا يصل بأبيهما الأمر إلى قلب الحقائق ، والدس في أخلاق الشرفاء ليخفي حقيقة أمره ، لكن نشوى في عصبيتها مما تسمع ، قلبت أوراق الملف ، لتقع عيناها على وثيقة طلاق تحمل اسم أبيها ، فنبهت حسام الذي فوجئ باسم المطلقة المصون ، وما استطاع أن يعلق بكلمة ، ولكنه نظر إلى نشوى مؤنبا فظاظتها مع عمتها ، ومؤكدا أن المستندات تؤكد كل كلمة قالتها ، ولما لاحظت السيدة توقفهما عند تلك الورقة ، حمدت الله سبحانه أن أثبت صدقها ، فهي لم تكن تعرف بوجودها في الملف ، لكنها سألتهما :

• " هل تعلمان كم كلفت هذه الورقة زوجي ؟ عشرين ألف جنيه ، لكي ينقذ أباكم من براثن هذه الحيزبون ، ولولا ذلك ، لتحمل أبوكم طفلا ليس ابنه ، ولكانت فضيحة بجلاجل ، وده كله كان بسبب اعتراض والدك الحبيب على إقامتنا معكم في الفيلا ، حتى ينهي عمك الحاج هذه الشقة ، ويعدها كما القلعة ليضمن بها نجاتنا من محبي سفك الدماء تحت مسمى التار ، يعني والدك المحترم ترك الفيلا للإقامة عند إحدى الغواني ، فقد وجد أن عشرته للغانية أفضل من عشرته لنا ، وطبعا كانت فرصة تصطاده بها ، فألزمته بالزواج منها ، وتحرك عمك محمد لتخليصه منها ، والثمن ..“

وبعد أن انتهوا من شرب الشاي الذي أعدته منال ، سألتهم السيدة عـن مشـروبهم التـالي ، وطلبت لنفسها قهوة على الطريقة القديمة ، التي تعلمتها من حماتها والدة زوجـها .. حبيبـها .. معبودها بعد الله سبحانه وتعالى ، فقد عشقت كل شئ منه أو من رائحته ، طعامـهم وشـرابهم وعاداتهم .. كل شئ ، حتى لكأن نورهان هانم بنت الذوات ، التي كانت تأمر فتطاع ، نسـيت اسمها ، بل تخلت عنه طواعية ، وسعدت بالاسم الذي أطلقه عليها زوجها ، فما عادت تحب أن تنادى إلا به ، وفي السنوات العجاف ، تقبلت الحياة بجفافها ، وقبلت بأقل القليل ، حـامدة الله سبحانه وتعالى على كل شئ ، تصبر بناتها على حياة الكفاف التي فرضتها ظروف المجتمع عليـهم ، وتعلم أن للصابرين أجرا عظيما في الدنيا ، ولهم الجنة في الآخرة .

صمتت قليلا إلي أن خرجت منال ، وقد لاحظت البسمات المتبادلة بينها وبين حسام ، فشـعرت ببعض السعادة ، فلعل الله يعوض صبرهم خيرا ، ويطلع حسام مستقيما كمـا كـان جـده ، ثم استأنفت الحديث :

- " أول ورقة في الملف يا حسام ، هي عقد شراء عمك للفيلا ، وستلاحظ أن قبلـها مجموعـة خطابات تعرض شراءها بالأسعار الموضحة بتلك الخطابات ، ذلك أن عمك محمد صمم علـى أن يكون السعر الذي يشتري به الفيلا أعلى من أعلى سعر عرض في تلك الفترة ثمنـا لهـا ، صحيح هي النهارده تستأهل أضعاف المبلغ الذي اشتراها به ، لكن لكل زمـن حسـاباته ، والثمن ده كان يجيب قصرا أحسن من فيلا جدك ، بس عمك محمد راعى في ذلك أن المبلـغ الذي يدفعه ، ليس ثمنا للفيلا ، بقدر ما هو مبلغ يمكن لجدك الحصول منه على عائد يتناسب مع مصاريفه ومصاريف بيتكم ، فلا يشعر الرجل في أواخر أيامه بالمهانة أو المذلة ، وحتلاقـي توقيع والدك المحترم على العقد كشاهد ، يعني إنكاره بعدم علمه ، لا يفسره سوى شئ واحد ، أنه لم يكتف بعدائه لنا ، ولكن يريدكم انتم أيضا أن تعادوننا ، بس فيه حاجة أخيرة لازم أقولها ، وهو إن جدك الله يرحمه ، كلف عمك محمد أضعاف ثمن الفيلا عمليات وأدوية وعـلاج ، وبرضه ، كل المستندات موجودة في الملف ، والفوائد اللي كانت عائدا على مبلغ الفيـلا ، موجودة مستنداتها في الملف .. ولو حسبتها ، حتلاقيها أقل بكثير من المبالغ اللي كان الحـاج بيبعتها لكم ، فضلا عن مصاريف كلياتكم والدروس الخصوصية .. إلى آخره "

وصمتت السيدة لفترة وجيزة ، كفكفت فيها دموعها ، وهدأت قليلا ، ثم نادت منال ، وسألتها سؤالا مباشرا وصريحا :

• " منال – خالك مش موافق عليك زوجة لابنه حسام .. إيه رأيك ؟"

وأجابت الفتاة على الفور ، وبدون أدنى تردد :

• " أنا كمان يا ماما مش موافقة على الجوازة دي .. اللي سمعته كان كفاية علشان أصدر هـذا القرار ، فما يدريني لعل الباشا يشابه أباه وأندم باقي عمري .."

كان ردها سريعا ومباشرا ، لم يكن حسام يتوقع أن يكون بهذه القسوة ، وقفـزت إلى ذاكرتـه المقارنة بين ردها السريع ، وربما التلقائي ، وبين تلكؤ صفيه عندما رفض والده عريسها لعدم رغبته في تحمل الجهاز وكل شئ ، بل ومراجعتها له في قراره مرارا وتكرارا وربما حتى هـذه اللحظـة ، منال لم ترغب في أن تكون مفروضة على أبيه ، بالرغم من الحب الذي كانت تبثه لحسام في الهاتف منذ لحظات ، وبالرغم من ترحيب والدته وأختيه بها ، وصفيه لم يهمها إلا أن تظفر بعريس تقدم لها ، ربما حتى ولو لم يكن هناك حب ، المهم أن هناك عريسا قبل بها ، بعد أن مرت أعوام الجامعة دون ارتباط ، فمتى سيكون الارتباط إذا ؟ ، هنا المسألة لم تكن في مساومات على جهاز عروس أو مهر أو خلافه ، ولكن على مبدأ أن تقبل الزواج من رجل يرفضهم والده ، ويفتري عليهم كل هـذه الافتراءات بالرغم مما فعله وما زال يفعله والدها لهم ، والرد نفسه كان درسا قويا ، فمادام الوالد كذلك ، فكيف سيكون الابن ؟ لها كل الحق ، ولم يجد حسام أو نشوى مـا يقولانـه ، سـوى الانسحاب في هدوء وصمت ، ذلك الصمت الذي فرضه عليهما ما أظهرته عمتهما لهمـا مـن مستندات تؤيد كرم زوجها مع أخيها ، وتبين مدى افتراء أخيها على زوجها ، وصمتت عمتـهم أيضا ، فقد شعرت أن ما حدث كان درسا وأي درس ، لكن هل سيرعوي ذلك العاق شـارب الخمر ، المعاقر لكل الموبقات ، الذي لا يهمه إلا نفسه وفقط ، ذلك الذي لا يرضى بالسـعادة إلا لنفسه ، وليذهب الجميع إلى الجحيم !! إنه لا يفعل ذلك انطلاقا مما يعلنه ويتجنى به على الحـاج محمد ، ولكنه من المؤكد أنه يخشى مواجهته ، ذلك الرجل الذي عاداه ، فرد عليه عداوته بالصفح والكرم ، الذي رضي بوالدها ضيفا معززا بكل ما يعانيه من أمراض وما يحتاجه من إنفاق ، بعد أن طرده ابنه من بيته الذي يملكه ويأويه فيه ، ورفض حتى أن يقوم بتوصيله بالسيارة الـتي يملكـها الأناضولي باشا ويتحكم مدحت ابنه فيها ، أي أخ هذا !! بل وأي ابن هذا !! إن قـرار منـال

الفوري الذي يخلو من المجاملة ، صائب بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى . وإذا كان هذا قرارها ، ولم يحدث بينهما سوى تعبيرات حب ولقاء أهل ، فأين هو الرسم الذي كان يرسمه زوج عمته عليه ؟ ثم من هو حتى يرسم عليه رجل بهذا الثراء وهذا السخاء ؟ مجرد ضابط شرطه ، مثله مثل عشرات بل مئات وربما ملايين البشر ، ولكنه يزيد عنهم بأنه معرض لأخطار ومهالك قد لا يتعرض لها غيره ، ماذا ستجنيه المسكينة بزواجها منه إلا السهر والانتظار والخوف والترقب ، هل هذه هي حال كل الزوجات ؟ إن الزواج من رجل عادي ، موظف أو تاجر أو أيا كانت وظيفته أفضل مئات المرات من زواجها من ضابط شرطة ، وإن كانت لبعضهم بعض التصرفات غير المسؤولة ، فتلك ليست القاعدة ، في كل فئة منها الجيد ومنها المسيء ، لكن القلق ، والخوف من الأحداث ، كل يوم هجوم إرهابيين ، وقتل ضباط شرطة أو اغتيالهم ، الحقيقة أن والده يفتري على هؤلاء الناس بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، حتى زواج منى ، ألا يعتبر السلحدار بك فرصة نسب أفضل عشرات المرات من والده ، السلحدار يملك ، ووالده لا يملك ، هذا له مكانته في المجتمع ، وكلمته نافذة ، إن لم يكن بشخصه ، فبأقربائه ، فماذا عند والده ؟ حتى أصدقاؤه انفضوا من حوله ، فما عاد له أصدقاء ، وليس لهم أقارب ، فقريبتهم الوحيدة عمته ، وها هو يعادي زوجها ، رغما عن كل ما فعله ويفعله لهم .

وحضرت منى فوجدت الصمت والحزن والدموع المتحجرة في المآقي ، فحاولت الترحيب بهما للتخفيف من حدة الموقف ، لكن الأمر كان أكبر كثيرا من مجرد الكلام ، واتجها إلى الباب الذي ما أن فتح ، حتى كان الحاج محمد أمامهم ، فانهار حسام على يديه يقبل فيهما ويبكي بكاء مرا ، رفعه الرجل وأخذه على صدره ليكمل بكاءه محاولا إدخاله البيت هو وأخته ، لكنه نظر إليه نظرة جريحة ، وهرول مبتعدا ، وأخته خلفه ، وعمته تشيعه بعبارة واحدة ، حملتها كل غضبها وثورتها على الرجل الذي لم يؤثر فيه كرم زوجها ، إلا بالافتراء عليه :

• " قول لوالدك المحترم يسيب الفيلا قبل نهاية هذا الأسبوع ، قبل أن أضطر لطردكم منها بأمر المحكمة ، كل واحد أولى بحقه .."

وأسرع الحاج محمد يخلي الصالة من الحريم قبل أن يرحب بضيفة ، شاب في أوائل الثلاثينات ، له هيبة وحضور ، وسيم في وسامة النبلاء ، تشعر بدماثة أخلاقه من طلعته ، ووجهه الذي لم يفارق النظر إلى الأرض ، دخل على استحياء ، وجلس حيث أرشده الحاج محمد . لمحته نشوى وهو

خارج من المصعد ، وهي تزلف إليه ، اعتذر لها بأدب مبالغ فيه ، فغمزت لأخيها بأن هناك أكثر من عريس يتمنى الارتباط بهذه العائلة ، فمن سيجد رجلا بأخلاق عمك محمد وكرمه ، ومن يجد عروسا في جمال منال وتدينها ، وقالت بهدوء كأنما تقرر حقيقة :

• "إن والدك يتجنى على عمتك وزوجها .. دافع عن حبك لبنت عمتك ، ولو أنني كنت رجلا ، وفي موقفك ، لما كان لأبي رأى في هذا الأمر ، لكننا مغلوبات على أمرنا نحن الفتيات .."

لكن حسام لم يكن في وضع يسمح له بالتفكير في أي شئ ، لقد فقدها إلى لأبد ، لن يستطيع حتى أن يقترب من بيتهم بعد الآن ، إن عبارة عمته له أثناء خروجه ، تدل دلالة قاطعة على أنها لن تغفر لأخيها ما فعله بهم ، وإذا كانت قد تسامحت في السابق ، فإنها لن تتسامح فيما هو قادم ، وإن كان الشاب الذي زلف من باب المصعد عريسا لمنال ، سيكون أفضل بدون شك ، على الأقل ليس له والد كوالده ، كم يتمنى أن يكون قد فقده منذ ما قبل لقائه بمنال ، كم تمنى أن لا يكون قد رأى منال أو قابلها أو أحبها ، كم تمنى أن يكون قد انتهت حياته قبل هذه اللحظات الحرجة التي تحمل فيها كل أخطاء والده ، وكم هي المشاكل كثيرة وكبيرة ، ولكن التالي من المؤكد أنه سيكون أكبر بكثير، فإلى أين بعد خروجهم من الفيلا ؟ ولم يصبح الهاجس الآن زواجه من ابنة عمته أم لا ، ولكن المشكلة التي تهز كيانه كاملا هي ، أين سيذهبون ؟

لحظات من الحسرة استولت على مشاعره ، فاسودت الدنيا في عينيه ، لم يعد يرى الطريق واضحا ، كاد أن يصطدم بأكثر من سيارة ، وكاد أن يدهس أكثر من عابر للطريق ، ولولا نشوى إلى جواره تنبهه ، وتحاول التخفيف عنه ، لما وصلا البيت بسلام ، لكن أي سلام هذا ، لقد اندفع فورا إلى غرفته وأغلق بابها ، ولم يستجب لطرق أي من أختيه أو والدته ، بينما والده يرقب كل شئ دون أن يحرك ساكنا .



وصمتت السيدة لفترة وجيزة كفكفت فيها دموعها ، وبعد أن هدأت قليلا ، نادت منال

زفاف بالملابس السوداء

قصة من تأليف محمود عبد العزيز فرج

" الجزء الأول "

رقم	محتـــــوى	صفحة
١	حـــــب	١
٢	نـــــزوة	١٨
٣	نذالـــــة	٢٨
٤	إهانـــــة	٣٩
٥	جريمـــــة	٦٠
٦	اتـــــهام	٧١
٧	من الجانى ؟	٧٩
٨	طعام الإفطار	٩٢
٩	ذكريات حب	١٠٢
١٠	شقة الأنـــس	١٠٨
١١	خطوبـــــة	١١٩
١٢	التعـــــارف	١٣١
١٣	إســـــماعيل	١٤٢
١٤	الحقيقـــــة	١٦٧

للمؤلف تحت الطبع

مقـــبرة الأحيــــاء

أشـــجار الــــبروتين

مواقف مـــن بلـــدى

دائمـــاً المـــــرأة

العــــذاب الأســـود

الملـــك القرصـــــان

خزعبـــــــــــلات

أغنيـــاء وفقــــراء

لحظـــات النــــدم